جيرار دي نرڤال

ترجمة : د. كوثر عبد السلام البحيري

رحلة إلى الشرق

الجزء الرابع

رحلة إلى الشرق

جيرار دي نرفال

الجزء الرابع

ترجمة : د. كوثر عبد السلام البحيري



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

الإخـــراج الفنى

زهـــور الســـلام شـــاكر

الوضع الاجتماعى للنساء

ظل الناس يعتقدون لمدة طويلة أن الإسلام يضع المرأة فى مكانة وضيعة للغاية بالنسبة لمكانة الرجل حين جعل منها إلى حد ما ــ جارية لزوجها . وتلك فكرة سرعان ما تسقط إزاء الدراسة الجادة لعادات وتقاليد الشرق . والأجدر أن نقول إن محمداً قد رفع مكانة المرأة كثيرا عما كانت عليه من قبل .

وقد أقر موسى أن نجس المرأة التى تلد بنتا وتدخل فى العالم سببا جديداً من أسباب الخطيئة ينبغى أن يكون أطول من تلك التى تلد مولوداً ذكراً . ويستبعد التلمود النساء من الاحتفالات الدينية ويحظر عليهن دخول المعبد . أما محمد فعلى العكس من ذلك فقد أعلن أن المرأة فخر الرجل وسمح لها بدخول المساجد وأعطاها من أمثلة عظيمات النساء آسيا زوجة فرعون ومريم أم المسيح وابنته فاطمة . ولتسقط هنا تماما تلك

الفكرة الأوربية التى تصور محمدًا كما لو كان لا يعتقد فى وجود الروح لدى النساء ، وثمة رأى آخر مازال واسع الانتشار وهو الذى يقول بأن الأتراك يحلمون بسماء غاصة بالحوريات من دائمات الشباب اللائى يتجددن دوما ، فذلك خطأ . فما الحوريات الا الزوجات بعد أن يستعدن شبابهن ويتغير شكلهن فيصبحن أكثر بهاءً ، ذلك أن محمداً سوف يطلب من المولى أن يفتح جنات عدن للمؤمنين وأقاربهم وأزواجهم وأطفالهم ممن يكونون قد اتبعوا الفضيلة وسوف يقول لهم : «ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم واستمتعوا فيها ما شئتم ! »

ومن هذا النص وغيره مما نستطيع تقديمه لابد أن نتساءل من أين وجد ذلك الحكم الخاطئ المتجمد الذى مازال منتشراً بيننا . وربما كان علينا ألا نبحث عن سبب آخر لذلك غير ذلك الذى يدل عليه أحد كتابنا القدامى[1] إذ يقول : «إن ذلك الحكم التقليدى مبنى على دعابة أرسلها محمد لامرأة عجوز كانت تشكو له من مخاوفها حول مصيرها من الجنة لأنه قال لها «لن تدخل الجنة عجوز» . وحين رأى ماآلت اليه من يأس أضاف أن جميع النساء سوف يستعدن شبابهن قبل دخول الجنة» .

ومع ذلك ، فإذا كان محمد مثل القديس بولس ، يعطى الرجل السلطة على المرأة فقد عنى ببيان أن ذلك مقابل إلزامه بإطعامها وإسكانها

(١) ملاحظات تاريخية ونقدية عن المحمدية (١٧٥١) ترجمة مقدمة ترجمة معانى القرآن إلى الإنجليزية لجورج سال gorge sale (١٧٣٤) .

ونفقتها . أما الأوربى فهو على العكس من ذلك يطلب بائنة من المرأة التى يتزوجها .

أما الأرامل أو النساء غير المرتبطات بأزواج لسبب أو لآخر فلهن مثل الذى للرجل من حقوق ، فلهن حق الاكتساب والبيع والميراث . صحيح أن إرث البنت لا يبلغ إلا ثلث[٢] إرث الابن الا أنه قبل محمد كانت أموال الأب تقسم بين الأبناء القادرين على حمل السلاح دون غيرهم بل إن مبادئ الإسلام لا تتعارض الا قليلا مع فكرة أن تحكم المرأة . ويمكننا أن نذكر فى تاريخ العرب عدداً كبيرا من السلطانات المطلقات وذلك بخلاف السيطرة الحقيقية التى تمارسها داخل سرايات السلطانات الأمهات والمحظيات .

وإن جميع النساء الأوربيات اللاتى اتيح لهن الدخول إلى أى حريم مسلم يتفقن على إطراء السعادة التى تستمتع بها النساء المسلمات . وفى ذلك تقول ليدى مورجان[٣] : «إننى مقتنعة بأن النساء فى تركيا هن وحدهن اللاتى يستمتعن بحريتهن » . بل إنها ذهبت إلى حد الأسى على مصير الأزواج الذين يضطرون لإخفاء خياناتهم إلى اتخاذ وجوه حذر تزيد

---

(٢) واضح أن هذا خطأ فالمعروف أن الابن يرث مثل حظ الأنثيين

(٣) ليدى مورجان (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) كاتبة قصص ورحلات لذكرتها بصفة خاصة : « للمرأة وسيدها » (١٨٤٠) .

عن تلك التى يتخذها الأزواج لدينا . وربما لم تكن تلك الملاحظة الأخيرة صحيحة الا بالنسبة للأتراك الذين يتزوجون من امرأة من أسرة كبيرة . وتلاحظ ليدى مورجان بحق أن تعدد الزوجات ـ الذى لم يفعل محمد سوى أن قبل مبدأه ـ هو أقل ندرة فى الشرق مما هو فى أوربا حيث يوجد بصور أخرى . لابد إذن من العدول تماماً عن فكرة هذه الأحرمة (جمع حريم) التى صورها كاتب «الخطابات الفارسية»[٤] حيث كانت النساء اللاتى لم يرين الرجال فى حياتهن يضطررن إلى استلطاف أوزبك للطفه معهن رغم ثقله .

ويقودنا ذلك إلى الحديث عن عقاب النساء الزانيات . ويعتقد بصفة عامة أن للزوج الحق فى اللجوء إلى العدالة والقذف بزوجته إلى البحر فى كيس من الجلد يضع فيه معها ثعبانا وقطة . وإذا كان هذا اللون من التعذيب قد حدث فى بعض الأحيان فلم يصدر الأمر به إلا من بعض السلاطين والباشوات من ذوى النفوذ ممن يستطيعون تحمل مسئولية ذلك . وقد شهدنا مثل تلك الوسائل الانتقامية فى العصور الوسطى المسيحية .

ولنعلم أنه إذا قتل رجل زوجته بعد أن يفاجئها متلبسة فقلما يعاقب اللهم إلا إذا كانت الزوجة من أسرة كبيرة . ولكن الأمر كما يحدث لدينا

---

(٤) مونتسكيو .

حيث يبرئ القضاة عادة القاتل في مثل هذه الظروف . وإلا فلابد له من إحضار أربعة من الشهود الذين إذا أخطئوا أو اتهموا بالباطل يتحمل كل منهم ثمانين جلدة . أما الزوجة وشريكها المقران تماماً بجريمتهما فيتلقى كل منهما مائة جلدة بحضور عدد من المؤمنين . ومما يذكر أن الإماء المتزوجات لا يتلقين الا خمسين جلدة بمقتضى فكرة جميلة للمشرع تقضى بأن تكون عقوبة العبيد نصف عقوبة الأحرار لأن العبودية لم تعطهم إلا نصف متاع الحياة .

كل ذلك مذكور في القرآن . صحيح أن كثيرا مما ذكر في القرآن مذكور في الإنجيل ، وأن ذوى النفوذ يفسرون ويعدلون حسب إرادتهم . إلا أن الانجيل لم يصدر أحكاماً متعلقة بالعبودية ، ودون أن نتحدث عن المستعمرات الأوروبية فقد كان للشعوب المسيحية عبيد في الشرق كما كان للأتراك . وقد ألغى باى تونس منذ قليل العبودية في ولاياته دون أن يكون بذلك قد ارتكب خرقا للقانون الإسلامى .

المسألة إذن لا تعدو كونها مسألة وقت . ولكن أين هو الرحالة الذى لم تدركه الدهشة إذ لمس رقة العبودية الشرقية ؟ إن العبد هو أشبه شئ بالابن المتبنى وهو جزء لا يتجزأ من الأسرة . وكثيرا ما يصبح وارثا لسيده . وغالبا ما يعتق بعد موت سيده وتكفل له وسائل العيش . لا ينبغى أن نرى في العبودية في البلاد الاسلامية الا لونا من الامتصاص يمارسه مجتمع واثق من قوته على الشعوب الهمجية .

ومن المستحيل أن نسي٭ تقدير الطابع الاقطاعي العسكري
فالمؤمن الحق هو الرجل الطاهر القوى الذى ينبغى أن تكون ل
بالشجاعة والفضيلة معاً . وهو أكثر تحررية من نبلاء العصور الوس
يمنح امتيازاته إلى كل من يعتنق دينه . وهو أكثر تسامحاً من عبراني
لأن كلا من هؤلاء لا يقبل أن تعتنق الشعوب المغلوبة دياناتهم بل
عليها قضاء مبرما . أما المسلم فيترك كلا على دينه وعاداته وتقال
يطلب إلا السيطرة السياسية . وما تعدد الزوجات والعبودية بالنس
وسائل لتجنب أضرار أكبر ، أما الدعارة ، وهى لون آخر م
العبودية ، فتفترس كالجزام فى المجتمع الأوروبى بضرب الكرامة
وبطرد تلك المخلوقات البائسة ، اللاتى كثيرا ما تكن ضحايا للجـ
أو للبؤس من الدين وكذلك تطردهن الأخلاق من السلم الط
ترسمه . هل تود أن تسائل كذلك عن وضع اللقطاء فى مجتمع
يشكلون تقريبا عشر السكان ؟ إن القانون المدنى يعاقبهم على خـ
ويطردهم من الأسرة ومن الميراث . أما أبناء المسلم فكلهم يولدون
ويقسم الميراث بينهم بالتساوى .

أما عن الحجاب الذى تلتزم به المرأة فالمعروف أن تلك
القدم تتبعها فى الشرق النساء المسيحيات من اليهود والدرو
ليست اضطرارية إلا فى المدن الكبيرة . أما النساء فى الريف أو ا
يخضعن لها مطلقاً ولذلك فإن القصائد الشعرية التى تتغنى بغرامـ

وليلى وخسرو وشيراى ، وجميل وشمبا[*] «كذا» وغيرهم فلا تشير أية اشارة إلى الحجاب ولا تحجب النساء العربيات . إن الوفاء الذى تتسم به عواطف الحب هذه يشبه فى أغلب تفصيلات الحياة تلك التحليلات الغرامية التى دقت لها جميع القلوب ابتداء من دافنيس وكلويه حتى بول وفرجينى .

ولابد أن نستخلص من هذا أن الاسلام لايصد أى شعورسام من المشاعر التى تنسب إلى المجتمع المسيحى . فالخلافات قامت حتى الآن فى الشكل أكثر منه فى جوهر الأفكار فالإسلام لايشكل فى الحقيقة إلالونا من المذاهب المسيحية . وأن كثيرا من ألوان الكفر البروتستانية ليست أقرب إليهم من المبادىء المسيحية . وهذا صحيح والدليل على ذلك أن ليس ثمة ما يضطر المسيحية التى تتزوج من تركى الى تغيير ديانتها . ولاينهى القرآن المؤمنين إلا عن الزواج بالمشركات ويسمح لهم بالاقتران بأية امرأة من أى دين مبنى على التوحيد .

(*) ربما كان يقصد بثينه .

الحياة الخاصة فى القاهرة

إن الرجل الذى يبلغ سن الزواج فى مصر ولايتزوج إذا لم يقدم أسبابا مقبولة تضطره إلى البقاء أعزب فإن سمعته تتأثر بذلك . ولذلك فإنك تشاهد الكثير من حفلات الزواج فى هذا البلد .

وفى اليوم التالى للعرس تسيطر الزوجة على الحريم وهو جزءمن المنزل منفصل عن بقية الأجزاء . ويأتى أولاد وبنات فيرقصون أمام بيت العروسين أو فى أحد أفنيته الداخلية . وفى هذا اليوم ، اذاكان العريس شابا فان الصديق الذى أوصله فى الليلة الماضية الى الحريم يأتى إلى بيته مصحوبا بأصدقاء آخرين ويصحبونه إلى الريف حيث يقضون اليوم بطوله ويسمى هذا الاحتفال«بالهروبه» . وفى بعض الأحيان ينظم العريس نفسه هذا الاحتفال ويقدم جزءا من النفقات إذا تعدت جملة المساهمات التى فرضها أصدقاؤه على أنفسهم(النقوط) . ولكى تشيع البهجة فى الحفل فكثيراما يستأجرون بعض الموسيقيين والراقصات . أما إذا كان العريس من طبقة دنيا فإنه يعاد إلى بيته فى موكب يتقدمه ثلاثة أو أربعة

من الموسيقيين الذين يعزفون على المزمار ويقرعون الطبول . أما الأصدقاء ومن يصحبون العريس الحديد فإنهم يحملون باقات الزهور . فإذا حدث وكانت العودة بعد غروب الشمس فإن رجالا من حاملى المشاعل يصحبونهم . وهى أشبه بعصا ذات حوض أسطوانى الشكل من الحديد يوضع فيه الخشب المشتعل وفى بعض الأحيان تحمل تلك العصا فانوسين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة فتلقى ضوءًا ساطعا على مكان مرور الموكب . وثمة أشخاص آخرون يحملون المصابيح بينما يحمل أصداقاء العريس الشموع المضاءة وباقات الزهور . واذا كان العريس ذا يسر فإنه يتخذ استعدادته بحيث تستطيع أمه أن تقيم معه هو وزوجته حتى تسهر على شرف تلك الأخيرة وشرفه . ولذلك يقولون إن أم الزوج تسمى « حماه » ومعناها الحامية أو الحارسة .

وأحيانا يترك الزوج زوجته لدى أمها ويدفع نفقات الإثنتين . ويظنون أن هذا التصرف لابد أن يدعو أم الزوجة إلى السهر على سلوك ابنتها على أقل تقدير لكى تحتفظ بالنفقة التي يدفعها لها الزوج وتمنع هذا الأخير من البحث عن حجة للطلاق . ولكن كثيرا ما يخيب هذا الأمل .

وعلى العموم فإن الرجل الحذر الذى يتزوج يخشى كثيرا لقاءات زوجته بحماته ويحاول انتزاع كل فرصة تتيح للحماة رؤية ابنتها وهذه الفكرة لدى الزوج متغلغلة الجذور فى نفسه بحيث يعتقد البعض أنه من الأضمن البحث عن زوجة لا أم لها ولاقريبة مقربة : بل إنه من المحظور على بعض

النساء استقبال أية صديقة من جنسهن فيما عدا قريبات الزوج . ومع ذلك فإن هذا القيد كثيرا مالايلتفت إليه .

وكما ذكرنا فيما سلف فإن النساء يقمن فى الحريم وهو جزء منفصل عن منازل المصريين . ولكن بصفة عامة فإن من يحملن لقب « زوجات » لا يعتبرن سجينات . فلهن عادة حرية الخروج والقيام بالزيارات ويستطعن استقبال النساء من صديقاتهن ما شاءت لهن رغباتهن ذلك . والجوارى فقط هن اللاتى لا يتمتعن بتلك الحرية بسبب حالة العبودية التى تجعلهن خاضعات للزوجات والسادة .

ومن أهم اهتمامات السيد وهو يعد الأجنحة المنفصلة التى سوف تصبح سكنا لزوجاته هو إيجاد الوسائل التى تكفل عدم رؤية أحد لهن سواء من الخدم الذكور أو غيرهم من الرجال دون أن يكن محجبات حسب تعاليم الدين . ويضم القرآن بهذا الصدد من النصوص ما يوجب ويحتم على كل مسلمة زوجة أو غير زوجة أن تخفى عن الرجال كل ما يثير الفتنة ويلفت إليها الأنظار ، ومن ذلك قوله تعالى :

« يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن »

الآية ٥٩ : الأحزاب

وقوله تعالى فى سورة النور : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن

بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن إلى آخر آية ٣١ من سورة النور .

وهذه الفقرة الأخيرة تشير إلى عادة كانت لدى الشابات العربيات في زمن النبي بأن يضربن الحلى اللاتى كن يلبسنها عادة فوق عرقوب القدم الواحدة فى الأخرى . وكثيرات من النساء المصريات يحتفظن بهذا النوع من الحلى .

ولكى نفسر الفقرة السابقة من القرآن التى بدون هذا التفسير قد تؤدى إلى فهم خاطئ للعادات الحديثة بخصوص استقبال بعض الأشخاص فى الحريم وعدم استقبالهم لابد هنا من ذكر ملاحظتين هامتين استقيناهما من بعض مشاهير المعلقين[٦] .

أولى الملاحظتين تتعلق بعبارة : « أو زوجات هؤلاء » ومعنى هذا أن هؤلاء النسوة يجب أن يكن على دين محمد ذلك أنهم يعتبرون أنه من غير المشروع أو على الأقل غير المناسب أن تتكشف المرأة أمام من يسمونها بالكافرة ذلك لأنهم يعتقدون أن هذه الأخيرة لن تتورع عن وصفها للرجال . ويعتقد آخرون أن النساء الأجنبيات بصفة عامة يجب استبعادهن من الحريم إلا أن علماء الدين لم يتفقوا على هذه النقطة . ويحدث دائما فى مصر ، وربما فى غيرها من البلاد التي يدعي فيها

---

(٦) لنأخذ كل ما يذكر جيرار لنا على سبيل الدعابة والطرافة فهو أقرب إلى التهريف بحيث لا نجد ما يدعو لاجهاد أنفسنا فى ضحضه .

للإسلام ، ألا يكون ثمة احراج فى استقبال أية امرأة فى الحريم سواء أكانت حرة أم خادمة أم عبدةمسيحية كانت أم يهودية أم مسلمة أم مشركة .

أما فيما يختص بالنصف الثانى من الفقرة المشار إليها والتى تتحدث عن العبيد فإننا نقرأ فى القرآن ما يتضمن معنى ما يلى : « يستثنى من ذلك العبيد من الجنسين ، ويعتقد أن الخدم من غير العبيد داخلون فى الاستثناء وكذلك من ينتمون إلى بلاد أجنبية »[7] واستناداً إلى تلك الحجة يذكر أن « محمداً قد أهدى ابنته فاطمة يوماً عبداً من الرجال : فلما رأته هذه يدخل عليها ولم تكن تضع الا حجابا رقيقا كان عليها أن تختار بين ضرورة ترك رأسها مكشوفا أو كشف الجزء الأسفل من جسمها ، فالتفتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أبيها ، الذى شاهد حيرتها فقال لها أن ليس عليها أى حرج ما دام ليس فى حضرتها سوى أبيها وأحد العبيد » .

وربما كانت تلك العادة سائدة لدى العرب فى الصحراء ولكن فى مصر لا يرى أبداً أى عبد بالغ يدخل حريم رجل ذى جاه سواء أكان فردا منه أم لا . أما عبد المرأة من الذكور فقد يحصل على مثل هذا الامتياز لأنه مادام عبداً لا يمكن أن يصبح زوجاً لها .

---

(٧) لسنا فى حاجة إلى إيضاح أن كل ما يقول جيرار من أمثال تلك الملاحظات هراء لا يدل إلا على ماكان فى الغرب من فهم خاطىء للإسلام وعاداته .

وندهش إذ نلاحظ أن فى تلك الفقرة من القرآن التى نتحدث عنها لم يأت ذكر للأعمام والأخوال من حق فى رؤية بنات إخوانهن وأخواتهن بدون حجاب . ولكن يعتقد أن ذلك لكى لا يقمن بوصف بنات العم والخال لأبنائهن وصفا مغريًا . ويعبر المصريون أن وصف ملامح المرأة وصفا تحليليا من الأمور غير اللائقة للغاية وأنه لأكثر لياقة أن يقول المرء وإنها ذات عينين جميلتين وأنف يونانى وفم رقيق الخ .. وحين يكون الحديث مع شخص من جنس الذكور يحظر عليه القانون رؤيتها . ولكن فى الإمكان وصفها بعبارات عامة بأن يقال إنها لطيفة وأنها تتزين بالكحل والحناء . (٨)

وعلى العموم فإن الرجل لا يستطيع أن يرى بدون حجاب إلا زوجاته الشرعيات وجارياته من النساء أو النساء اللاتى يحرم عليه القانون الزواج منهن بسبب قرابتهن المقربة إليه وصلة الدم أو لأنهن كن أمهات مرضعات له أو لأبنائه أو مقربات من مرضعته . والحجاب يمت الى العصور الموغلة فى القدم .

ويعتقد فى مصر أن الأجدر بالمرأة أن تغطى الجزء الأعلى او الخلفى من الرأس من أن تغطى وجهها ولكن الأهم من ذلك أن تغطى وجهها أكثر من الأجزاء الأخرى من جسمها : وعلى سبيل المثال فإن المرأة التى

(٨) يقول جيرار فى تفسير الكحل إنه قطرة معطرة تظلل الأجفان العليا والسفلى ويحصلون عليها بحرق قشر اللوز المضاف إليه بعض الأعشاب . ويقول فى الحناء إنها مسحوق نباتى تصبغ به النساء أجزاء من أيديهن وأقدامهن .

لا يمكن إقناعها بنزع الخمار أمام الرجال ، لا تجد أدنى حرج من تعرية صدرها أو فخذها بالكامل تقريبا.[٩]

ومعظم نساء الشعب يظهرن أمام الناس عاريات الوجه ، ولكن يقال إن الحاجة تضطرهن إلى ذلك لأنهن لا يملكن ما يشترين به البرقع .

وإذا فاجأ أحدهم امرأة محترمة بدون خمار فإنها تهرع إلى تغطية وجهها بطرحتها (أى الخمار الذى تغطى به رأسها) وتصيح قائلة :

« ياللتعاسة ! يا للشقاء الأعظم ! » ومع ذلك فقد لاحظنا أن التأنق يدفعهن أحيانا إلى إظهار وجوههن للرجال ولكن كما لو كان ذلك حدث بمحض الصدفة . ومن أعلى أسطح منازلهن ومن خلال الشرفات المغطاة يبدو عليهن أنهن يتابعن (دون انقطاع ما يدور حولهن . ولكن كثيرا ما يكشفن عن وجوههن مع النية المبيتة بأن يراها الرجال .

والبيوت فى القاهرة عادة صغيرة والأجنحة الخاصة بالرجال لا توجد لذلك فى الطابق الأرضى . ولذا فعليهم أن يصعدوا إلى الطابق الأول حيث توجد عادة أجنحة النساء ولكن لتجنب اللقاءات التى يسميها المصريون غير مرغوب فيها والتى يراها الفرنسيون مرغوبا فيها ، فإن الرجال وهم يصعدون السلم لا يكفون عن الصياح بصوت عال جداً : « دستور ! (أى عن إذنك) ياستى ! » أو إصدار غير ذلك من صيحات

(٩) يكثر جيرار من هذه التفصيلات الخاطئة على سبيل الدعابة وإثارة إهتمام القارئ الفرنسى .

التعجب لكى تستطيع النساء الانسحاب أو على الأقل اسدال خمرهن ، وهذا ما يفعلن حين يسدلن الخمار على الوجه بحيث لا يتركن مكشوفا إلا عينا واحدة .

ويبالغ المسلمون فى طابع تقديسهم لكل ما يتعلق بالنساء بحيث انه من المحظور على الرجال دخول مدافن بعضهن . وعلى سبيل المثال فإنهم لا يستطيعون دخول مدافن المدينة ، بينما يسمح للنساء بزيارة جميع تلك المقابر[١٠] . ولا يحدث أبدا أن يدفن رجل وامرأة فى مقبرة واحدة إلا إذا أقيم حائط عازل بين النعشين[١١]

وليس جميع المسلمين تمثل تلك الصراحة فيما يختص بالنساء ، فإن مسترلين[١٢] Willian lane كاتب تلك التفاصيل الطريفة يقول إن احد أصدقائه من المسلمين قد أراه أمه ، التى تبلغ الخمسين من عمرها ولكنها كانت لأناقتها ونضارتها تبدو كما لو كانت لم تتخط الأربعين . وفى ذلك يقول : «إنها تقدمت حتى الباب الخارجى للحريم وهو الحد الأقصى بالنسبة للزوار ، وجلست خلف باب الغرفة دون أن تقبل الدخول إليها . وكما لو كان الأمر محض صدفة تركت السيدة الخمار ينسدل وتركت وجهها

---

(١٠) قول خاطىء من أساسه والعكس هو الصحيح وإن كان ذلك يمت للعادات المعمول بها لا لتعليمات دينية .

(١١) لا يدفن المسلم فى نعش وجيرار يتكلم حسب تقاليد مجتمعه هو .

(١٢) جزء كبير من هذا الملحق مترجم من ويليام لين أو مستقى منه وهذا ما يقول جيرار نفسه .

يظهر مكشوفا . وكانت عيناها يخططها الكحل ولم تحاول إخفاء ما تلبسه من ماس وربر حد وغير دلك من الحلى بل على العكس كان يبدو عليها أنها تريد إطهارها فإن هذا المسلم لم يشأ أبداً أن يريبى زوجته مع أنه تركى أتحدث معها فى حضرته على زاوية جدار بالقرب من الشرفة فى مكان لا أستطيع رؤيتها منه » ومهما يكن من أمر فإن النساء فى مصر أقل تحفطا مهن فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية العثمانية ؛ وليس من النادر رؤية نساء يمزحن فى الأماكن العامة مع الرجال ولكن ذلك لا يحدث إلا فى طبقات الشعب . ويعتقد بناء على ذلك أن نساء الطبقة المتوسطة والأعلى من ذلك كثيراً ما يشعرن بأنهن تعيسات ويكرهن العزلة المفروضة عليهن إلا أن الأمر على العكس منْ ذلك تماما فإن المصرية المرتبطة بزوجها إذا تمتعت بمزيد من الحرية فتظن أنه يراقبها بشدة . وهذا ما يبغى له أن يفعل حسب العرف السائد . فإن زوجها قد فترحبه بالنسبة لها وكثيرا ما تشعر بالحسد نحو النساء المحاطات بحراسة أكبر شدة وصرامة .

ورغم أن القانون يسمح للمصريين بالزواج من أربع بخلاف ما يبغون من محظيات من الحوارى فعادة ما تراهم لا يتخذون إلا زوجة واحدة أو محظية واحدة من الحوارى . ومع دلك فإن الرجل حين يكتفى بامتلاك امرأة واحدة يستطيع أن يغيرها ما دعته نزواته إلى ذلك ومن النادر أن نجد فى القاهرة أناسا لم يطلقوا على الأقل مرة واحدة إذا كان قد أمضى فى الزوجية مدة طويلة . فالزوج يستطيع حين يروق له ذلك أن يقول لزوجته : « أنت طالق » سواء أكانت تلك الرغبة التى تساوره تتمشى مع

العقل أم لا . وبعد أن ينطق بهذا القرار ينبغى للزوجة أن تغادر منزل الزوج وتبحث عن ملاذ لدى أقاربها . والحق الممنوح للرجال بالنطق بالطلاق غير العادل هو أكبر مصدر للقلق بالنسبة للنساء ، وهذا القلق يتعدى أى لون آخر من ألوان العذاب حين تكون من نتائجه الهجر والبؤس . وثمة نساء أخريات يجدن ، على العكس من ذلك ، فى الطلاق وسيلة لتحسين أحوالهن فهن يفكرن بطريقة مخالفة ويركزن أمانيهن فى الحصول على الطلاق .

ويستطيع الرجل أن يطلق المرأة الواحدة مرتين ثم يستعيدها بعد ذلك دون أية مراسم ، إلا أنه فى المرة الثالثة لا يستطيع أن يستردها شرعا إلا إذا عقدت أثناء فترة الطلاق ، زواجها على آخر وإذا حدث طلاق من هذا الزواج الأخير .

ويقول مسيو لين : « استطيع أن أذكر استنادا لما أقول حالة قام بها أحد أصدقائى بدور الشاهد . فقد كان ذات يوم فى مقهى مع رجلين آخرين وكان يبدو على أحدهما أنه مغتاظ من زوجته التى نشب بينها وبينه خلاف خاص بحياتهما المنزلية . وبعد أن شرح الزوج الحانق ما يضايقه أرسل فى طلب زوجته وبمجرد أن وصلت قال لها : أنت طالق ثلاثاً ! ثم توجه بكلام إلى الرجلين الآخرين وقال ، وأنتما أيها الأخوان شاهدان على ذلك . ومع ذلك فقد ندم بعد ذلك على اندفاعه وأراد استرجاع زوجته إلا أن هذه رفضت ودعته إلى شرع الله . وعرضت الدعوى على القاضى وكانت الزوجة هى الشاكية والمدافع هو الزوج . وقالت الزوجة إن الزوج

نطق يمين الطلاق منها ثلاثا وأنه الآن يريد استرجاعها والعيش معها كزوجة مخالفا بذلك القانون وبالتالى تكون حياتها حراما . وأنكر المدافع أنه نطق الكلمات الشرعية التى تتضمن الطلاق . فقال القاضى للشاكية:- هل لديك شهود؟ فقالت : نعم هاهما شاهدان . وكان الشاهدان هما الرجلين اللذين كانا فى المقهى حين نطق بالعبارة التى تشكل الطلاق ، ودعى الرجلان للمثول أمام القاضى والادلاء بشهادتهما . فأعلنا ان هذا الرجل فى الواقع قد نطق بكلمات الطلاق ثلاثا من هذه المرأة وأن ذلك قد تم بحضورهما . وحينئذ أعترف الزوج من جانبه أنه فى الواقع قد نطق بيمين الطلاق ولكن كان ذلك خاصاً بزوجة أخرى من زوجاته . وأكدت الشاكية أن ذلك مستحيل مادام المدافع ليس له إلا زوجة واحدة . وقد رد القاضى على ذلك بأنه ليس من المستطاع بالنسبة لها أن تعرف ذلك . ثم استدار ناحية الشاهدين وسألهما عن اسم المرأة التى طلقت بحضورهما فأعلنا أنهما لا يعرفانها ، وسألهما بعد ذلك عن شخصية المرأة فقال الشاهدان إنهما لا يستطيعان تأكيد أى شيء فى هذا الصدد ما داما لم يرياها إلا محجبة . وإزاء الشك الذى بدا محيطا بالقضية فقد وجد القاضى أنه من العدالة أن يرفض شكوى المرأة ويأمرها بالعودة إلى بيت الزوجية . وكان بمستطاعها أن تطلب إحضار المرأة التى نطق بيمين الطلاق منها فى المقهى إلا أن ذلك ما كان ليخدمها كثيراً إذ أنه كان فى استطاعته بسهولة إحضار امرأة لتلعب هذا الدور إذ أن تقديم عقد الزواج فى مصر ليس ضروريا حيث تتم معظم الزيجات دون عقود مكتوبة بل وكثيرا ما تتم بدون شهود » .

وكثيرا ما يحدث للرجل الذى ينطق بعبارة الطلاق للمرة الثالثة من زوجته والذى يريد أن يستردها برغبتها ، لا سيما حين يكون الطلاق قد نطق به دون حضور شهود ، كثيرا ما يحدث ألا يراعى هذا الرجل القانون الذى يحرم عليه استعادتها مالم تتزوج بغيره فى فترة الطلاق .

والرجال الذين يراعون القانون لتعلقهم بالدين يجدون الوسيلة للتمشى معه وذلك بإيجاد رجل يتزوج المرأة المطلقة ويتعهد بطلاقها فى اليوم التالى للزواج وردها إلى زوجها السابق فتصبح زوجة له من جديد بمقتضى عقد جديد رغم أن هذا التصرف يعتبر مناقضا للقانون تماماً . وفى مثل هذه الحالة تستطيع المرأة إذا كانت بالغة الرشد أن ترفض الموافقة ، أما إذا كانت قاصراً فإن والدها أو الوصى عليها يستطيع تزويجها لمن يجده صالحا .

وحين يريد الرجل استرجاع زوجته المطلقة طبقا للعرف الذى يستلزم حدوث زواج وسيط قبل أن يستطيع استرجاعها فيحدث عادة أن يزوجها إلى رجل فقير ودميم جداً وأحيانا لأعمى . وهذا الرجل يسمى مستحل(محلل) .

ونستطيع أن ندرك أن السهولة التى يتم بها الطلاق لابد أن تكون ذات تأثيرات ضارة بمعنويات الجنسين . ونجد فى مصر رجالاً تزوجوا عشرين أو ثلاثين امرأة فى مدى عشر سنوات ، وليس من النادر أن تجد نساء شابات كن على التوالى زوجات شرعيات لاثنى عشر رجلاً . وثمة رجال يتزوجون كل شهر بامرأة . وهذا المسلك يمكن أن يوجد بين

أشخاص محدودى الثروة . ويستطيع الرجل أن يختار وهو يمر بشوارع القاهرة أرملة شابة وجميلة أو مطلقة من الطبقة الدنيا تقبل أن تتزوج بالرجل الذى يصادفها فى الطريق مقابل نفقة تبلغ تقريبا عشرين فرنكا وخمسين سنتيمًا . وحين يطلقها لايضطر إلاالدفع ضعف هذا المبلغ لنفقة العدة التى لابد لها أن تكملها . ومع ذلك فلابد من القول بأن مثل هذا المسلك يعتبر عادة غير أخلاقى وأن قليلا من الآباء من الطبقة المتوسطة أو الطبقات العليا يقبل أن يعطى ابنته إلى رجل عرف عنه أنه كثير الطلاق .

وتعدد الزوجات الذى يؤثر هو الآخر بطريقة ضارة للغاية على معنويات الأزواج ، والذى لايتقبله الناس إلا لأنه يمنع من المسالك اللا أخلاقية أكثر مما يتسبب فيها ، أكثر ندرة بين الكبراء والطبقة الوسطى منه فى الطبقة السفلى رغم أنه ليس كثير الحدوث حتى فى تلك الطبقة الأخيرة . ويحدث أن يسمح الرجل الفقير لنفسه بزوجتين أو أكثر تستطيع كل واحدة منهن مما تقوم به من عمل أن تكفل نفقتها . إلا أن معظم الناس من الطبقات المتوسطة والعليا يعدلون عن هذه الطريقة لتكاليفها والمضايقات التى تسببها من كل نوع . ويحدث للرجل الذى تكون فى حوزته امرأة عاقر يحبها بحيث لا يستطيع طلاقها أن يضطر إلى الزواج من زوجة ثانية على أمل واحد هو أن يرزق بأطفال . ويستطيع أن يتزوج حتى أربع زوجات لهذا السبب نفسه إلا أنه عادة يكون عدم الثبات على المشاعر هو العاطفة الرئيسية التى تدفع أولئك الذين يستسلمون لتعدد الزوجات أو للطلاق المتكرر . .وقلة من الرجال هم الذين يمارسون هذا

الحق ولا تصادف إلا رجلا من كل عشرين رجلا يكون له زوجتان شرعيتان .

وحين يرغب الرجل المتزوج فى الزواج من ثانية سواء أكانت امرأة أم بنتا فإن والد هذه الأخيرة أو المرأة نفسها يرفض الموافقة على هذا الزواج إلا إذا طلق مسبقا زوجته الأولى . ومن هذا يتبين لنا أن النساء عموما لايوافقن على تعدد الزوجات . أما الرجال الأغنياء ومحدودو الدخل بل حتى الرجال من الطبقة الدنيا فيفردون لكل زوجة من زوجاتهم منزلاً خاصاً . وتحصل الزوجة ، أو تستطيع أن تستلزم ذلك من الزوج ، على وصف مفصل للمسكن الذى يفرده لها إما فى بيت مستقل أو فى شقة لابد أن تحتوى على غرفة للنوم والمعيشة ومطبخ والملحقات . ولابد أن تكون تلك الشقة مستقلة أو يمكن أن تكون مستقلة أو مغلقة لاتتصل بأية شقة من شقق البيت .

والزوجة الثانية كما قلنا من قبل ، تسمى ضرة (وهذه الكلمة تعنى الببغاء وربما كانت تستعمل لغرض تهكمى) . ويكثر الحديث عن المشاجرات اللاتى يتسببن فيها وهو أمر يمكن فهمه ، وذلك أنه حين تقتسم امرأتان اهتمامات رجل واحد وعواطفه فمن النادرأن تعيشا معاً فى وفاق . وكثيرا ما ينشب الشجار كذلك بين الزوجات والجوارى المحظيات اللاتى يعشن تحت سقف واحد . ويفرض القانون على الرجال ممن لهم زوجتان أو أكثر أن يكونوا عادلين تماماً بينهن . إلا أن المراعاة الدقيقة لهذا القانون نادرة .

وإذا كانت الست الكبيرة عاقرا وولدت زوجة أخرى أو جارية طفلا لرب الأسرة فكثيرا ما تصبح أم الطفل المفضلة لدى الرجل فتحتقر الست الكبيرة كما حدث حين احتقرتِ هاجر زوجة ابراهيم . وحينئذ كثيرا ما يحدث أن تفقد الزوجة الأولى مكانتها وامتيازاتها وتصبح الأخرى هي الست الكبيرة . ويجلب لها لقبها كزوجة مفضلة للسيد ، من قبل غريمتها أو غريماتها وكذلك من قبل جميع نساء الحريم والنساء اللاتى يحضرن للزيارة ، جميع المظاهر الخارجية للاحترام الذى كانت تتمتع به تلك التى حلت هى محلها . ولكن ليس من النادر أن يفسد السم هذا الاحترام ، فحين يعطى الرجل الأفضلية لزوجة ثانية فكثيرا ما يترتب على ذلك أن تعلن الأولى ناشزًا ، سواء من قبل زوجها أو بناء على طلب تقدمه هى للقاضى ، ومع ذلك فثمة عدد كبير من النساء المهجورات يتصرفن بخضوع تام تجاه أزواجهن وروح الود تجاه الزوجة المفضلة .

وبعض النساء لهن جاريات يعتبرن ملكًا خاصاً لهن اشتريهن أو تلقينهن هدية قبل زواجهن . وهؤلاء الجاريات لايصبحن محظيات للزوج إلا بموافقة سيدتهن . وهذه الموافقة يحدث أحيانا ، ولكن فى أحوال نادرة . أن يحصل عليها ، وثمة نساء لايسمحن لجارياتهن حتى بمجرد الظهور بدون خمار أمام أزواجهن . واذا أصبحت احدى الجاريات محظية للزوج بدون موافقة زوجته وولدت له طفلا يصبح هذا الطفل عبداً إلا إذا بيعت الجارية أو منحت للأب قبل مولد الطفل .

والجاريات البيضاوات يملكهن عادة أغنياء الأتراك ، والجاريات

المحظيات لا يمكن أن يكن مشركات ، فهن يأتين عادة من الحبشة ثم يمتلكهن أثرياء المصريين وأبناء الطبقة المتوسطة . ولون بشرتهن بنى قاتم أو برونزى . وتدل ملامحهن على أنهن من جنس وسط بين الزنوج والبيض إلا أنهن يختلفن اختلافا بينا عن هذين الجنسين . وهن أنفسهن يعتقدن أن الفارق طفيف بين جنسهن والجنس الأبيض ولذا فإنهن يرفضن القيام بأعمال الخادمات وأن يخضعن لزوجات أسيادهن .

أما الزنجيات فهن بدورهن يرفضن خدمة الحبشيات إلا أنهن على استعداد دائم لخدمة النساء البيضاوات . ومعظم الحبشيات لايقدمن رأساً من الحبشه ولكن من بلاد الغالا[١٣] المجاورة ، وهن عادة جميلات . والسعر المتوسط لهذه الفتيات يتراوح بين ٢٥٠و٣٧٥ فرنكا إذا كانت جميلة نوعاً ما ومنذ بضع سنوات بلغ سعرهن أكثر من الضعف .

والباحثون عن المتعة فى مصر يعولون كثيرًا على هؤلاء النسوة إلا أنهن من الرقة بحيث لايعشن طويلاً وعتن كلهن تقريبا من الذبول . وسعر الجارية البيضاء يبلغ عادة ثلاثة أضعاف حتى عشرة أضعاف سعر الجارية الحبشية ، فى حين أن سعر الزنجية لا يبلغ إلا النصف أو الثلثين . إلا أن هذا السعر يرتفع بشكل محسوس إذا كانت طاهية ماهرة . والزنجيات يستخدمن عادة كخادمات .

---

(١٣) شعب من الجنس النوبى يعيش جنوب أثيوبيا .

ويعتنق أغلبية العبيد الدين الإسلامى إلا أنهم نادرًا ما يكونون على شيء من الثقافة بالنسبة لتعاليم دينهم الجديد أو نظرياته . ومعظم الجوارى البيض كن فى الأزمنة الماضية فى مصر من اليونانيات وكن ضمن أسرى الجيش التركى والمصرى من الشعب اليونانى التعس تحت إمرة ابراهيم باشا . وهؤلاء التعيسات ، وكان من بينهن أطفال لا يكدن يستطعن المشى قد تم بيعهن فى مصر . وتتبين انحدار الطبقات العليا فى هذا البلد إلى الفقر من قلة الطلب على شراء الجوارى البيض . وقد استقدم بعضهن من بلاد الشراكسة وجورجيا بعد أن لقن فى القسطنطينية شيئا من الثقافة الأولية وتعلمن الموسيقى وبعض الفنون الترفيهية . ولما كانت الجوارى البيض هن وحدهن رفيقات الأتراك من الطبقة العليا وأحيانا ما يصبحن زوجات لهم ، ولما كانت مكانتهن فى مصر تفوق مكانة نساء مصر من الأحرار فإن مكانتهن لدى الرأى العام أكثر ارتفاعا من هؤلاء النساء وتلبس هذه الجوارى أغلى الثياب ، والهدايا من المجوهرات القيمة تتدفق عليهن ويعشن فى ترف وبحبوحة من العيش بحيث إنه إذا لم تفرض عليهن العبودية فإن وضعهن يبدو سعيداً للغاية . والدليل على ذلك فى رفض كثير من النساء اليونانيات اللاتى كن يعشن فى الحريم فى مصر ، رفض حين كفت الحرب مع اليونان ، الحرية التى عرضت عليهن . ذلك أننا لا يمكن أن نفترض أنهن جميعا كن يجهلن الوضع الاجتماعى لآبائهن وأنهن خفن أن يتعرضن للفاقة إذا لحقن بهم ، إلا أنه لا مجال للشك فى أن بعضهن سعيدات على الأقل سعادة مؤقتة . ومع ذلك فثمة ميل إلى الاعتقاد بأن معظمهن قدر لهن أن يكن فى خدمة زميلات لهن فى الأسر كن أسعد حظاً أو فى خدمة

السيدات التركيات أو أن يضطررن إلى تحمل دعابات بعض الأثرياء من الشيوخ أو الرجال ممن أنهك الإفراط فى كل شىء أجسامهم وأذهانهم ، فهن لسن سعيدات إذ يتعرضن لإعادة البيع أو للعتق دون أن تكون لديهن وسيلة للعيش بعد حياة أسيادهن أو سيداتهن ، وأن يتنقلن هكذا إلى أبد حياة جديدة إذا لم يرزقن بأطفال أو يضطررن إلى الزواج من صناع بسطاء لا يستطيعون أن يوفروا لهن اليسر الذى اعتدن عليه .

والجاريات فى بيوت أبناء الطبقة المتوسطة فى مصر يعاملن عادة معاملة أفضل من تلك التى تتلقاها من يعشن فى حريم الأغنياء . وإذا كن محظيات . وهذا أمر لا يمكن تجنبه فى معظم الأحوال . فلن يكون لهن غريمات يعكرن صفو حياتهن . وإذا كن خادمات فإن الخدمة بالنسبة لهن تكون لطيفة وحريتهن أقل قيوداً . وإذا كان ثمة ارتباط عاطفى متبادل بين المحظية وسيدها فإن مكانتها تصبح أسعد حالا من الزوجة لأن هذه الأخيرة قد يطلقها زوجها . فنى لحظة من لحظات الكدر يستطيع أن ينطق بالطلاق البائن عليها ويغرقها هكذا فى البؤس إلا أنه من النادر أن يرد أحدهم جارية قبل أن يجزل لها العطاء لكفاية حاجتها حتى لا تحيق بها الخسارة من التغيير إذا لم يكن قد أفسدها التدليل والترف الزائد .

وحين يسرح السيد جاريته فإنه عادة يعتقها ويمنحها نفقة ويزوجها برجل شريف أو يهديها الى أحد أصدقائه . وبصفة عامة لا يستحب بيع الجارية التى تكون قد خدمت مدة طويلة . وحين ترزق الجارية بطفل من سيدها ويعترف هذا الأخير به فإن هذه المرأة لا يمكن بيعها ولا إهداؤها

وتصبح حرة لدى موت سيدها . وكثيرا ما يحدث بمجرد ولادة الطفل واعتراف السيد به أن تعتق الجارية وتصبح زوجة له . وذلك أنها إذا أصبحت حرة لا يمكن أن يستبقيها فى بيته دون زواج شرعى .

والجاريات سعرهن عادة أعلى من العبيد من الذكور . وسعر العبيد ممن لم يصابوا بالجدرى أعلى من سعر أولئك الذين أصيبوا به . ويمنح الشارى ثلاثة أيام يضع فيها العبد تحت التجربة . وفى تلك الأثناء تظل الفتاة المشتراة فى بيت الشارى أو أحد أصدقائه ، وتكلف نساء الحريم بتقديم تقرير عن القادمة الجديدة : ويعتبر الشخير والصر على الأسنان والكلام أثناء النوم من الأسباب الكافية لفض البيعة وإعادتها الى البائع . وتلبس الجوارى نفس ما تلبس النساء المصريات .

أما الفتيات أو النسوة المصريات ممن يضطررن إلى الخدمة فيكلفن بأحط الأعمال . وفى حضرة أسيادهن يحتفظن عادة بالخمار . وحين يكن مشغولات بعمل ما من أعمال الخدمة فإنهن يضعن الخمار بحيث لا يكشف إلا عن أعينهن ويتركن يدا واحدة من أيديهن تتحرك بحرية .

وحين يستقبل سيد المنزل ضيفاً غريبا فى إحدى غرف الحريم (وحينئذ تنسحب نساء أسرته الى غرفة أخرى) فإن النساء الأخريات يقمن على خدمته ولكن مع احتفاظهن بالخمار .

تلك هى الظروف الاجتماعية لمختلف طبقات الحريم وينبغى لنا الآن أن نلقى نظرة على عادات ومشاغل شاغلات الحريم .

إن الزوجات والجاريات يستبعدن عادة من امتياز الجلوس إلى المائدة مع السيد أو أسرته . ويمكن دعوتهن لخدمته حين يتغدى أو يتعشى أو حتى حين يدخل إلى الحريم ليدخن أو يشرب القهوة . وحينئذ كثيرا ما يقمن بدور الخادمات فيملأن ويشعلن غليونه ويعددن له القهوة ويعددن الأصناف التي يريد أن يأكلها لاسيما حين يكون الأمر يتعلق بأصناف مخصوصة أو غير مألوفة . والصنف الذي يوصيك به مضيفك ويقول إن زوجته قد أعدته هو عادة طيب للغاية . والنساء من الطبقات العليا والمتوسطة يقمن بدراسة خاصة يتعلمن فيها كيف يحصلن على إعجاب أزواجهن ويسحرنهم بمداعبات ونوادر لاحد لها . وإن المرء ليلاحظ تأنقهن وغندرتهن حتى في مشيتهن . وحين يخرجن فهن يعرفن كيف يمنحن أجسامهن حركة تموجية خاصة يسميها المصريون «غنجا» وهن دائما متحفظات في حضرة الزوج ولذلك فإنهن يفضلن أن تكون زياراته النهارية قليلة وألا تطول تلك الزيارات . وفي غيبته فإن مرحهن يبدو متدفقا فياضا .

وغذاء النساء رغم تشابهه مع غذاء الرجال الا أنه أكثر تقشفا . فهن يتناولن وجباتهن بنفس طريقة الرجال . ويسمح لكثير من النساء بالتدخين ، حتى من نساء أعلى الطبقات إذ أن رائحة الطباق المصري الراقي معطرة للغاية . وغلايين النساء أرفع من غلايين الرجال وأكثر زخرفا . وطرف الغليون يكون أحيانا من المرجان بدلا من أن يكون من العنبر . وتستعمل النساء المسك وغيره من العطور ويستعملن كذلك الدهون

التجميلية . وكثيرا ما يعددن توليفات يأكلها أو يتمرسها بقصد اكتساب قدرما من الامتلاء . وعلى النقيض من ذوق الإفريقيين أو الشعوب الشرقية عامة فإن المصريين ليسوا شديدى الاعجاب بالنساء المفرطات فى السمنة . ذلك أنه فى أناشيد الحب لديهم يتحدث الشعراء عن محبوباتهم على أنهن إنسان رشيق نحيل القوام . ومن بين الأصناف التى تظن المصريات أنها كفيلة بجعلهن أكبر سمنة صنف مقزز للغاية ويعد أساساً من الخنافس المدقوقة . وكثير من النساء يمضغن البخور واللادن من أجل تعطير أنفاسهن . وعادة الوضوء المتواتر تجعل أجسامهن غاية فى النظافة ، و تزينهن لا يستغرق وقتا طويلا . ومن النادر أن يبدلن ثيابهن وزينتهن فى وسط النهار بعد أن يكن قد فعلن ذلك فى الصباح . وهن يضفرن شعورهن أثناء الحمام وتصفيف الشعور بهذه الطريقة يكون جيدا بحيث لا يحتجن لإعادة تصفيفه لأيام كثيرة .

وأهم شاغل يشغل النساء المصريات هو العناية بأطفالهن وعليهن كذلك الاشراف على الأعمال المنزلية . ولكن فى أعم الحالات فإن الزوج هو الذى يشرف على المصروف . وتستخدم النساء ساعات الفراغ فى الحياكة والتطريز لاسيما تطريز مناديل اليد والطرح . والتطريز يتم عادة بخيوط الحرير الملونة والخيوط الذهبية . ويتم التطريز على أداة تسمى المنسج ، وهى عادة من خشب البندق ومطعمة بالصدف واللؤلؤ وقشور السلحفاة ، (وأكثرها شيوعاً من الزان) . وكثير من النساء ، حتى النساء الغنيات ، يملأن أكياسهن الخاصة بتطريز المناديل وغيرها مما يعطين

للدلالة التى تتولى عرضها فى أحد الأسواق أو التى تصرفها فى حريم آخر .
وزيارة نساء حريم ، لحريم آخر تشغل عادة يوماً كاملاً تقريبا . اذ تتجمع
النساء فيأكلن ويدخن ويشربن القهوة والمرطبات ويثرثرن ويستعرضن ما
يلبسن من حلى وأدوات فاخرة ويكفى كل ذلك لتسليتهن . وسيد البيت لا
يسمح له بحضور هذه الاجتماعات النسائية الا لأمر ملح ، وفى هذه الحالة
عليه أن يعطى إنذاراً بمقدمه حتى يكون لدى الزائرات الوقت الكافى
لوضع خمرهن أو الانسحاب فى جزء آخر من الشقة . وفى هذه الحالة
تنطلق النسوة الشابات وقد تخلصن هكذا من كل خوف من المفاجأة .
ينطلقن فى مرحهن الطبيعى ويتركن العنان لروح المجون والصخب التى
يتسمن بها .

حفلات خاصة

يقيم المصريون حفلا حين يقبل أحد أبنائهم عضوا فى جماعة التجار أو الصناع . ويتم القبول فى جماعات النجارين والخراطين والحلاقين والخياطين والمجلدين وغيرهم من الطوائف بالطريقة التالية :

يأتى الشاب الذى يطلب قبوله فى طائفة المهنة يصحبه والده لدى الشيخ ويحيطه الأب علما بنيته فى ادخال ابنه كعضو فى الطائفة . وحينئذ يرسل الشيخ فى دعوة « معلمى » هذه الحرفة التى يعتبر الشاب مستجدًا فيها وبعض أصدقاء المتقدم لحضور حفل استقباله . وحينئذ يأتى ضابط يسمى النقيب يحمل حزمة من العشب الأخضر أو الزهور التى يوزعها على جميع المدعوين وهو يقول : « الفاتحة للنبى » ويضيف النقيب على ذلك قائلا : « تفضلوا هنا فى يوم كذا والساعة كذا لتناول قدحا من القهوة » .

ثم يتجمع هؤلاء المدعوون إما فى بيت الأب أو فى بيت الشاب وأحيانا فى الريف حيث تقدم لهم القهوة ويتناولون العشاء .

ويؤتى بالمستجد أمام الشيخ وتتلى الأشعار فى مدح الرسول ثم يلف حول جسمه شال معقودة أطرافه . وتتلى آيات من القرآن ثم تعقد فى الشال عقدة أخرى . وعند عقد العقدة الثالثة بعد تلاوة آيات أخرى من القرآن تعقد فى الشال عقدة على شكل وردة ويعتبر الشاب قد قبل عضوا فى طائفة المهنة التى يكرس نفسه لها . وحينئذ يقبل يد الشيخ وأيدى جميع الحاضرين ويدفع مبلغا بسيطا ويصبح منتميا الى طائفة المهنة .

والمصريون ، الذين يعيشون عادة بأكثر الطرق تقشفا يحرصون على جعل ولائمهم على أكبر قدر من التنوع والكثرة . الا أن الوقت المخصص لراحتهم قصير جداً . وفى الاجتماعات التى من هذا النوع يدخن القوم عادة ويشربون القهوة فى فناجين صغيرة أو المرطبات و«يدردشون» .

وأثناء تلاوة القرآن يمتنع الأتراك عادة عن التدخين . والتبجيل الذى يحيطون به الكتاب المقدس جعل الناس يقولون عنهم :

«إن الله قد وضع الجنس العثمانى فوق بقية المسلمين لأنهم يجلون القرآن أكثر مما يفعل الآخرون» .

والتسلية الوحيدة فى مثل هذه الإجتماعات هى بعض الروايات والقصص إلا أن الجميع يحبون الرقص وعزف الموسيقى مما يتم فى مثل هذه الحفلات حبا جما .

ومما يلاحظ أن المصرى يحب التسلية بأية لعبة الا اذا كانت تحتاج لمجموعة صغيرة من شخصين أو ثلاثة أو فى أسرته . ورغم أن المصرى

اجتماعي بطبيعته الا أنه نادراً ما يقيم الحفلات الكبيرة ولابد من مناسبة غير عادية ليفعل ذلك . مثل الأعراس ومولد طفل ... الخ .

وثمة حفلات تقام بمناسبة الزواج . واليوم السابع . الذى يسمى يوم السبوع ، بعد الزواج تستقبل العروس النساء من صاحباتها فى الصباح والمساء . وأحيانا ، أثناء ذلك الوقت . يستقبل العريس أصدقاءه الذين يسليهم فى المساء بالموسيقى والرقص . وجرت العادة فى مصر على أن يتخلى الزوج عن الحقوق التى يمنحها اياه الزواج حتى بعد اليوم السابع اذا كانت من يتزوجها عذراء صغيرة السن . وبعد انتهاء هذا الوقت جرت العادة على أن يقيم حفلا ويدعو أصدقاءه . وبعد أربعين يوما من الزواج تذهب العروس إلى الحمام برفقة بعض صديقاتها . وحين تعود الى منزلها تقدم لهن الحلوى ثم ينصرفن . وفى تلك الأثناء يولم العريس وليمة مصحوبة بالرقص والموسيقى .

وفى اليوم التالى لمولد طفل يأتى اثنان أو ثلاثة من الراقصين أو الراقصات ويقمن بالرقص أمام البيت أو الغناء . والحفلات التى تقام لمولد طفل ذكر أجمل من تلك التى تقام لمولد طفلة أنثى . ومازال العرب يحتفظون فى ذلك بالمشاعر التى جعلت أجدادهم يئدون أولادهم من البنات .

وبعد مولد الطفل بثلاثة أيام أو أربعة يقعد نساء المنزل ، إذا كانت الوالدة تنتمى الى احدى الطبقات العليا . يعددن أصنافا مكونة من العسل

والزبد المقدوح وزيت السمسم والتوابل والمواد المضيفة للنكهات ويضاف إلى ذلك أحيانا البندق المحمص .

ثم يزف المولود بعد ذلك تحمله النسوة أو البنات فى الحريم بأسره . وكل واحدة منهن تحمل شمعة كبيرة من ألوان مختلفة ومضاءة : وهذه الشموع تقطع كل واحدة منها نصفين ويفرش فى عجينة جامدة من الحناء . ويوضع الكثير منها فوق صفحة . وتقوم الداية أو غيرها من النساء الحاضرات برش الملح المختلط بحبوب الشمر . وهذا الخليط الذى يكون قد بات فى الليلة السابقة على رأس مهد المولود فائدته حفظ الطفل من الأعمال السحرية . والمرأة التى ترش الملح تقول : «حصوة فى عين اللى مايصلى على النبى » .

أو «ليسقط هذا الملح النجس فى عين الحسود ! » وترد كل واحدة من الحاضرات قائلة «اللهم صل على سيدنا محمد» !

وتقدم صفحة من الفضة إلى كل من النسوة الحاضرات فيقلن بصوت مرتفع : «اللهم صلِّ على سيدنا محمد» ! «ربنا يطول عمركم» الخ . وتقدم النساء عادة منديلا مطرزا عقدت فى طرفه قطعة من الذهب ، وكثيرا ما يوضع هذا المنديل فوق رأس الطفل أو الى جواره . ويعتبر تقديم المنديل هدية دينًا مكتوبا يسدد فى مثل هذه المناسبة أو يستخدم فى دفع دين سبق تقديمه فى مناسبه مماثلة . وتستخدم القطع النقدية المتجمعة بهذه الطريقة فى تزيين رأس الطفل لبضع سنوات . وبخلاف هذا الانفاق السخى تعطى النساء كذلك ما شئن للداية . وعشية

اليوم السابع يوضع على رأس مهد المولود النائم إبريق مليء بالماء ويحاط فمه بمنديل مطرز . ثم تأخذ الداية إبريقا وتضعه على صفحة وتقدم لكل سيدة تأتى لزيارة الوالدة كوبا من هذا الماء فتقدم الضيفة مقابل ذلك هبة من المال .

وبعد وقت ما من الولادة يختلف حسب الوضع الاجتماعى أو تعاليم المذاهب المختلفة ، ولكنه عادة يبلغ أربعين يوماً ، وبعد الزمن الذى يسمونه نفاساً تذهب للحمام ومنذ ذلك الوقت تكون قد طهرت .

راقصات مصر

إن أكثر راقصات مصر جميعا شهرة هن «الغوازى» اللاتى أطلق عليهن اسم قبيلتهن . والمرأة من هذه القبيلة تسمى غازية والرجل يسمى غازى والجمع وهو غوازى يطلق عادة على النساء . ورقصهن لا يتسم دائما بالرشاقة . فهن يبدأن بشىء من التحفظ ثم لا يلبثن أن تشتعل عيونهن ويصبح صوت الصاجات النحاسية فى أيديهن أسرع وتزداد حركاتهن كلها زيادة مطردة وينتهى بهن الأمر الى تقديم صورة تامة لرقص نساء قادش كما صورها مارسيال Martial وجوفنال Juvenel (١٤) . والثوب الذى يظهرن به يشبه ثياب المصريات من الطبقة المتوسطة اللاتى يرتدينها داخل الحريم . وهو مكون من يلك أو عنترى وشنتيان(١٥) الخ .. من أجمل

(١٤) cf Guvenal; Sateres XI, 162-164 martial Eigrammes V. 78

(١٥) اليلك شىء يشبه الروب دى شمبر مفتوح إلى منتصفه من الأمام والعنترى يشبه ذلك ولكنه أقصر والشنتيان البنطلون .

الأقمشة ويضاف اليه زينات مختلفة . وتحدد دوزان أعينهن بلون من القطرة السوداء . أما أطراف الأصابع وراحة اليد وبعض أجزاء من القدم فتلون بصبغة حمراء من الحناء حسب العادة السائدة لدى المصريات من جميع الأوساط . ويتبع هؤلاء الراقصات عادة موسيقيون ينتمى معظمهم إلى القبيلة نفسها وأدواتهم الموسيقية هى الربابة والتار (الدف) أو الدربكة والزراب . إلا أن « التار » يرى عادة بين يدى امرأة عجوز . ويحدث كثيرا بمناسبة بعض الحفلات العائلية مثل الزواج والولادة أن تترك الغوازى يرقصن فى فناء المنزل أو فى الطريق أمام الأبواب ، ودون أن يسمح لهن أبدا بالدخول الى حريم الشرفاء ، وعلى العكس من ذلك فليس من النادر أن يستأجرن لتسلية اجتماع من الرجال . وفى هذه الحالة كما يمكننا أن نتصور فإن رقصهن يكون أكثر خلاعة مما قلنا فيما سبق . وبعضهن لا يرتدين من ملبس فى مثل هذه الاجتماعات الخاصة الا الشنتيان (أو الكلسون) والطب أو القميص وهو ثوب فضفاض من القماش الخفيف الملون نصف الشفاف ومفتوح من الأمام حتى منتصف الجزء الأسفل من الثوب . فإذا تكلفت الغازية فضلا من الحياء فإن ذلك لا يدوم طويلا تحت تأثير المشروبات المسكرة التى يصبونها لهن فى غزارة .

وبعضهن ذات جمال رائع ومعظمهن يرتدين الملابس الغالية وهن عموماً أجمل نساء هذه الجهات . ومن الملاحظ أن بعضهن يتميزن بالأنف الأخيلية بعض الشىء بينما تتميز ملامحهن حسب جميع التقديرات بالنمط الأصيل للمصريات .

ورغم أن الغوازى يختلفن اختلافا طفيفا ، فى المظهر عن سائر المصر يين فنحن نشك فى أن يكن من جنس مميز كما يؤكدن هن أنفسهن . وعلى كل فإن أصلهن يحاط بكثير من عدم اليقين . فهم يدعون أنهم يسمون بالبرامكة أو البرمكى ويفخرون بأنهم من سلالة تلك الأسرة الشهيرة أسرة البرامكة التى كانت موضع عطف هارون الرشيد فأغدق عليها ثم تلقت جام طغيان نزواته وقد ورد ذكر ذلك مرات عديدة فى القصص العربى .

وعلى كثير من القبور المصر ية القديمة رسمت بعض الغوازى من النساء وهن يرقصن فى أكثر الأوضاع تحررًا .

على أنغام مختلف الآلات الموسيقية ، أى على طريقة الغوازى المحدثات أو حتى بتحرر أكبر . ذلك أن أكثر من واحد من هذه الوجوه رغم أنها تصور بجوار بعض الشخصيات الرفيعة الا أنها عادة تمثل فى حالة عرى تام . وهذه العادة فى تزيين الآثار التى نتحدث عنها بهذه الصورة ، تلك الآثار التى يحمل معظمها أسماء قدامى الملوك ، تدل على مدى انتشار هذه الرقصات فى مصر كلها فى الأزمنة السحيقة حتى قبل هروب بنى إسرائيل . فمن المحتمل إذن أن تكون الغوازى المحدثات من سلالة هذه الطبقة من الراقصات اللاتى كن يرفهن عن الفراعنة الأوائل .

والغوازى من الرجال والنساء يتميزون عادة عن بقية الطبقات بأنهم لا يتزوجون الا فيما بينهم . ولكن يحدث أحيانا أن نرى احدى الغازيات

تقسم قسم التوبة وتتزوج من أحد كرام العرب الذى لا يمسه عادة سوء من هذا الرباط . والغوازى قدر لهن ألا يحترفن الا المهن الحقيرة وليس كلهن مكرسات للرقص . والعدد الأكبر منهن يتزوجن ولكن لا يحدث هذا أبداً قبل أن يمارسن الحياة التى اخترنها .

والزوج يخضع لزوجته ويصبح لها خادماً ومتعهد تموين وإذا كانت راقصة يكون هو موسيقيها . ومع ذلك فبعض الرجال يكسبون عيشهم عن طريق أعمال الحدادة أو صنع الأدوات الحديدية أو بيع القدور .

ورغم أن بعض الغازيات يملكن ثروات كبيرة وأدوات زينة ثمينة فإن كثيرا من ملابسهن تشبه ملابس البوهيميين الذين نراهم فى أوربا والذين نفترض أنهم من أصل مصرى .

ولغة الغوازى العادية بالنسبة للجنسين هى نفسها لغه سائر المصريين الا أنهم احيانا يستعملون عددا من الكلمات الخاصة بهم وحدهم حتى لا يفهمهم الغرباء . أما عن الدين فهم يعتنقون الإسلام علنا ويحدث أن يتبع بعضهم القوافل المصرية الى مكة . ونرى عددا كبيرا من الغوازى فى جميع المدن المصرية الكبرى . ومساكنهم عادة عبارة عن أكواخ منخفضة أو خيام مؤقته لأنهم كثيرا ما يسافرون من مدينة الى أخرى . ومع ذلك فبعضهم يقيمون فى منازل كبيرة ويشترون جاريات سوداوات شابات ثم يشترون الجمال والحمير والبقر ويتاجرون فيها . وهن يتبعن المخيمات ونجدهن فى جميع الحفلات الدينية وغيرها مما يجعلهن السبب الرئيسى لاجتذاب كثير من الناس فى هذه الحفلات . وفى هذه المناسبات

نرى عددا كبيرا من خيام الغوازى . وبعضهم يضيفون الغناء إلى الرقص وينافسون العوالم وهن من أحط الطبقات . وبعضهن كذلك يرتدين القميص أو الطب من القماش الشفاف فوق لباس آخر مع الشنتيان والطرحة المصنوعة من الكريب أو الموسلين . وهن يتزين عادة بالكثير من الحلى والزينة مثل الدنتلا والأساور والخلاخيل . وهن يرتدين كذلك صفًا من القطع الذهبية على الجبين ويضعن أحيانا حلقة فى أنوفهن . وجميعهن يستعملن الحناء فى صبغ أيديهن وأقدامهن .

وفى القاهرة كثير من الناس ممن يتظاهرون بالاعتقاد بأن المثلبة الوحيدة لهذه الرقصات هى اللاتى يقمن بها من النساء اللاتى لا ينبغى لهن أن يعرضن أنفسهن هكذا للجميع ، تراهم يستخدمون الرجال من أجل هذه الألوان الترفيهية . الا أن عدد هؤلاء الراقصين ، وجلهم من الشبان ويطلقون عليهم المخنثين ، محدود للغاية . وهم من مواليد مصر . ولما كان عليهم أن يقوموا بأدوار النساء فإن رقصاتهم لها نفس طابع رقصات الغوازى وهم يهزون الصاجات بنفس طريقة هؤلاء . ولكن ، وكما لو كانوا يريدون ألا يؤخذ الدور الذى يقومون به على محمل الجد ، فإن لباسهم الذى يتناسب مع مهنتهم الفريدة نصفه لباس رجل والنصف الآخر لباس امرأة . وهو يتكون عادة من سترة مقفلة وحزام ونوع من التنانير (الثوب النصفى) . ومع ذلك فشكلهم العام نسائى أكثر منه رجالى ذلك لأنهم بلا شك يطيلون شعورهم ويضفرونها على طريقة النساء . وهم يقلدون النساء بدهن الجفون وتلوين الأيدى بالحناء . وفى الشوارع

حين لا يكونون يرقصون. تجدهم فى غالب الأمر محجبين لاحياءً ولكن لكى يحسنوا تقليد طريقة النساء . وكذلك كثيرا ما يفضلون الغوازى للرقص فى الأفنية أو أمام أبواب المنازل فى المناسبات العائلية . وفى القاهرة ثمة طبقة أخرى من الراقصين من الرجال والصبيان يشبه رقصهم ولباسهم ومظهرهم تماما مظهر المخنثين الا أنهم يتميزون عن هؤلاء بأنهم يسمون الجنك وهي كلمة تركية تعبر تماما عن طابع هؤلاء الراقصين . وهم عادة من اليهود أو الأرمن أو اليونانيين .

المشعوذون

توجد فى مصر طبقة من الرجال يظنون انهم يملكون ذلك الفن الغامض الذى أشارت إليه التوراة[١٦] والذى يحصن المرء ضد لدغ الثعابين كما كان يفعل مشعوذو سيرينايكا (ليبيا القديمة أيام اليونان) وقد كتب كثير من الكتاب قصصا مدهشة عن هؤلاء الحواة المحدثين الذين ينظر إليهم أكثر المصريين ثقافة على أنهم دجالون . إلا أن أحدا لم يقدم التفاصيل الكافية حول مهاراتهم العادية أو الأكثر إثارة .

---

(١٦) قد تكون تلك إشارة إلى الآية ٦ من النشيد ٥٨ التى تشير إلى مصادر السحر : صوت السحرة والساحر الخبير فى السحر إلا أن هذا النص لا يشير إلى ساحرى الثعابين المصريين . وثمة إشارة واضحة إلى سحرة الثعابين من المصريين بمناسبة حدث ذكر فى سفر الخروج ٧ ـ ٨ ـ ١٣ « ألقى هارون أمام فرعون ورجاله عصاه التى تحولت إلى حية . ودعى فرعون بدوره الحكماء والسحرة . وقام سحرة مصر كذلك بإستخدام السحر بإيتيان نفس المعجزة » .

وكثير من الطبقات السفلى للدراويش يعيشون من ممارسة هذه الألوان من السحر حول المنازل لإبعاد الثعابين . فهم يجوبون مصر فى جميع الاتجاهات وكثيرا ما يجدون من يطلبهم الا أن مكاسبهم ضئيلة . ويدعى الحاوى أنه يكتشف الثعابين دون الاستعانة بالنظر اذا وجدت وحين توجد الثعابين فهو يؤكد مقدرته على جذبها اليه بسحر الصوت وحده . وفى هذه الحالة يتخذ هيئة غامضة ويضرب على الجدران بعصا صغيرة من خوص النخيل ويصفر ويقلد صوت الدجاج بلسانه ، ويبصق على الأرض ويقول : «سواء أكنت أعلى أم أسفل استحلفك بالله أن تظهر فوراً – استحلفك بالاسم الأكبر إذا كنت مطيعا أن تظهر ! وإذا كنت غير مطيع مت ! مت ! مت !» وعادة يحدث أن يخرج الثعبان من شقه بتأثير العصا أو يسقط من سقف الغرفة .

والحواة كثيرو العدد فى القاهرة . ويشاهدهم الناس فى الميادين محاطين بحلقة من المشاهدين . ويشاهدونهم كذلك فى الأعياد العامة وهم يجتذبون التصفيق من الماجنين الذين لا يعتقدون عادة فيهم . وهم يقومون بعدد كبير من الحركات والنوادر هذه أكثرها شيوعا : يساعد الحاوي عادة اثنان من الصبيان ، فيسحب أربعة أو خمسة من الثعابين من أحجام متوسطة من جراب من الجلد ويضع أحدها على الأرض ويجعله يرفع رأسه وجزءا من جسمه . وبالثعبان الثانى يصنع عمامة لأحد مساعديه ويلف له اثنين حول عنقه ثم يسحبها ويفتح فم الصبى ويتظاهر بأنه يدخل له فى خده شيئا أشبه بحديدة الأقفال ثم يقفلها ؛ ثم يتظاهر بأن يغرس له سنا

من الحديد فى حلقة إلا أنه فى الحقيقة يدخله فى يد من الخشب تكون مثبتة فيها . وثمة لعبة أخرى من نفس النوع هى تلك : يرقد الحاوى أحد صبيانه على الأرض ويسند سلاح أحد السكاكين على أنفه ثم يضرب على السلاح حتى يبدو كما لو كان قد غار إلى منتصف عرضه . والألعاب التى يقوم بها بمفرده أدعى للتسلية : فمثلا يسحب من فمه كمية كبيرة من الحرير يلفها حول ذراعه ، ومرات أخرى يملأ فمه بالقطن ويبصق النار ، ومرات أخرى كذلك يخرج (من فمه كذلك) عددا كبيرا من قطع القصدير فى استدارة الدولار ثم يبصقها بأنفه إلى الأرض فى صورة ماسورة غليون .

ومن الألعاب الشائعة للحواة أن يضع عددا ما من شرائط الورق الأبيض فى آنية من الصفيح على شكل قالب الحلوى ثم يخرجها منه وقد صبغت بمختلف الألوان . ثم يضع الماء فى نفس هذه الآنية ويضيف اليه قطعة من القماش ثم يقدمها الى المشاهدين وقد تحولت الى حلوى . وأحيانا يقطع الحاوى شالاً الى قطعتين أو خرقه من منتصفه ثم يعود فيصلحه فوراً . وأحيانا أخرى يتجرد من جميع ملابسه إلا سراويله ويطلب من شخصين أن يربطا له قدميه ويديه ويضعوه فى كيس ، ولما يفعلون ذلك يطلب قرشًا فيقول له أحدهم إنه سيحصل على القرش لو استطاع سحب إحدى يديه لأخذه . وفى الحال يسحب إحدى يديه خارج الكيس ثم يعود فيدخل ويخرج بعد ذلك بأكمله مربوطا كما كان . ثم يعود فيدخلونه فى الكيس ويخرج على الفور وقد تخلص من جميع قيوده ويحمل صينية صغيرة محاطة بالشموع المضاءة (وتتم هذه اللعبة مساءً) وعليها خمسة أو ستة من الصحون الصغيرة مملوءة بمختلف الأصناف التى يقدمها للمشاهدين .

وفى القاهرة ثمة نوع آخر من الحواة يسمونهم سكيم . وفى معظم ألعابهم يستعين الا سكيم كذلك بأحد الصبيان فمثلا يضع هذا الأخير تسعة وعشرين حجراً صغيرا على الأرض ويقف بالقرب منها ويرتبها أمامه . ثم يطلب من أحد المشاهدين أن يخفى قطعة من النقود تحت أحدها . وبعد ذلك ينادى السكيم الذى يكون واقفا على بعد أثناء هذا الترتيب ويخبره أنهم خبئوا قطعة من النقود تحت أحد هذه الأحجار ويطلب منه أن يدل على هذا الحجر فيفعل ذلك للتو . وهذه اللعبة بسيطة للغاية فإن الحجارة التسعة والعشرين تمثل الحروف الأبجدية العربية ويعنى الصبى بأن يبدأ طلبه بالحرف الذى يمثله الحجر الذى خبئت تحته قطعة النقود .

وفن العرافة وقراءة الطالع من الفنون التى تمارس فى مصر ويمارسها عادة بوهيميون يشبهون أمثالهم لدينا . ويسمونهم الغجر . وهم عادة يدعون أنهم من سلالة البرامكة مثل الغوازى ولكنهم من فرع آخر .

ومعظم العرافات من النساء وكثيرا ما يشاهدن فى شوارع القاهرة وهن يرتدين ملابس تشبه ملابس نساء الطبقة الدنيا بالطب والطربوش ولكن وجوههن دائما سافرة . والغجرية تحمل دائما معها كيسا من الجلد يحتوى على أدوات مهنتها . وهى تجوب الشوارع صائحة «أنا العرافة ! أشوف الحاضر والمستقبل» .

وتكشف معظم الغجريات الطالع بواسطة عدد من القواقع وقطع الزجاج الملون وقطع النقود الخ .. وهى تضعها مختلطة ثم تدلى بعرافتها

حسب النظام الذي تكون الصدفة قد رتبتها به . وأكبر القوقعات تمثل الشخص الذي يراد رؤية طالعه والقواقع الأخرى تمثل الخير والشر ... الخ . وحسب أوضاع هذه القواقع بالنسبة بعضها للبعض تحكم الغجرية ما اذا كان هؤلاء أو هؤلاء سيحضرون الى الشخص المعنى . وتصيح بعض هذه البوهيميات كذلك قائلات «ندق ونطاهر» (أى نحن نرسم الوشم ونجرى عملية الختان !) .

ويقوم بعض البوهيميين بدور البهلوان وهى تسمية كانت تطلق على بعض المهرجين والسائقين أو الأبطال المشهورين وكل من كان ذا شهرة فى القاهرة فى الماضى باستخدام قوتهم ومهارتهم الا أن ألعاب البهلوانات من المحدثين تقتصر تقريبا على الرقص على الحبل ، وكل من يمارسون هذا الفن من البوهيميين . ويربطون جبلهم أحيانا فى مئذنة أحد المساجد على ارتفاع شاهق ويمتد الى مئات عديدة من الأقدام ، ويسندونه من مكان إلى مكان على عصى يدقونها فى الأرض .

ويمارس النساء والبنات والأولاد عن طيب خاطر تلك اللعبة ، الا أن الأولاد يقومون كذلك بلعب أخرى مثل ألعاب القوى والقفز بداخل الأطواق الخ .

والقرداتية (وهذه التسمية مستقاة من كلمة قرد) يسلون الطبقات الدنيا فى القاهرة بالألعاب التى يجعلون القرد يلعبها بمصاحبة حمار وكلب وجدى صغير . فيقوم الرجل والقرد (وهو عادة من فصيلة كلبيات الرءوس) بمضاربة الثلاثة الأخر بالعصى . ويلبس الرجل القرد بطريقة

غريبة فاحيانا يلبسه ملابس العروس أو ملابس امرأة محجبة ويتقدمه وهو يقرع طبلته ويستعرضه هكذا فوق ظهر الحمار ووسط حلقة كبيرة من المتفرجين . وعلى القرد كذلك أن يقوم بعدد كبير من الرقصات المضحكة . ثم يقال للحمار أن يقفز فوق أجمل فتاة ليفعل ذلك على الفور وهو يقرب خياشيمه من أجمل فتاة فتكون بذلك راضية كل الرضا وكذلك جميع المشاهدين .

ويطلب من الكلب أن يقلد اللص فيأخذ فى الزحف على بطنه . وأخيرا وأفضل هذه الألعاب هى لعبة الجدى . فهو يقف على قطعة صغيرة من الخشب تشبه تقريبا وعاء النرد يبلغ طولها تقريبا الأربع بوصات وعرضها بوصة ونصف ، يقف عليها الجدى بحيث تكون أقدامه الأربعة متجمعة على هذه المساحة الضيقة . وترفع قطعة الخشب هذه وهى تحمل الجدى ويدس تحتها قطعة خشب أخرى مشابهة ثم ثالثة ورابعة وخامسة دون أن يغير الجدى من وضعه .

ويسر المصريون كثيرا برؤية تمثيليات هزلية تهريجية يسمونها « المعبزين »[١٧] (كذا) وتمثل تلك التمثيليات عادة فى الحفلات التى تسبق الأعراس وحفلات الختان لدى العظماء وتجتذب أحيانا أعدادا كبيرة من المشاهدين فى الميادين العامة فى القاهرة . ولكن نادراً ما تكون تلك العروض تستحق الوصف لأنها تعتمد على النكات السقيمة البذيئة التى

---

(١٧) ربما يقصد جيرار المحبظين ؟

تجتذب بها تصفيق المشاهدين . وجميع الممثلين فيها من الرجال ، حتى أدوار النساء يقوم بها الرجال أو الفتيان فى ملابس النساء .

وكعينة لتلك التمثيليات تلك احداهن وقد تم عرضها أمام محمد على بمناسبة ختان أحد أبنائه حيث كان يتم حسب العادة المتبعة ، ختان عدد كبير من أبناء العظماء .

وشخوص التمثيلية هم : الناظر (أو المحفظ) وشيخ البلد ، وخادمه ، وكاتب قبطى ورجل مسكين مدين للحكومة وزوجته وخمسة أشخاص آخرين يدخلون إلى المسرح واثنان منهم يدقان على الطبول واثنان يعزفان على المزمار والخامس يرقص . وبعد أن يعزفوا على آلاتهم ويرقصوا بعض الوقت يدخل الناظر والشخوص الآخرون ويقفون فى دائرة .

ويقول الناظر سائلا : «ما هو مقدار دين عوض بن رجب ؟» فيرد الموسيقيون والراقصون الذين يقومون هنا بدور الفلاحين ، يردون قائلين : «قل للكاتب يرجع للدفتر» وهذا الكاتب يرتدى ملابس الأقباط أى العمامة السوداء ويحمل فى حزامه كل ما يلزمه للكاتب . ويقول له الشيخ : «كم على عوض بن رجب ؟» فيجيب الكاتب قائلا : «ألف قرش - ويضيف الشيخ : وكم دفع منها ؟ فيرد عليه الكاتب قائلا : «خمسة قروش» فيقول حينئذ للمدين : «أيها الرجل ، لماذا لم تحضر النقود ؟» فيرد الرجل قائلا : «ليس عندى نقود . فيصيح الشيخ قائلا : «ليس معك نقود ؟ أرقدوا هذا الرجل على الأرض» . ثم يحضرون سوطا يشبه عصب الثور يضرب به الفلاح المسكين . فيصيح فى الناظر قائلا :

«يابك ! وشرف ذيل حصانك ، يابك ! وشرف رباط عمامتك يابك ! »

وبعد أن يكرر الفلاح هذه النداءات الغريبة مستحثا عطف الناظر يكفون عن ضربه ويسحبونه ليلقوا به فى السجن . وثمة مشهد آخر : تأتى زوجة السجين لرؤيته وتسأله كيف حاله ، فيجيبها قائلا : «من أجل خاطرى يازوجتى ، خذى بعض البيض والفطير الى منزل القبطى ووجهى اليه الرجاء بالتوسط فى اطلاق سراحى » . وتجمع المرأة الأشياء المطلوبة وتحملها فى ثلاث سلال الى منزل القبطى وتسأل هل هو موجود فيردون عليها بنعم . فتمثل أمامه وتقول :

«يا معلم حنا ! اصنع فى جميلا بتقبل هذا والحصول على إطلاق سراح زوجى » ـ ومن هو زوجك ؟ ـ إنه الفلاح المدين بألف قرش ـ ادفعى منها مائتين أو ثلاثمائة الى شيخ البلد كجزية » . وتذهب المرأة لاعداد النقود وإطلاق سراح زوجها .

ونرى من ذلك أن الملهاة تهدف بالسبة للشعب إلى انذار العظماء للحصول على بعض الاصلاحات . وكان هذا فى أغلب الأمر هدف الفن التمثيلى فى العصور الوسطى . والمصريون ما زالوا فى العصور الوسطى

منازل القاهرة

إن العاصمة الحديثة لمصر تسمى القاهرة التى كون منها الأوربية كلمة Lccairc أما الشعب فيسميها مصر (بفتح الميم أو كسرها) وهى اسم مصر بأكملها . والمدينة تقع فى مدخل وادى مصر العليا ، بين النيل والسلسلة الشرقية لجبال المقطم . ويفصلها عن النهر لسان من الأرض كله مزروع تقريبا ، ومن الناحية الشمالية حيث يوجد ميناء بولاق ويبلغ عرضه ربع ميل إلا أن هذا العرض يبلغ نصفه من ناحية الجنوب .

وإن الأجنبى الذى لا يكون له سوى أن يجوب شوارع القاهرة سوف يظن أن هذه المدينة ضيقة ولا تشغل الا مساحة بسيطة الا أن من يرى المدينة من سطح منزل عال أو من مئذنة أحد المساجد سوف يلاحظ عكس ذلك . والشوارع المأهولة أكثر من غيرها تتميز بصف من الحوانيت على كلا الجانبين . أما معظم الشوارع البعيدة فهى مزودة بأبواب من الخشب لدى كل طرف من طرفيها . وهذه الأبواب تغلق ليلا ويحرسها

بواب مهمته أن يفتح لكل من يريد المرور . وما يسمى حيا هو تجمع بعض الشوارع الضيقة ذات مدخل مشترك واحد .

والمنازل الخاصة تستحق الوصف بصفة خاصة . فالجدران من الأساس حتى ارتفاع الدور الأول مغطاة من الخارج وفى أحوال كثيرة من الداخل بحجارة جيرية رخوة تستخرج من الجبل المجاور . وهذا الحجر حين يكون حديث القطع يبدو سطحه فى لون أصفر خفيف الا أنه ما يلبث أن يتحول الى اللون البنى بفعل الهواء ، أما أقسام الواجهة فهى أحيانا تبيض بالآجر الأحمر والجير الأبيض فتبدو على التوالى ذات خطوط حمراء وبيضاء . وهذا يتم بالنسبة للبيوت الكبيرة والمساجد . أما المنازل الممتازة التى تبرز واجهتها عادة بروزا يبلغ القدمين فهى تستند الى أعمدة . وهذه الأبنية تشيد بالطوب الأحمر وتغطى عادة بطبقة من الجبس . والطوب عادة محروق ولونه أحمر داكن . وبياض المنازل عادة مسطح ومغطى بطبقة من الجبس . والنوافذ الناتئة فى الأدوار العليا التى ترى فى مواجهة بعضها البعض تكاد تتلامس وتحجب هكذا أشعة الشمس عن الشوارع تماماً مما ينتج عنه فيئا لطيفا أثناء الصيف .

وأبواب المنازل عادة تنتهى من أعلى باستدارة وزخارف على الطراز العربى . وفى وسطها قسم يكتب عليه عادة كتابات عربية هى : « هو الله الخالق المبدع الخالد » . وهذه التقليمات وغيرها من نفس الشكل ولكن : أصغر قليلا مما توجد على الأبواب تراها مطلية باللون الأحمر بإطار أبيض . أما بقية مساحة الباب فتطلى باللون الأخضر . واختيار هذه

الألوان يرجع الى أفكار خرافية . والأبواب مزودة بقادوم من الحديد وقفل من الخشب ، وعلى جميع الأبواب تقريبا تجد بجوار الأبواب مكانا مرتفعا ذا درجتين حتى يمكن منه امتطاء الحمار أو الحصان .

وشقة الدور الأرضى المجاورة للشارع مزودة بنوافذ صغيرة ذات قضبان من الخشب الا أن فتحتها عالية بحيث لا يستطيع المار النظر فيها الى الداخل . وشرفات الشقق تخرج فى بروز يقدر تقريبا بقدم ونصف . وهذه النوافذ تزين عادة بعرائس من الخشب المخروط وهو من الضيق بحيث يمنع ضوء الشمس من النفاذ مع سماحه بدخول الهواء . وهذه العرائس نادراً ما تكون مطلية واذا كانت كذلك فغالبا ما يكون الطلاء هو اللون الأخضر . وتسمى هذه النوافذ بالمشربيات . وهذه الكلمة الأخيرة تعنى مكانا للشرب . وفى بعض المنازل يضعون فى تجويف هذه البروزات قليلاً من الفخار ذى المسام ترطب الماء بفعل البخر الذى يسببه تيار الهواء فوق النافذة البارزة هذه مباشرة توجد أخرى مسطحة ومزودة بعريشة أو قضبان من الخشب أو الزجاج الملون . وهذه النوافذ العليا حين تكون مزودة بعرائش فإنها تحلى عادة ببعض الرسوم الزخرفية التى تمثل عادة إما حوضا وإبريقا ، والإبريق بداخل الحوض فوق هذه النافذة أو وجه أسد أو اسم الله أو كلمات مثل «حسبى الله» الخ وبعض النوافذ الناتئة تلك تكون مبنية بالكامل من الخشب وبعضها مزدان ببلاط القيشانى .

وبصفة عامة ترتفع المنازل دورين أو ثلاثة . ولكل بيت فناء غير مبلط يسمى حوش يدخل اليه عن طريق ممر مبنى بحيث يعترضه كوع أو

اثنان وذلك من أجل منع المارة من النظر الى الداخل . وبهذا الممر يمتد ما يشبه المقعد يستند الى الحائط بطوله كله ويسمى مصطبة خصصت للبواب والخدم . وبالحوش عادة بئر من الماء ذى الملوحة الذى يتسرب من النيل عبر التربة . وجانب هذا البئر الأكثر وقوعا فى الظل يكون عادة مزودا بجرتين تملآن كل يوم من ماء النيل الذى يجلب من النهر فى قرب وأهم الشقق تطل على الفناء وأحيانا يكون للبيت فناءان يتبع الفناء الثانى منها الحريم وتزدان هذه الأفنية بكوات صغيرة ذات قبوات تزرع فيها الأشجار الصغيرة والزهور . والجدران الداخلية للبيوت التى تكون مربع الأفنية تكون عادة مبنية بالطوب الأحمر ومبيضة بالجير . وللأفنية عدة أبواب تصلها بالداخل أحدها يسمى باب الحريم ، ومن هذا الباب نصل الى السلم المؤدى الى الشقق المخصصة فقط للنساء والسادة وأطفالهم .

والدور الأرضى به شقة تعرف عادة باسم المندرة يستقبل فيها الضيوف من الرجال . وهذه الشقة ذات نافذة عريضة ونافذة أو نافذتين أصغر مبنية على نفس الطراز . والأرضيات الخشبية لهذه الشقق ذات حافة تبلغ من ست الى سبع بوصات وهذا الجزء الأسفل يسمى دركاه .

وفى بيوت الأغنياء تكون الدركاه مغطاة ببلاط من الرخام الأبيض والأسود ، وجميع الفراغات محشوة بالمزايكو المكون من قطع من القرميدذى لون أحمر زاه فيشكل بذلك تطعيما أنيقا وساحراً . وفى وسط الفناء نجد نافورة يسمونها فسقية تسقط مياهها ثانية فى حوض مبلط بالرخام الملون . والنافورات ، ومياهها ترتفع الى ارتفاع كبير تواجه عادة ما

يشبه المنضدة من الرخام أو من الحجارة العادية يبلغ ارتفاعها أربع أقدام تقريبا وتسمى الصفة . وهذه المنضدة تستند الى باثكتين أو أكثر وأحيانا باثكة واحدة يوضع تحتها الأدوات التي تستعمل يوميا أي أواني العطور أو أواني الوضوء التي تستخدم قبل وبعد الوجبات استعداداً للصلاة .

والجزء الأعلى من الشقق يسمى الديوان وهي تسمية فيها تشويه لكلمة قصرPalais [١٨] وحين يدخل المرء إلى هذا الجزء من المسكن يخلع - نعليه قبل أن يستطيع الولوج الى الديوان . وهذا الجزء الذي هو في واقع الأمر لا يعدو أن يكون غرفة انتظار مبلط بالحجارة العادية . وفي الصيف تغطى الأرضية بالحصير وفي الشتاء بالسجاد . وفي ثلاثة جوانب من الغرفة تشاهد وسائد وحشايا ، وكل حشية يبلغ سمكها ثلاث بوصات عادة وعرضهاثلاث أقدام . وتعد الفرش إما على الأرض أو على أسرة من السيور ؛ والوسائد وطولها عادة هو عرض السرير نفسه ونصف هذا العرض سمكا فإنها تستند الى الحائط . وتحشى الوسائد والحشايا بالقطن في وجوه وسائد من الكليكوت[١٩] المطبوع أو الصوف أو أي نوع من الأقمشة

---

(١٨) هذا الجزء غريب في غموضه يدفع إلى التساؤل عما إذا لم يكن ثمة أحد يترجم لجبران شفوياً النص الذي كذبه لين . ذلك أن هذا الأخير يتحدث عن جزء من المنزل يسمى إيوان ولن كلمة تعني هي الأخرى القصر وقد تكون تلك الكلمة إذ تنطق بالإنجليزية قد إختلطت في ذهن جبران مع الكلمة الفرنسية divan لا سيا أن هاه الكلمة نفسها من أصل شرقي (الناشر) .

(١٩) قماش قطني خشن يصنع أصلاً في مدينة كليكوت على شاطيء مالابار .

الغالية . وجدران المنزل مطلية بالجبس ومبيضة من الداخل . وفى كل مكان تقريبا تجد صوانين أو ثلاثة قليلة العمق صنعت أبوابها على شكل تقسيمات صغيرة للغاية . وهذه العادة سببها شدة الجفاف وحرارة الجو التى تطرد القطع الخشبية الكبيرة لدرجة أن المرء يظن أنها تعرضت لنار الفرن . وأبواب الشقق تتكون لنفس السبب من قطع مركبة . وتوزيع التقسيمات الخشبية المختلفة التى نلاحظها على كل ما هو مصنوع من الخشب تعطى صورة فريدة غنية بالخيال والتركيبات .

والأسقف من الخشب ، والعروق العرضية منحوتة وتطلى أحيانا بالألوان وأحيانا تذهب . وسقف الدركاه فى البيوت الكبرى تزينه زخارف غاية فى الثراء ذات معينات متقابلة تكون رسوماً طريفة ومنتظمة ذات تأثير زخرفى من أرقى الأذواق .

وفى وسط المربع الذى تكونه تلك القطع تعلق نجفة . والطريقة الفريدة التى تطلى بها الأسقف وغرابة الرسوم التى تتمثل فيها والتى تبدو متقابلة فى غير نظام بينما أن جميع هذه الفراغات مكونة من أجزاء ليس ثمة ما هو أكثر انتظاماً منها وتكون معاً كلاً مبهرًا للعين .

وفى داخل بعض البيوت ثمة غرفة تسمى « المقعد » تخصص لنفس الغرض الذى تخصص له المندرة . وسقفها محمول على عمود أو عمودين وعدة قبوات قاعدتها مزودة بالقضبان . والدور الأرضى كذلك له غرفة استقبال تسمى « تختبوش » ، وهى عادة مربعة . وواجهتها المطلة على الفناء مفتوحة ، وفى الوسط يرتفع عمود لحمل الجدران المبنية فى أعلى .

وهذه الغرفة مبلطة بالبلاط الكبير وبها صفة تشغل ثلاثة جوانب من الحائط . وهذه الغرفة التى يمكن أن تعتبر فناء كثيرا ما ترش بالماء ، لتزويد الشقق المجاورة ، أو على الأقل شقق الطابق الأرضى بالرطوبة الغالية فى مثل هذه الأجواء .

وفى الشقق العليا ، وهى شقق الحريم ، يوجد مكان يسمى «الكعب» ذو ارتفاع كبير ، ويوجد به ديوانان يمتد كل منهما بطول أحد الجدران ، وأحدهما أعرض من الآخر والعريض هو الذى يجلس فيه عادة الأشخاص الذين يراد تكريمهم . وجزء من سقف هذا الصالون الذى يتوسط الديوانين أكثر ارتفاعاً من بقية الأجزاء . وفى الوسط يعلق مصباح يسمى ممرك memrak زينت أسطحه بالعرائس مثل المشربيات التى تحمل قبوة صغيرة . ومن النادر ما تكون الدركاه مزودة بنافورة صغيرة الا أنها غالبا ما تكون مبلطة بنفس طريقة المندرة .

ونجد فى كثير من الغرف وزرات خشبية ضيقة محملة بكافة أنواع الأوانى الصينية المجلوبة من الصين الغرض منها تجميل المكان . وهذه الوزرات المركبة على ارتفاع أكثر من سبع أقدام من الأرض تحيط بالغرفة بأكملها فيما عدا فتحات النوافذ والأبواب . أما الغرف فجميعها تقريبا مرتفع جداً ، وارتفاعها يبلغ على الأقل أربع عشرة قدماً ، بل إن كثيرا منها تزيد عن ذلك . والكعب هو أوسعها جميعا وأكثرها ارتفاعاً وفى منازل الكبراء يشكل الكعب أجمل غرف الاستقبال .

وفى بعض الأدوار العليا لبيوت الأغنياء ترى بخلاف النوافذ ذات العرائش طاقات صغيرة من الزجاج الملون يمثل سلال زهور أو موضوعات أخرى بهيجة وأنيقة أو يكتفى ببعض الرسوم الغريبة ذات التأثير الساحر . وهذه النوافذ الزجاجية الملونة تسمى خماسية وكلها تقريبا يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثا وعرضها قدمين تقريبا . وتركب هذه النوافذ الزجاجية الملونة على الجزء الأعلى من النوافذ البارزة أو على الأجزاء العليا لفتحات الجدران فترسل من ثم ضوءاً هادئا سحريا ذا انعكاسات لا يمكن تصوير سحرها . وهذه النوافذ تتكون من قطع صغيرة من الزجاج من مختلف الألوان مثبتة فى إطار من الجبس الناعم مركب بدوره على إطار من الخشب . ونرى على الجدران المبنية من الجص فى بعض الشقق رسوما رديئة تمثل الكعبة وقبر الرسول أو تمثل زهورا وغيرها من موضوعات الزينة . ونجد كذلك حكما عربية وعبارات دينية . ومعظم هذه الحكم والعبارات تكون مكتوبة على ورق جميل وتجملها الزخارف الخطية الجميلة وموضوعة فى إطار يغطيه الزجاج . وغرف النوم ليست مؤثثة لهذا الغرض لأن الفراش يفك أثناء النهار ويلف ويوضع فى ركن من الغرفة أو فى غرفة أخرى تستخدم للنوم أثناء الشتاء . أما فى الصيف فمعظم السكان ينامون على أسطح المنازل . فيفرش الحصير أو السجاد فوق الحجارة التى بلطت بها أرضية المكان وأريكه هذا هو كل ما فى غرفة النوم من أثاث ، وهذا عادة هو ما يوجد فى الغرف الأخرى .

وتقدم الوجبات على صحاف مستديرة توضع فوق كرسى صغير

منخفض . ويجلس المدعوون على الأرض حول الصحفة . واستخدام المدافىء غير معروف . وتدفأ الشقق فى فصل الشتاء بواسطة حجر يوضع فى موقد ولا تعرف المدافىء الا فى المطابخ .

وكثير من البيوت بها مخازن على الأسطح تكون فتحتها جهة الشمال أو الجنوب الغربى ومهمتها ترطيب الغرف العليا .

ولكل باب قفله الخشبى ويسمى دب : وبه نقاط بارزة من الحديد تتناسب مع ثقوب فى المفتاح .

وتعانى كثير من منازل القاهرة نقص الانتظام فالغرف عادة ذات ارتفاعات مختلفة ابتداء من الأرض مما يجعل من فى البيوت يصعدون ويهبطون للدخول من غرفة الى أخرى والهدف الرئيسى للمهندس هو أن يجعل البيت فى معزل بقدر الإمكان لاسيما الجزء المخصص لسكنى النساء وتجنب كشف الشقق من النوافذ أو البيوت المجاورة .

وفى بيوت الأثرياء أو ابناء الطبقة المرموقة يهتم المهندس بإضافة باب سرى ، وهذه التسمية تطلق كذلك على أبواب الحريم وذلك لتسهيل الهرب حين يكون ثمة تهديد بالقبض على أحد أو القتل أو إدخال احدى العشيقات التى تستطيع هكذا أن تدخل وتخرج سراً . وتحتوى بيوت الأثرياء كذلك على بعض المخابىء للثروات وتسمى « مخبأ » ويجد فى حريم البيوت الكبيرة حمامات تسخن بنفس الطريقة التى تسخن بها الحمامات العامة

وفى حين يشغل الخدم الجزء الأسفل من البيت تقسم الأدوار العليا إلى مساكن منفصلة وهذا الجزء من البيت يسمى ربعا وهذه المساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر تماماً . وكذلك الحال بالنسبة للجوانب أسفل البيت ، وهى تؤجر إلى أسر لا تمالك القدرة على دفع ايجار منزل بأكمله . وكل من هذه المساكن التى يتكون منها الربع يتكون من قاعة أو أكثر وغرفة نوم وعادة من مطبخ والمرافق الأخرى . ومن النادر أن تجد مثل هذه المساكن ولها مدخل خاص من الشارع .

مراسم الجنازات .

إن المراسم المتبعة بمناسبة وفاة أو دفن أحد الرجال أو النساء متشابهة تقريبا . وحين تحدث الحشرجة أو غيرها من العلامات التى تدل على موت وشيك لأحد الرجال فإن أحد الحضور يعدل وضعه بحيث يكون وجهه تجاه مكة ويغمض له عينيه . وحتى قبل أن يلفظ أنفاسه أو بعد ذلك بلحظة يصيح الحاضرون قائلين : «لا حول ولا قوة الا بالله ! انا لله وإنا إليه راجعون ! اللهم ارحمه ! » وفى تلك الأثناء تصدر نساء الأسرة صيحات والتى تسمى الولولة ثم يصدرن أصواتا أكثر نفاذا وهن ينطقن باسم المتوفى . وأكثر الصيحات استعمالا والتى تفلت من بين شفتى زوجته أو زوجاته وأولاده هى :

«يا سيدى ! ياجملى ! (ومعنى ذلك أنت يامن كنت تجلب لى مئونتى وتحمل أثقالى !) يا سبعى ! ياجمل البيت ! ياعزى ! يا موردى ! يا أبى ! ياحسرة ! »

وبعد الموت مباشرة يجرد المتوفى من الملابس التى كان يرتديها ويلبس ملابس أخرى ثم يسجى على فراشه أو مرتبته ويغطى بغطاء وتستمر النساء فى ولولتهن . ويأتى الكثير من الجيران للانضمام اليهن .

ويحدث عادة أن ترسل الأسرة فى استدعاء ندابة أو ندابتين (أى الباكية العمومية) . وتحضر كل منهما دفا غير مزود بالرقائق المعدنية المعتادة التى نراها فى الدفوف العادية . وتضرب هذه النسوة على هذه الدفوف وهى تصيح : ياحسرة عليه ! وتمتدحن عمامة المتوفى وجماله ... الخ وذلك بينما ترى نساء الأسرة والخادمات وصديقات المتوفى وقد انتقشت شعورهن وأحيانا مزقن ثيابهن وهن يصحن بدورهن : ياحسرة عليه ! ويلطمن وجوههن .

ولا يلبث المغسل أن يحضر (أى غاسل الموتى) ومعه مقعد طويل يرقد عليه جثة الميت ، ونعش . فإذا كان المتوفى ذا مركز محترم يستدعى الفقراء الذين يشتركون فى موكب الجنازة الى منزل المتوفى . وفى أثناء مراسم غسل الجثة يجلس هؤلاء فى غرفة مجاورة أو خارج البيت على باب الشقة . وبعضهم يقرأ أو يرتل سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) بيما يرتل الآخرون جزءا من البردة وهى قصيدة مشهورة فى مدح الرسول . وينزع الغاسل ملابس المتوفى التى تئول إليه على سبيل الصدقة . ثم يربط فكه ويغمض عينيه ويقوم للجثة بشعائر الوضوء العادى الذى يتم استعداداً للصلاة فيما عدا غسل الفم والأنف ويغسل من الرأس الى القدم

بالماء الساخن والصابون بليف النخل أو بماء يغلون فيه بعض أوراق الغبيراء الجافة المطحونة وماء الورد . ثم تربط قدماه وتوضع يداه فوق صدره .

والكفن ، وهو رداء القبر بالنسبة للفقراء . يتكون من قطعة أو قطعتين من القماش القطنى تعد على شكل كيس . أما بالنسبة للرجل الثرى فعادة يلف أولاً فى طبقة من الموسلين ثم فى ملاءة من القطن أكثر سمكا ثم فى قطعة من القماش الحريرى والقطن المقلم وأخيرا يلف فى شال من الكشمير . والألوان المفضلة لهذه الطبقات هى الأبيض والأخضر علماً بأنه يمكن استعمال جميع الألوان ماعدا الأزرق وكل ما يقترب منه . وحين تعد الجثة بهذه الطريقة من أجل الدفن توضع فى النعش الذى يغطى عادة بشال من الكشمير الأحمر أو من لون آخر . وحينئذ يقف الرجال الذين سيشتركون فى الموكب حسب النظام المتبع . وهو بالنسبة للمواكب العادية كما يلى :

يتقدم الموكب ستة من الفقراء أو أكثر . وهؤلاء الرجال الذين يطلق عليهم اسم «اليمنية» يختارون دائما من بين العميان . ويتلو هؤلاء الفقراء أقارب وأصدقاء المتوفى وفى مناسبات كثيرة ينضم الى الموكب عدد كبير من الدراويش وغيرهم من رجال الدين الذين يحملون رايات طوائفهم . ثم يأتى ثلاثة أو أربعة من الطلبة يحمل أحدهم مصحفا (أى نسخة من القرآن) أو مجلدا يحوى واحداً من الأجزاء الثلاثين للقرآن . ويوضع هذا الكتاب على ما يشبه المنضدة الصغيرة صنعت من عصيان صغيرة من خوص النخل ويغطى عادة بمنديل مطرز . وينشد هؤلاء الفتية بصوت

أعلى وأشد حماسة من صوت اليمنية بعض فقرات من قصيدة تسمى هوبريجة (كذا) Haubigxh تصف أحداث يوم الحساب .

وهؤلاء الطلبة الفتيان يتقدمون النعش مباشرة . ويحمل النعش بحيث يكون رأسه الى الأمام . وقد جرت العادة على أن يحمله أربعة من أصدقاء المتوفى لبعض الوقت ثم يحل محلهم غيرهم وهكذا على التوالى . وكثيرا ما يشترك المارة فى هذه المجاملة مما يعتبر ذا مثوبة عظيمة .

ويتبع النعش عدد من النسوة يبلغ أحيانا العشرين وتخفى هؤلاء شعورهن المنفوشة بالخمار .

وتستطيع أن تميز النساء من قريبات أو خادمات المنزل بأن كل واحدة منهن تلف حول رأسها بعقدة واحدة لفة من القماش القطنى أو الموسلين عادة زرقاء وتترك الطرفين يتدليان على ظهرها[٢٠] . وتحمل كل منهن كذلك منديلا يكون عادة مصبوغا باللون الأزرق ، يضعنه عادة على أكتافهن . وفى بعض الأحيان تلوى بعضهن هذا المنديل بأيديهن فوق رءوسهن أو أمام وجوههن .

وفى بعض المناسبات ينتهى الموكب بثور جعل للذبح أمام النعش يوزع لحمه بعد ذلك على الفقراء .

---

(٢٠) كثيراً ما نرى على جدران مقابر قدماء المصريين التى تتمثل عليها المشاهد الجنائزية نساء يحملن لفة مشابهة على رؤوسهن (جيرار دى مرفال) .

أما النعوش المخصصة للنساء والفتيان فتختلف عن نعوش الرجال . صحيح أن لها غطاء من الخشب يغطى بشال كما يحدث فى نعوش الرجال ، إلا أن هذه النعوش تتميز بأن لها قطعة خشبية مستقيمة على الرأس تسمى الشاهد . وهذا الشاهد يغطى بشال ويوضع على الجزء الأعلى منه (حين تكون المتوفاة من الطبقة المتوسطة أو من الطبقة العالية) مختلف الزينات التى تستعملها النساء فى تصفيف شعورهن . ولما كان الجزء الأعلى مسطحا أو مستديراً فكثيرا ما يوضع فوقه ما يسمى «بالقرص» (وهو عبارة عن حلية مستديرة من الذهب أو الفضة مرصعة بالماس أو الذهب المنقوش بزينات بارزة تضعه النساء فى أعلى رؤسهن) . ومن الخلف تعلق الصفا (وهى عبارة عن عدد من الضفائر الحريرية السوداء المزدانة بحلى من الذهب . وتضيف النساء تلك الضفائر إلى ضفائرهن الأصلية وتتركها تتدلى فوق ظهورهن) . وتستطيع ان تتبين نعوش الصبيان بأن فوقها عمامة تكون عادة من الكشمير الأحمر وتوضع فى أعلى الشاهد . وحين يكون الصبى صغير السن جداً يضاف اليها القرص والصفا . أما إذا كان الأمر يتعلق بطفل فى سنواته الأولى فإن رجلا يحمله بين يديه إلى المقابر . ولا يغطى جثمانه الا بشال ، وأحيانا كذلك يضعونه فى نعش صغير جداً يحمله أحد الرجال على رأسه .

ونتنقل الآن الى وصف الشعائر والمراسم داخل المسجد وداخل القبر .

وحين يدخل النعش إلى المسجد يوضع على الأرض فى المكان المحدد للنعوش بحيث يكون جانبه الأيمن متجها إلى مكة . ويقف الإمام على الجهة اليسرى من النعش ووجهه متجه إليه وفى اتجاه مكة . بينما يقف أحد رجال الدين الأقل درجة والمكلف بتكرار كلام الإمام . يقف لدى قدمى المتوفى . ويصطف حضور الجنازة خلف الامام وتقف النساء منفصلات خلف الرجال . ذلك لأنه من النادر ما يحظر عليهن دخول المساجد اثناء الاحتفالات . وحين يصطف الناس بهذه الطريقة يبدأ الإمام صلاة الجنازة ويبدأ بهذه الكلمات : «اقترح قراءة التكبيرات الأربع (وهى صلاة جنائزية تكرر فيها عبارة : «الله أكبر») على الميت المسلم الحاضر» . وبعد هذه المقدمة يرفع الإمام يديه مفتوحة ويلمس بطرف إبهامه أعلى أذنيه ويصيح قائلا : «الله أكبر !» ويقوم المبلغ بتكرار هذه الصيحة وكذلك يكررها جميع الأشخاص الواقفين خلف الامام . وبعد أن يقرأ الفاتحة يصيح الإمام مرة أخرى قائلا : «الله أكبر !» وبعد ذلك يضيف «اللهم صل على محمد النبى العظيم وعلى آله وصحبه وسلم !» وللمرة الثالثة يصيح الإمام قائلا : «الله أكبر» ثم يستنزل رحمة الله على المتوفى ويتوجه إلى الحاضرين قائلا : «اشهدوا له» فيردون قائلين : «كان رجلا فاضلا» . ثم يرفع النعش وإذا كانت تلك المراسم قد تمت فى مسجد أحد الأولياء المعروفين يوضع النعش أمام المقصورة ذات القضبان التى تضم رفات الولى . ويتلو بعض الفقراء وبعض الحضور صلوات جنائزية أخرى ثم تبدأ الجنازة من جديد المسيرة حسب الترتيب السابق

حتى المقابر . ومقابر القاهرة تكون عادة خارج المدينة فى الجهات الصحراوية الواقعة إلى الشمال . أو الشرق أو الجنوب من سورها . والمقابر فى المدينة قليلة العدد ومساحتها ليست كبيرة .

وسوف نقوم الآن بوصف دقيق لإحدى المقابر . فهى تتكون عادة من قبو يميل إلى الاستطالة وله سقف أشبه بالقبة . وهو مبنى عادة من الطوب ومدهك بالجبس والقبر عميق لكى يستطيع من يدفن فيه أن يجلس حين يأتى الملكان منكر ونكير (كذا) لزيارته وحسابه . وأحد جوانب المقبرة يكون فى اتجاه مكة أى إلى الجنوب الشرقى . أما مدخله فيتجه إلى الشمال الشرقى . وأمام هذا المدخل يوجد قبو صغير مربع الشكل مغطى بالحجارة التى تعبره من جهة إلى أخرى من أجل الحيلولة دون دخول التراب إلى القبو . وهذه الفجوة المبنية كما قلنا تعاد فتغطى بالتراب . ويبنى فوق القبو أثر ذو استطالة يسمى « التركيبة » يكون عادة من الحجارة أو الطوب . وفوق هذا الأثر يوجد حجران متقابلان أحدهما فوق الرأس والآخر فوق الأقدام . وهذه الحجارة عادة غاية فى البساطة ومع ذلك فمنها ما يزين بالزخارف . وعادة يحمل الحجر الذى فوق الرأس كتابة لآية من القرآن واسم المتوفى وتاريخ وفاته وهذا الحجر يعلوه أحيانا حجر منحوت يمثل شكل عمامة أو طاقية أو ما أشبه ذلك من غطاءات الرأس مما يدل على مكانة الأشخاص المدفونين فى القبر أو طبقتهم الاجتماعية . وفوق التركيبة الخاصة بالشيوخ الأجلاء أو بالأشخاص ذوى المكانة الرفيعة يبنى عادة مبنى صغير تعلوه قبة . وكثير من القبور التى بنيت تكريما لوجهاء

الاتراك أو المماليك تحتوى على تركيبات من الرخام مغطاة بغطاء على شكل قبه يستند إلى أربعة أعمدة من الرخام . وفى هذه الحالة فإن الحجر المقام فوق الرأس يحمل كتابات مذهبة على قاعدة لازوردية . وفى المقبرة الكبيرة الواقعة إلى الجنوب من القاهرة نشاهد الكثير من المقابر المبنية بهذه الطريقة . ومعظم مقابر السلاطين مساجد أنيقة .

وحيث إن القبر يفتح قبل وصول الجثمان فإن الدفن لا يتأخر إطلاقا . فنى الحال يسحب دافن الموتى ومساعداه الجثمان من التابوت ويضعونه فى القبر وتفك الأربطة التى تحيط به . ويوضع على جانبه الأيمن أو بحيث يميل ناحية اليمين بحيث يكون الوجه فى اتجاه مكة . ويثبت فى هذا الوضع بواسطة بعض الطوب النىء . وإذا كان غطاؤه الخارجى هو شال من الكشمير فإنه يمزق حتى لا تكون قيمته سببا فى إغراء اللصوص على فتح القبر . ويضع أحد الحضور حفنة من التراب بالقرب من الميت وعلى جسمه ثم تغلق فتحة القبر بواسطة حجارة الغلق الموضوعة فوق الفجوة المربعة التى تسبقه ويضاف التراب الذى كان قد أبعد عنها . ثم تتم بعد ذلك شعائر يقوم بها الجميع ماعدا الأطفال صغار السن الذين لا يعتبرون مسئولين عما يقومون به من أعمال . ويقوم أحد الفقراء بعمل الملكين (كذا) أى معلم الموتى فيجلس إلى جوار المقبرة ويقول : يا عبد الله ! يابن أمة الله ! اعلم أن الآن ينزل ملكان أرسلا إليك وإلى أمثالك . فحين يسألونك : من ربك ؟ رد عليهما قائلا : «إن ربى هو الله حقيقة . وحين يسألونك عن نبيك أو الرجل الذى أرسل إليك قل لهما : إنه محمد رسول

الله . وحين يسألونك عن دينك قل لهما : إن دينى هو الإسلام . وحين يسألونك عن الكتاب الذى تتخذه أساساً لسلوكك قل لهما : إن القرآن هو الكتاب الذى ينظم سلوكى والمسلمين إخوتى . وحين يسألونك عن دينك قل لهما : لقد عشت ومت على عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وحينئذ سيقول لك الملكان : استرح يا عبد الله ! فى رعاية الله ! »

ويعتقد المصريون أن الروح تظل مع الجثمان خلال الليلة الأولى والتالية للدفن وأن حساب الملكين السابق ذكرهما واللذين يستطيعان تعذيب الجثمان يتم فى تلك الليلة .

والليلة التالية للدفن تسمى ليلة الوحشة (أى ليلة العزلة) حيث إن مكان المتوفى يظل مهجوراً .

وما أن تغرب الشمس حتى يؤتى باثنين أو ثلاثة من الفقراء إلى منزل المتوفى حيث يتناولون عشاء من الحساء واللبن فى المكان الذى توفى فيه الميت وبعد ذلك يقرءون سورة الملك (السورة ٦٧ من القرآن) . ولما كان ثمة اعتقاد بأن روح الميت تظل مع جثمانه خلال الليلة الأولى للدفن وبعد ذلك تتوجه إما إلى حيث توجد الأرواح الفاضلة حتى يوم الحساب الأخير أو إلى السجن الذى ينبغى الأشرار أن ينتظروا فيه مصيرهم النهائى ، وهذه الليلة كذلك تسمى ليلة الوحدة .

سكان مصر

من الصعب تقدير سكان بلد لا يسجل فيه لا المواليد ولا الوفيات . ومنذ سنوات أرادوا عمل تقدير حسابى لذلك مع أخذ عدد البيوت فى مصر كلها فى الاعتبار وافتراض أن كل بيت فى العاصمة يحتوى على ثمانية أشخاص وفى الأقاليم لا يزيد عدد سكان البيت الواحد عن ستة . وهذا التقدير يقترب كثيرا من الحقيقة ومع ذلك فإن نتيجة التقديرات لم تعط لمدينة كالإسكندرية وبولاق ومصر القاهرة الا متوسطا لا يزيد عن خمسة أشخاص أما رشيد فقد رؤى أنها نصف مهجورة .

أما دمياط فهى كثيرة السكان ويمكن بسهولة أن يضم كل بيت فيها ستة أشخاص . وإذا لم نقبل هذه التقديرات فلن نصل إطلاقا إلى الرقم الاحتمالى لعدد سكان مصر . وإن إضافة شخص أو شخصين فى كل بيت لكل هذه المدن لايمكن أن تكون ذات تأثير كبير فى تقدير عدد سكان مصر كلها الذين قدروا بـ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة . وضمن هذا العدد ثمة

١٫٢٠٠٫٠٠٠ من الذكور ثلثهم أى ٤٠٠٫٠٠٠ صالحون للخدمة العسكرية . والطبقات المختلفة التى يتكون منها السكان هى تقريبا كما يلى :

مصريون مسلمون (وهم من الفلاحين وسكان المدن) ١٫٧٥٠٫٠٠٠ ، مسيحيون (أقباط) ١٥٠٫٠٠٠ ، عثمانيون أو أتراك ١٠٫٠٠٠ ، سوريون ٥٫٠٠٠ ، يونانيون ٥٫٠٠٠ ، أرمن ٢٫٠٠٠ ، يهود ٥٫٠٠٠

أما الباقى ويبلغ عددهم تقريبا ٧٠٫٠٠٠ نسمة فيتكونون من العرب الغربيين والنوبيين والعبيد الزنوج والمماليك (أو العبيد الذكور) ، والجوارى البيض ، والإفرنج ... إلخ ، ومن الصعب تصنيفهم . ولم يحسب عرب الصحارى المجاورة ضمن تقدير السكان هذا .

والمصريون من مسلمين وأقباط والسوريون ويهود مصر لايتكلمون إلا العربية ، فيما عدا القليل من الاستثناء . والعربية هى اللغة التى يتحدث بها كذلك الأجانب المقيمون فى البلاد .

وتشتمل القاهرة على ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة . ونخطىء كثيرا لو أردنا الحكم على سكان هذة المدينة بالزحام القائم فى شوارعها الهامة والأسواق ذلك لأن الشوارع والأحياء الأخرى أقل كثيرا من ناحية تآهلها بالسكان .

(ملحق)

- ١ -

(الفنون لدى الشرقيين)

ثمة فكرة ثابتة لدينا تمثل البلاد الشرقية على أنها عدوة للوحات والتماثيل . وتلك فكرة قديمة ينبغي أن تصف بجوار الفكرة القديمة الأخرى التي نسبت إلى قائد عمر تهمة إتلاف مكتبة الأسكندرية . تلك المكتبة التي تبددت بعد الحريق وتخريب السيرابيوم وكان ذلك قبل قدوم ذلك القائد بكثير .[٢١]

ونعرف جميعا أنه كان ثمة لوحات مرسومة على الرق في قصر الحمراء في غرناطة . وأن أحد الملوك المور ممن حكموا هذة المدينة قد أقام تمثالا لعشيقته في مكان اسماه حديقة الفتاة Jasdun de la Fille ولقد قلت من قبل اننا نجد في إحدى قاعات السراى في القسطنطينية مجموعة من اللوحات لوجوه السلاطين قام برسم أقدمها مشاهير الرسامين مثل بلان

(٢١) يبدو أن جيرار كان راغباً في إبعاد كل مسئوليه حول تخريب مكتبة الإسكندرية الشهيرة عن الشرقيين . انظر ما يقول عن ذلك في قصته « بنات النار » ، أنجليك ، الخطاب الأول .

ودى فيسي Bellin Devenise اللذين دعوا لهذا الغرض بأجر كبير .

بل لقد سنحت لى فرصة شهود معرض لوحات فى القسطنطينية أقيم خلال أعياد رمضان فى حى جالاتا Galata بالقرب من مدخل قنطرة السفن التى تعبر القرن الذهبى . ومع ذلك فينبغى الاعتراف بأن هذا المعرض كان يستحق الكثير من نقد الباريسيين . فقد كان تقسيم اللوحات مختفيا تماماً بينما كانت المناظر والأشياء الجامدة تسيطر على اللوحات فى وتيرة واحدة .

وكان ثمة ما يقرب من خمسمائة أو ستمائة لوحة ذات إطارات سوداء يمكن تقسيمها كما يلى : لوحات دينية ، لوحات معارك ، مناظر ، لوحات بحرية ، لوحات حيوانات . والطائفة الأولى تتعلق بنقل أشكال جميع المساجد الهامة فى الامبراطورية العثمانية ، فهى إذن تمت إلى العمارة الخالصة فيما عدا بعض الأشجار التى تظهر قيمة المآذن . وكانت السماء الزرقاء والأرض سمنية اللون والطوب الأحمر والقباب الرمادية كانت كل ما تصل إليه تلك اللوحات قليلة التنوع التى يتحكم فيها نوع من العرف الكهنوتى . أما عن المعارك فقد كان تنفيذها يعوقه كثيرا الاستحالة الدينية فى تصوير أية مخلوقات حية حتى ولو كان الأمر يتعلق بحصان أو حتى جمل أو حتى حشرة الجعل . وتلك هى الطريقة التى كان يتصرف بها الرسامون المسلمون : كانوا يفترضون أن المشاهد بعيدة جدا عن مكان المعركة ، فكانت ثنيات الأرض والجبال والأنهار ترسم بمفردها مع بعض الوضوح ؛ أما خطط المدن وزوايا وخطوط القلاع والخنادق ومواقع التشكيلات

المربعة والمدفعية فتوضح بعناية كبيرة . وثمة مدافع كبيرة منطلقة ومدافع هاون ينبعث منها أقواس ملتهبة من القذائف التي تحيى المنظر وتشكل الحركة فيه . وأحيانا يمثل الناس بنقاط . أما الخيام والأعلام فتبين الجنسيات المختلفة . وثمة ملاحظة مكتوبة في أسفل اللوحة تخبر المشاهد باسم القائد المنتصر . وفيما يختص بالمعارك البحرية يصبح التأثير أكثر وقعاً بسبب وجود السفن حيث يكون الصراع بينها أكثر حركة وحياة . وحركة هذه السفن تكتسب كذلك الشيء الكثير من التأثير بسبب تصوير بعض مجموعات من الحيتان والحيوانات البرمائية التي يجعلون منها شهودا على الانتصارات الحربية للسفينة .

والواقع أنه من الغريب حقا أن نرى أن الإسلام لا يسمح الا بتصوير بعض الحيوانات الموضوعة في عداد الوحوش . فهذا نوع من أبي الهول نصادف رسمه بالألوف في المقاهي ولدى الحلاقين في القسطنطينية . وهو عبارة عن رأس امرأة جميلة جداً على جسم هبغريف (حيوان خرافي مجنح) . وينتشر شعرها الأسود الطويل على الصدر والظهر وعيناها الحانيتان تحف بهما خطوط بنية وحاجباها المقوسان يتقابلان على جبينها . ويستطيع كل رسام أن يمنحها ملامح عشيقته وكل من يراها يستطيع أن يحلم من خلالها بالمثل الأعلى للجمال لأنها تمثل مخلوقا سماويا هو البراق الذى حمل محمد إلى الجنة الثالثة[٢٢]

(٢٢) قلنا ان لا داعى للتعليق على مثل تلك الملاحظات ولنتقبلها على سبيل المفاهيم الغريبة أو الدعابة الطريفة (المترجمة) .

تلك إذن هى الإمكانية الوحيدة لدراسة الوجوه . ولا يستطيع المسلم أن يعطى صورته لحبيبته أو لأقربائه . ومع ذلك ثمة طريقة لمنحهم الصورة العزيزة بطريقة دينية سليمة بأن يكبر أو يصغر شكل المسجد الذى يروق له فى القسطنطينية أو غيرها على علب أو مداليات . ومعنى هذا أنه يريد أن يقول : « هنا يوجد قلبى ، وهو يحترق من أجلك تحت أنظار الله » .

ونجد بطول ميدان سيراسكييه Setasquier بالقرب من مسجد بايزيد حيث تطير الحمائم بالآلاف ، صفًا من الحوانيت للرسامين وصانعى الرسوم المصغرة . وهنا يأتى للعشاق والأزواج الأوفياء فى بعض المناسبات ويطلبون رسم هذه المساجد العاطفية : ويدلى كل واحد منهم بآرائه عن الألوان والملحقات . وعادة يضيفون إلى الرسم بعض الأشياء التى تصور مشاعرهم .

ولا نفهم كيف أن الأرثوذكسية الإسلامية تسمح بوجوه خيال الظل الواضحة والدقيقة تماماً لاستخدامها فى القراقوز . ولابد كذلك من ذكر بعض العملات والمداليات فى الماضى بل وكذلك بعض الرايات لدى الفرق القديمة للانكشارية التى كانت تحمل وجوه حيوانات . وتزين سفينة السلطان بنسر ذهبى ذى جناحين مفرودين .

وثمة ظاهرة أخرى غريبة . فقد اعتاد الناس فى القاهرة تغطية منازل جميع الحجاج العائدين من رحلتهم إلى مكة بالرسوم . وذلك بلا شك لتصوير البلاد التى رآها الحاج . ذلك أنه فى تلك المناسبة وحدها

يسمح بتصوير الأشخاص الذين يصعب على المشاهد مع ذلك أن يتصورهم من الأحياء .

وهذا التعصب ضد الوجوه لا نصادفه ، كما هو معروف الا لدى المسلمين الذين يدينون بمذهب عمر (كذا) ، ذلك أن المسلمين من مذهب على يملكون اللوحات والمصغرات من جميع الأشكال . ولذلك فلا ينبغى اتهام الإسلام ككل بموقف هادم للفنون . والخلاف يقع على تفسير نص مقدس يتيح الظن بأنه محظور على المرء أن يخلق الأشكال مادام لا يستطيع خلق الأرواح . وحدث ذات يوم أن قام رحالة إنجليزى برسم وجوه تحت أنظار أعرابى من الصحراء . فقال له هذا بلهجة غاية فى الجدية : «حين تمثل جميع الوجوه التى ترسمها ، أمامك فى يوم الحساب الأخير ويقول لك الله : ها هى قد أتت تشكو من أنها قد وجدت ومع ذلك لم تستطع الحياة فقد صنعت لها جسدا ، والآن امنحها الروح ! فماذا تجيب ؟ - فقال الإنجليزى :

« سأقول للخالق : مولاى ، أما عن خلق الأرواح فسوف تقوم أنت بتلك المهمة خير قيام فلا أستطيع منافستك .. ولكن إذا كانت تلك الوجوه تبدو لك تستحق الحياة فامنحنى فضل إحيائها ! »

ووجد العربى هذا الرد مرضيا أو على الأقل لم يجد ما يرد به عليه . وقد بدت لى فكرة الرسام الأنجليزية غاية فى الذكاء . فإذا كان الله حقا يريد يوم الحساب الأخير أن يمنح الحياة لجميع الوجوه المصورة أو المنحوتة بواسطة كبار الفنانين فإنه سيملأ العالم بطائفة كبيرة من المخلوقات اللطيفة

التى تستحق الحياة فى بيت المقدس الجديد ليوحنا الرسول .

ونلاحظ مع ذلك أن الأتراك قد أولوا الآثار الفنية فى البلاد الخاضعة لنفوذهم من الاحترام أكثر مما كان متوقعا . وإن الفن ليدين بالحفاظ على مجموعة كبيرة من التماثيل الأشورية واليونانية والرومانية إلى سماحتهم واحترامهم للآثار ، ولولا ذلك لأتلفتها التطاحنات الدينية عبر العصور . ومهما قيل فى ذلك فإن تحطيم الأشكال الفنية لم يتم إلا فى العصور الأولى للتعصب حين ظن فى بعض الشعوب أنها تتجه لعبادتها .

واليوم إن أكبر دليل على سماحة الأتراك فى هذا الصدد يقدمه لنا وجود مسلمة وسط ميدان أتميدان nadiemr.\.I. فى مواجهة مسجد السلطان سليم وقاعدتها مغطاة بالرسوم البيزنطية البارزة تتميز فيها أكثر من ستين وجهاً احتفظ بها فى حالة جيدة تماماً . ومن الصعب تعديد التماثيل الأخرى التى تمثل كائنات حية وقد احتفظ بها فى القسطنطينية بخلاف تلك التى توجد فى الكنائس الكاثوليكية . فى قبة أيا صوفيا كانت وجوه الرسل المصنوعة من الفسيفساء قد غطيت بطبقة من الألوان ورسم عليها أشكال عربية من الزهور . أما بشارة العذراء فقد غطيت فقط بغطاء[٢٣] .

(٢٣) إن إعادة حالة كنيسة أيا صوفيا على ما كانت عليه قد قام على تنفيذها اليوم السادة الإخوة فوسانى . وأعيدت حالة لوحات الفسيفساء حسب الرسوم التى وصفها مسيو فورنارى . وثم بحث شيق عن تلك الإعادة بقلم مسيو نوجيس Mr. Nogues (ملاحظة جيرار) . والأمر يتعلق هنا ولا شك بفرنسوا نوجيس رئيس تحرير جريدة القسطنطينية Gournal de Coustantinlfle .

وفى كنيسة الأربعين شهيدا التى تقع بالقرب من قناة فالنسيا Valens لم تمس اللوحات الفسيفسائية رغم أن المبنى قد تحول إلى مسجد .

ولكى انتهى من الحديث عن الرسوم التى يسمح بعرضها للجمهور أذكر ملهى ليليا يقع فى طرف بيرا على حافة الطريق الذى يفصل هذه الضاحية عن قرية سان ـ ديمترى . وهذا الطريق كونه مجرى أحد الأحراش حيث كانت تنساب مياه جدول صغير يتحول إلى نهر فى الأيام العاصفة . والموقع من أجمل المواقع التصويرية بفضل الأفق المتغير بسبب التلال التى تمتد من ساحة الموتى الصغيرة إلى الشاطىء الأوربى للبوسفور . وثمة منازل مطلية مختلطة بالخضرة قد كرس معظمها لأن يكون حانة ريفية أو مقاهى ترتسم بالمئات على قمم وسفوح المرتفعات . ويندفع جمهور مختلط من مختلف الألوان حول هذه الأبنية المتنوعة فى حى الحانات الريفية الإسلامية حيث يصم أذنيك باعة الفطائر والمقليات والفاكهة والبطيخ بصياحهم العجيب . فتسمع اليونانيين منهم يصيح : a dka Paras (أى ١٠ بارات والبارة أكثر قليلا من الفلس) ؛ ثم ترى أهرامات من سنابل الذرة المسلوقة فى ماء مضاف إليه الكركم . ولندخل الآن إلى الحانة : إن داخلها شاسع المساحة فثمة أروقة عالية ذات درابزين من الخشب المخروط تحيط بالقاعة الكبيرة . وإلى اليمين يوجد عداد صاحب الحان ، وهو مشغول دواماً فى صب أنبذة تينيدوس Tenedos فى أكواب بيضاء

ذات يد يتلألأ فيها السائل العنبرى . وفى عمق القاعة توجد أفران الطبخ الغاصة بطائفة كبيرة من التوابل . ويجلس الرواد للعشاء على كراس صغيرة بلا ظهر أمام موائد مستديرة لا ترتفع إلا إلى ارتفاع ركبة الساق . ويجلس من لا يرغبون الا فى الشراب بالقرب من الباب أو على مقاعد وضعت بطول دوران القاعة .

وهنا يبدو اليونانى بطربوشة الاحمر والأرمنى بذقنه الطويلة ، والكلبك Kalpack الأسود واليهودى ذو العمامة الرمادية يبدون تحررهم من تعليمات محمد . ومن مكملات تلك اللوحة الزخارف المحلية التى أردت التنويه بها والتى تتكون من طائفة من الوجوه والأشكال التى رسمت على لوحة كبيرة على حائط الخان . إن اللوحة تمثل متنزها للمجتمع ويرجع حسب ماتدل عليه الملابس إلى نهاية القرن الماضى . ترى على اللوحة قرابة عشرين شخصا ذوى أطوال طبيعية بملابس لمختلف البلاد يسكن أبناؤها القسطنطينية . فتجد فيهم الفرنسى بملابس حكومة الديركتوار مما يدل على التاريخ الدقيق الذى رسمت فيه اللوحة . والألوان مازالت محتفظ بها والتنفيذ مرض جداً بالنسبة لرسم من العهد البيزنطى الحديث . وثمة لمحة ساخرة تحتوى عليها اللوحة تدل على أن من قام بها ليس رساماً أوربيا ذلك أنك ترى فيها كلما يرفع قدمه للعبث بجوارب الرجل الأنيق الذى يحاول بلا جدوى أن يصده بدرهم . تلك فى الواقع هى اللوحة الوحيدة التى يتمثل فيها أشخاص وتعرض للجمهور والتى استطعت اكتشافها فى القسطنطينية . وهكذا نرى أنه لس من العسير على أى فنان أن يعرض

مواهبه على أصحاب الحانات كما كان يفعل لنتارا Lantara [٢٤] ولم يبق أمامى إلا الاعتذار عن طول هذه المذكرة التى يمكن الاستفادة منها على الأقل فى تحطيم فكرتين أوربيتين خاطئتين وذلك بإثبات أنه توجد فى بلاد الأتراك لوحات وحانات . والكثير من فنانينا يعيشون هناك حياة طيبة للغاية برسم وجوه القديسين للأرمن واليونانيين .

---

(٢٤) رسام بولمى (١٧٢٩ ـ ١٧٧٨) هو بطل مسرحية لفرليه لباريه Barre بإسم لانتارا أو رسام الحان (١٨٠٩) . ويتحدث عنه أرسين هوسى a. Houssay صديق جيرار فى رواق الوجوه فى القرن الثامن عشر Galarie de Portraits du XVIII .

خطاب عمرو

كانت قصة الخليفة الحاكم بالنسبة للمؤلف ذريعة لاتمام وصف القاهرة الحديثة بوصف للقاهرة القديمة الخاصة بذكريات أجمل العصور التاريخية .

وثمة مستند لا ينبغى نسيانه كأول انطباعة عن مصر بعد أن أصبحت إسلامية ، ذلك هو الخطاب الذى كان قد وجهه عمرو إلى الخليفة عمر الذى كان قد طلب إليه بعض التفصيلات عن ذلك الذى أتم غزوه منذ قليل . وهذا الخطاب هو (٢٥) «من عبد الله ابن العاصى ابن فاى (Vail) السحامى (كذا) إلى خليفة رسول الله الذى أولاه الله السلام والرحمة . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأحد الخلفاء المتبعين للطريق القويم ، الذى تلقيت خطابه وقرأته وفهمت ما يطلبه . ولذا فإنى أريد أن

(٢٥) هذه ترجمة لما زعم جيرار بأنه الخطاب الموجه من عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ومسئولية صحة هذا الكلام من عدمها تقع على جيرار وحده .

أنتزع من فكره سحابة الشك بصدق حديثى . وإن القوة والسلطان من الله وكل شيء مآله إلى الله واعلم يامولاى أمير المؤمنين أن بلاد مصر ليست إلا أراضى سوداء ونباتا أخضر بين جبل معبر ورمل محمر . وبين جبلها ورملها توجد سهول رفعت ومرتفعات خفضت . ويحيط بها منحدر يمنحها ما تتعيش به ويمتد من أسوان حتى آخر الأرض وإلى شاطئ البحر . مسيرة شهر بالنسبة لرجل على صهوة جواده . وفى وسط البلاد يهبط نهر مبارك فى الصباح وترعاه السماء فى المساء ينساب وهو يزيد وينقص حسب دورة الشمس والقمر . وله زمن تنفتح له فيه ينابيع وعيون الأرض بأمر خالقها الذى يحكم سريانه ويطلقه لكى يمنح للإقليم ما يتعيش منه فيجرى حسب ما يؤمر حتى تنفتح مياهه وتدور أمواجه فى صخب . وحين تصل أمواجه إلى أقصى ارتفاعها لا يستطيع سكان القرى المرور من قرية لأخرى إلا بالقوارب الصغيرة فترى الزوارق تلف وتدور وتبدو كخيال سوداء وبيضاء فى مخيلة رائيها . وحين يصل إلى تلك الحال يبدأ فى الدوران إلى الخلف وإلى الانحسار فى مجراه كما خرج منه من قبل حين ارتفع شيئا فشيئا . وحينئذ يستعد أنشط الناس وأكسلهم للعمل . وينتشرون فى الريف فى فرق منها رجال القانون الذين يحرسهم الله والخلفاء الذين يحميهم الناس . تراهم يسيرون كالنمل بعضهم ضعيف وبعضهم قوى أمام المهمة التى انيطوا بها . وتراهم يشقون الأرض وما تشرب منها ويلقون فيها بجميع أنواع الحبوب التى يطلبون مضاعفتها بعون الله . ولا تتأخر الأرض قط فى أن ترتدى بعد سواد سمادها حلة خضراء وتنشر رائحة ذكية طيبة

أنبتها للسيقان والأوراق والسنابل فيكون منظراً بهيجا وأملاً طيبا حيث إن الندى يرويها من عل وتغذى الرطوبة نتاجها من أسفل . وفى بعض الأحيان تأتى بعض السحب بمطر قليل وفى بعض الأحيان لا تسقط إلا قطرات من الماء وفى بعضها لا يسقط شئ قط . وبعد ذلك يامولاى أمير المؤمنين تعرض الأرض زخرفها وتستعرض محاسنها وتسعد سكانها وتطمئنهم على أنهم لابد حاصدو ثمراتها لغذائهم وغذاء مطاياهم ولنقل بعضها إلى الخارج ومضاعفة مواشيهم . وهى تبدو اليوم يامولاى أمير المؤمنين كأرض مقفرة ثم لا تلبث أن تتحول إلى بحر أزرق أو لؤلؤة بيضاء ثم كطمى أسود ثم كبساط أخضر ثم كوشى مختلف الألوان أو كذائب الذهب الأحمر . وحينئذ يحصد قمحها ويضرب لاستخراج الحبوب التى تمر بين أيدى الرجال فيأخذ منهم ماله ويأخذ منهم ما ليس له . وهذه التفاصيل تعود كل عام كل حال فى وقته بأمر الله القادر وقدره : فالحمد لله العظيم وتبارك أفضل الخالقين . أما عن ما هو ضرورى لصيانة هذه الأعمال مما يجعل البلاد أكثر سكانا وأفضل زراعة والمحافظة عليها فى حالة طيبة ودفعها للتقدم لما هو أفضل فحسب ما قال لنا العالمون بأمورها ممن كانوا يمسكون بزمام حكمها بين أيديهم فقد لاحظنا بصفة خاصة ثلاثة أمور أولا هو عدم تقبل الخبيث من القول الذى توجهه الغوغاء ضد أعيان البلاد حسداً منها وجحودا للخير الذى يقدم إليها . والأمر الثانى هو استخدام ثلث الجزية التى تجبى فى صيانة القناطر والطرق ، والأمر الثالث هو ألا تجبى الجزية عن نوع إلا إذا كان فى أوج نضجه . ذلك هو وصف مصر يا مولاى أمير المؤمنين الذى تستطيع منه أن تعرفها كما لو كنت قد

رأيتها بنفسك . ليحفظك الله فى حسن تصرفك ويجعل حكمك لامبراطوريتك سعيداً ويساعدك فى تحمل المسئولية التى فرضها عليك . والسلام عليك والحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه » .

ديانة الدروز[26]

سؤال : هل أنت درزى ؟

جواب : نعم بعون سيدنا ومولانا القدير

سؤال : وما هو الدرزى ؟

---

(26) ديانة الدروز هذه عبارة عن تركيبه من مصادر مختلفة أهمها سيلفستر دى ساس (عرض لديانة الدروز 1838) والديانة التى نشرها الشيقاليه رينو Regnault فى نشرة للجمعية الجغرافية (يناير 1827) ويقال حول تاريخ السباية للبارون دى بوك de Bock 1788 (أنظر ج ريشيه G. Richer بمجلة تاريخ فرنسا الأدبى يناير ــ مارس 1953) وجدير بالذكر أن المكتبة الأهلية تلك مخطوطاً بالعربية عن ديانة الدروز (معرض مرقال 1955 رقم 189) وقد يكون هذا النص هو الأصل الذى ترجمه نرقال لأنه قريب منه . وهذا يحمل على الإعتقاد بأن جيرار قد يكون إستعان كذلك بنصوص عربية . ونذكر فى هذا العدد أنه حكى فى « رحلة إلى الشرق » كيف أنه إرتبط بالصداقة لدى مغادرته لمصر بأرضى إستخدمه بعد ذلك باشا عكا كمترجم (نساء القاهرة 7 ــ 4) .

جواب : هو الذى كتب الشريعة وعبد الخالق

سؤال : وما هو الذى أمرك به الخالق ؟

جواب : الصدق ومراعاة دينه ودين الأحوال السبعة

سؤال : ما هى الواجبات الصعبة التى اعفاك منها المولى وألغاها ، وكيف تعرف أنك درزى حق ؟

جواب : بالبعد عن الحرام وإتيان ما هو حلال

سؤال : وما هو الحرام والحلال ؟

جواب : الحلال ما هو خاص برجال الدين والزراعة والحرام هو ما يتعلق بالأماكن الوقتية والمرتدين

سؤال : متى وكيف ظهر مولانا القدير ؟

جواب : سنة ٤٠٠ من هجرة محمد . وكان يقول وقتئذ أنه من نسل محمد إخفاء لألوهيته .

سؤال : ولماذا كان يريد إخفاء ألوهيته ؟

جواب : لأن ديانته كانت مهملة وكان عدد من يعبدونه قليلا .

سؤال : ومتى ظهر مبديا ألوهيته ؟

جواب : سنة ٤٠٨

سؤال : وكم من الوقت مكث على هذه الحال؟

جواب : سنة ٤٠٨ بأكملها ثم اختفى سنة ٤٠٩ لأنها كانت عام نحس . ثم عاد فظهر فى بداية سنة ٤١٠ وظل ومكث طوال عام ٤١١ وأخيرا فى بداية سنة ٤١٢ اختفى عن الأعين ولن يعود إلا يوم الحساب .

سؤال : وما هو يوم الحساب؟

جواب : هو اليوم الذى يتجلى فيه الخالق بوجه بشر ويحكم العالم اجمع بالقوة والسيف

سؤال : ومتى يحدث هذا؟

جواب : هذا أمر غير معروف . إلا أنه ستكون له دلائل تنبىء عنه

سؤال : وما هى هذه الدلائل؟

جواب : حين يتغير الملوك ويتفوق المسيحيون على المسلمين

سؤال : وفى أى شهر يحدث ذلك؟

جواب : فى شهر دجماز (كذا) وشهر رجب[٢٧] حسب التاريخ الهجرى

(٢٧) رجب كتبها جيرار رجد ـ هنا يضيف جيرار ملاحظة عن النصارى أو الأنصارية والمتولية وأسها شوب من لبنان من مقاطعتى طرابلس وصيدا .

سؤال : وكيف يحكم الله الشعوب والملوك ؟

جواب : سوف يتجلى بقوة السيف ويسلبهم الحياة جميعا

سؤال : وبعد موتهم ماذا يحدث ؟

جواب : سوف يولدون من جديد بأمر القدير الذى سوف يأمرهم بما يشاء

سؤال : وكيف سيعاملهم ؟

جواب : سوف يقسمون إلى أربعة أقسام هى: المسيحيون ـ اليهود ـ المرتدون وعباد الله المخلصون

سؤال : وكيف ينقسم كل دين من هذه الديانات ؟

جواب : المسيحيون سينشأ عنهم مذهب النصارى والمتوليه[٢٨] ، واليهود سوف يخرج منهم الأتراك . أما المرتدون فهم الذين تركوا دين الله .

سؤال : وكيف يعامل الله من يعبدون وحدانيته ؟

جواب : سوف يعطيهم الامبراطورية والملكية والسلطة والأموال والذهب والفضة . وسوف يبقون فى العالم أمراء وباشوات وسلاطين .

سؤال : والمرتدون ؟

---

(٢٨) انظر الملاحظة فى الصفحة السابقة .

جواب : إن عقابهم لفظيع . ويتلخص فى أن غذاءهم حين يريدون أكلا أو شربا يصبح مرا كما أنهم سيصبحون عبيدا ويتعرضون لأقصى المتاعب لدى عباد الله المخلصين. وسوف يتحمل اليهود والمسيحيون نفس ألوان العذاب إلا أنها ستكون أخف كثيرا .

سؤال : كم مرة تجلى فيها مولانا فى صورة بشرية؟

جواب : عشر مرات تسمى « محطات » . والأسماء التى حملها هى على التوالى : العلى ــ البار ــ على ــ المعلى ــ القيم ــ الماص (كذا) ــ العزيز ــ أبو زكريا ــ المنصور ــ الحاكم .

سؤال : وأين كانت أولى المحطات أى محطة العلى؟

جواب : فى مدينة من مدن الهند تسمى رشين ــ مارتشين - Rchine-- ma - Tchine

سؤال : وكم مرة ظهر حمزة وكيف تسمى فى كل مرة ظهر فيها ؟

جواب : لقد ظهر نسبع مرات فى القرون المتتابعة ابتداء من آدم حتى النبى الصامد . وكان فى قرن آدم يسمى شاتنيل chattinl . وفى قرن نوح كان يسمى فيثاغورث . وكان داود هو الاسم الذى حمله فى زمن إبراهيم . وفى زمن موسى باسم شعيب وفى زمن عيسى تسمى باسم المسيح الحق أو لازار وفى زمن محمد كان اسمه سلمان الفارسى . وفى زمن سيد كان اسمه صالح .

سؤال : اخبرنى عن أصل كلمة درزى

جواب : هذا الاسم مشتق من طاعتنا للحاكم بأمر الله ، وهذا الحاكم هو سيدنا محمد بن اسماعيل الذى كان يتجلى نفسه بنفسه ولنفسه . وحين يتجلى كان الدروز بأمره يدخلون فى طاعته مما جعلهم يسمون بالدروز لأن الكلمة العربية اندرز أو اندرج لها نفس معنى دربب darbeb (كذا) ومعناها يدخل . ومعنى ذلك أن الدرزى قد كتب الشريعة وتشبع بها ودخل فى طاعة الحاكم . ويمكننا أن نجد أصلا آخر بكتابة كلمة درزى بالسين وحينئذ يكون أصلها درس يدرس ويكون معنى ذلك أن الدرزى قد درس كتب الحاكم وعبد الله القدير كما ينبغى له أن يعبده .

سؤال : وما هى نيتنا حين نعبد الإنجيل ؟

جواب : لتعلم أننا نريد من ذلك تعظيم اسم ذلك الواقف بأمر الله وهو حمزة لأنه هو الذى نطق بالإنجيل . وعلاوة على ذلك فمن الملائم أن نعترف بديانة كل أمة . فنحن نعبد الإنجيل لأن هذا الكتاب يرتكز على الحكمة الإلهية وأنه يحمل العلامات الأكيدة للدين الحق .

سؤال : ولماذا نرفض أى كتاب آخر غير القرآن حين نسأل فى هذا الموضوع ؟

جواب : لأننا فى حاجة إلى ألا نعرف على ما نحن حين نوجد وسط معتنقى

مذاهب الإسلام . فمن المناسب إذن أن نعترف بكتاب محمد . ولكى لا يساء الحكم علينا اعتنقنا جميع الشعائر الإسلامية بما فيها الصلاة على الموتى وكل هذا فى الظاهر فقط حتى نظل مجهولين .

سؤال : وماذا نقول عن هؤلاء الشهداء الذين يمجد المسيحيون كثيرا شجاعتهم وكبر عددهم ؟

جواب : نقول ان حمزة لم يعترف بهم قط حتى ولوكان جميع المؤرخين قد شهدوا بوجودهم .

سؤال : ولكن إذا أتى المسيحيون وقالوا لنا إن دياناتهم ليست موضع شك لأنها تستند إلى براهين أقوى وأكثر مباشرة من أقوال حمزة فبماذا نجيب ، وكيف اعترفنا بعدم قابلية وقوع حمزة فى الخطأ ، هذا العمود من أعمدة الحق الذى يأتينا السلام عن طريقه ؟

جواب : بالشهادة التى أدلى بها هو نفسه عن نفسه حين قال فى قصيدة باب الحكم والدفاع : « إنى أولى خلق الله . إنى صوته ومقصده ، وإن لى العلم بأمره . إنى القلعة والبيت المشيد إنى سيد الموت والبعث ، إنى من سينفخ فى السور وإنى سيد الكهنوت وسيد النعمة الإلهيه ، البانى والهادم للعدالات ، إنى ملك العالم وهادم الشهادتين إنى النار الملتهمة »

سؤال : وما هو الدين الحقيقى للقساوسة الدروز ؟

جواب : إنه ضد كل عقيدة لأية أمة أخرى أو قبيلة وكل ما هو حرام لدى الآخرين نعتقد نحن فيه كما ذكرنى باب « الخديعة والنذير » .

سؤال : ولكن إذا تعرف شخص على ديانتنا واعتقد فيها وسار بمقتضاها فهل ينقذ ؟

جواب : أبدا : فالباب مغلق وانتهى الأمر وكسر القلم . وبعد الموت سوف تلحق روحه بأمته الأولى وديانته الأولى .

سؤال : ومتى خلقت جميع الأرواح ؟

جواب : خلقت بعد الحبر حمزة بن على . فبعده خلق الله من النور جميع الأرواح وعددها محدد لا ينقص ولا يزيد حتى نهاية القرون .

سؤال : وهل ديننا العظيم يقر مبدأ السلام بالنسبة للنساء ؟

جواب : بلا شك لأن مولانا قد كتب فصلا عن النساء ولقد أطعن لغوهن كما هو مذكور فى باب قانون النساء وكذلك فى باب البنات .

سؤال : وماذا نقول فى بقية الأمم التى تؤكد أنها تعبد الله خالق السماء والأرض ؟

جواب : مهما قالوا ذلك فهو قول خاطىء مهما عبدوه حقا وإذا كانوا يعرفون أن المولى هو الحاكم نفسه فإن عبادتهم خرق للدين .

سؤال : من من القدامى علم حكمة الخالق إلى هؤلاء الذين أقروا أسس ديانتنا ؟

جواب : إنهم ثلاثة وأسماؤهم هى : حمزة واسماعيل وبهاء الدين

سؤال : وإلى كم قسم ينقسم العلم ؟

جواب : إلى خمسة أقسام : قسمان منها ينتميان إلى الدين واثنان آخران للطبيعة . أما الجزء الخامس وهو أكبرها جميعا فلا ينقسم إطلاقا . إنه العلم الحقيقى ، علم الحب والله .

سؤال : كيف نعرف أن هذا الرجل أو ذاك أخ لنا يرعى الدين الحق إذا ما صادفناه فى الطريق أو إذا اقترب منا وهو يمر بنا وقال إنه درزى ؟

جواب : هو ذاك : بعد المجاملات العادية نقول له : « هل يزرعون فى بلادك حبوب الأهليلج (نبات هندى ذو ثمر) ؟ » فإذا أجاب قائلا : نعم إنهم يزرعونه فى قلب المؤمنين » حينئذ نسأله عن دياناتنا ؛ فإذا رد ردوداً صحيحة فهو مواطن لنا وإذا لم يفعل فهو ليس إلا غريبا

سؤال : ومن هم آباء دياناتنا ؟

جواب : إنهم أنبياء الحاكم وهم : حمزة وإسماعيل ومحمد والكليم وأبو الرهير[٢٩] وبهاء الدين

(٢٩) ربما يقصد أبا هريرة (المترجمة) .

سؤال : وهل الجهلاء من الدروز يحصلون على السلام من قبل الحاكم أو يكون لهم عمل معين لديه إذا ماتوا وهم فى هذه الحالة من الجهل ؟

جواب : ليس ثمة سلام بالنسبة لهم على الإطلاق وسوف تضرب عليهم الذلة والعبودية لدى مولانا إلى خلود الخلود .

سوءال : وماهو دوماسا Doumassa ؟

جواب : إنه آدم الأول ، إنه أرخنور ARkhnour ، إنه هرمس ، إنه إدريس ، إنه يحيى ، إنه إسماعيل بن محمد التيمى ، وفى عصر محمد بن عبد الله كان يسمى بالمقداد

سؤال : وماهو القديم والخالد ؟

جواب : القديم هو حمزة والخالد هى الروح أخته .

سؤال : وماهى أقدام الحكمة ؟

جواب : إنهم المبشرون الثلاثة

سؤال : ومن هم ؟

جواب : يحيى ومرقص ومتى

سؤال : وكم من الوقت ظلوا يبشرون ؟

جواب : احدى وعشرين سنة بشر كل منهم منها سبع سنوات .

سؤال : وماهى هذه الأبنية فى مصر التى يسمونها الأهرام ؟

جواب : هذه الأهرام بناها الله القدير لبلوغ غرض مملوء بالحكمة عن له فى قدرته الإلهية .

سؤال : وماهو هذا الغرض المملوء بالحكمة ؟

جواب : هو أن يحتفظ فيه إلى يوم الحساب حيث تكون أوبته الثانية ، بالحجج والإبراءات التى حصلت عليها يده الإلهية من جميع المخلوقات .

سؤال : ولأى سبب تجلى لدى كل قانون جديد ؟

جواب : لإشعال الحماس فى عبيد دينه الحق حتى يثبتوا عليه و يعلموا أنه هو الذى يغير بإرادته العدالة وحتى لا يؤمنوا بأحد غيره .

سؤال : وكيف تعود الأرواح إلىٰ الأجسام ؟

جواب : كلما يموت رجل يولد آخر وهكذا نشأ العالم .

سؤال : وكيف يسمى المسلمون ؟

جواب : التنزيل

سؤال : والمسيحيون ؟

جواب : التأويل . وهاتان التسميتان يعنيان بالنسبة للمسيحيين أنهم فسروا أقوال الإنجيل ، وبالنسبة للمسلمين القول الشائع بأن القرآن نزل من السماء

سؤال : وماهى إرادة الله فى خلق الجن والملائكة الذين تحدث عنهم كتاب الحكمة لحمزة ؟

جواب : الجن والأرواح والشياطين مثلها مثل نظرائها من البشر الذين لم يستجيبوا لدعوة مولانا الحاكم . والعفاريت هى أرواح أمام المجسدين . أما الملائكة فيجب أن نتمثلهم كالعباد الحقيقيين لله الذين لبوا دعوة الحاكم وهو المولى الذى يعبد فى جميع ثورات العمر

سؤال : وماهى ثورات العمر ؟

جواب : إنها عدالة الأنبياء الذين ظهروا الواحد تلو الآخر واعترف بهم معاصروهم بنبوتهم مثل آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسيد . وكل هؤلاء الأنبياء ما هم إلا روح واحدة مرت من جسد إلى آخر ، وهذه الروح وهى الشيطان الحارس اللعين لابن ترماح Ebn " Termahh وكذلك شيطان آدم العاصى الذى طرده الله من الجنة أى أن الله حرمه من التعرف على وحدانيته .

سؤال : وكيف كان استخدام الشيطان لدى مولانا ؟

جواب : لقد كان عزيزا عليه إلا أنه شعر بالغرور ورفض طاعة الوزير حمزة ولذلك فقد لعنه الله وطرده من الجنة .

سؤال : وما هم هؤلاء الملائكة الذين يحملون عرش الله ؟

جواب : هم الخمسة الأوال الذين يسمونهم : جبريل وهو حمزة وميكاييل وهو الأخ الثانى وإسرافيل سلامة ابن عبد الوهاب ، وعزرائيل بهاء الدين ، ومتاترون على ابن أحمد وهؤلاء هم الوزراء الخمسة الذين يسمون بالسابق والثانى والجسد والرثة ElRathh[٣٠] والفيال[٣١] . ElFhial

سؤال : وماهى النساء الأربع ؟

جواب : إن اسماءهن هى : اسماعيل ومحمد وسلامة وعلى وهن : الكلمة والنفس وبهاء الدين وأم الخير .

سؤال : وماهو الإنجيل الذى أنزل على المسيحيين وماذا نقول نحن عنه ؟

جواب : إن الإنجيل قد صدر حقا من فم الله مولى المسيح الذى كان اسمه سلمان الفارسى فى عصر محمد . والمسيح هو حمزة ابن على . أما المسيح الدجال فهو الذى ولدته مريم لأن هذا المسيح هو ابن يوسف .

---

(٣٠) جيرار يشرح هذه الكلمة على أن معناها الفتحة .

(٣١) جيرار يشرح هذه الكلمة على أن معناها الفارسى وربما يقصد الخيال .

سؤال : وأين كان المسيح الحقيقى حين كان هذا مع حوارييه ؟

جواب : كان بين هؤلاء الحواريين . وكان يعلم الإنجيل ويعطى التعليمات للمسيح ابن يوسف ويقول له : « افعل هذا وذاك طبقا لتعاليم الدين المسيحى وكان ابن يوسف يطيعه . ومع ذلك فقد أضمر اليهود الكراهية للمسيح الدجال وصلبوه .

سؤال : وماذا حدث بعد صلبه ؟

جواب : لقد وضعوه فى قبر . وأتى المسيح الحقيقى وأخفى الجسد من القبر ودفنه فى الحديقة ثم أشاع أن المسيح قد بعث حيا .

سؤال : ولماذا تصرف المسيح الحقيقى بهذه الطريقة ؟

جواب : للإبقاء على الدين المسيحى ومنحه القوة .

سؤال : ولماذا حبذ الكفر كذلك ؟

جواب : حتى يستطيع الدروز أن يتخفوا تحت غطاء من الدين المسيحى فلا يعرف أحد أنهم دروز .

سؤال : ومن هو الذى خرج من القبر والذى عاد إلى الحواريين والأبواب مغلقة ؟

جواب : إنه المسيح الحى الذى لا يموت أبداً وهو حمزة .

سؤال : وكيف حدث أن المسيحيين لم يتحولوا إلى دروز ؟

جواب : لأن الله أراد ذلك .

سؤال : ولكن كيف يقبل الله الشر والكفر؟

جواب : لأن عادته المستديمه هى أن يصلح البعض ويهدى البعض الآخر كما قيل فى القرآن « أعطى الحكمة لمن يشاء وحرم منها من يشاء »[٣٢]

سؤال : ولماذا أمرنا حمزة بن على بإخفاء الحكمة وعدم كشفها ؟

جواب : لأنها تحتوى على أسرار وإبراءات مولانا ولا ينبغى أن يكشف لأحد عن أشياء يكمن فيها سلام الأنفس وحياة الأرواح .

سؤال : إننا إذن مصابون بالأثرة إذا كنا لا نريد الخلاص للجميع ؟

جواب : ليس ثمة أثرة فى ذلك على الإطلاق لأن الدعوة غير قائمة ، والباب مغلق والكافر هو الكافر والمؤمن هو المؤمن وكل شىء كما ينبغى أن يكون .

والصيام الذى تقرر منذ القدم قد ألغى ولكن إذا صام الرجل فى غير الوقت المحدد لذلك وعذب نفسه بالصيام فإن ذلك أمر حميد لأنه يقربنا من الذات الإلهية .

سؤال : لماذا ألغيت الصدقة؟

---

(٣٢) هذه بالطبع هى أقوال جبرار وليست آية من القرآن .

جواب : ان الصدقة لدينا نحو إخوتنا الدروز مشروعة ، إلا أنها جريمة بالنسبة لأى أحد آخر ولا يجوز ارتكابها

سؤال : وماهو الغرض الذى يبغى المنعزلون الذين يعذبون أنفسهم بلوغه

جواب : هو أن يستحق كل منهم حين أوبة الحاكم أن يعطيه وزارة أو ولاية أو حكومة كل حسب عمله .

أسطورة سليمان

لا ينبغى أن ندهش للاتجاه الفلسفى ، وإذا شئنا ، الفولتيرى لهذه القصة . فإن أغلب القصص العربى والفارسى قد تشكل بهذه الروح ، بل غالبا ما تؤخذ الأمور الغريبة على محمل الجد : ومثال ذلك أننا نجد فى سوريا آثارا عديدة للديانة القابيلية أو ديانة أبناء قابيل(٣٣) .

ولقد هاجم القرآن فى مواقع عديدة غرور سليمان وارتكابه المحرمات فى الفترة الأخيرة من حكمه(٣٤) . وغنى عن الذكر أن بعض أجزاء تاريخ التوراة تتخذ آفاقا جديدة بمرورها عبر العبقرية العربية . وربما لا يدرك الأوربيون إلا بصعوبة ما يقصده الشرقيون بالأجناس قبل الآدمية . فهم يفترضون أن الأرض قبل أن تصبح ملكا للإنسان كان يسكنها لمدة سبعين

---

(٣٣) لا سيما لدى اليزيديين (ملاحظة جبرار) .

(٣٤) لا يذكر القرآن سليمان إلا بالتقدير الكبير وتلك الملاحظة من عنديات جبرار .

ألف عام الأجناس الأربعة التى خلقت فى بدء الخليقة حسب ما ورد فى القرآن «من مادة سامية دقيقة ومضيئة»[٣٥] .

وهذه الأجناس الديف[٣٦] Les Dives والجن والعفاريت والبيرى[٣٧] التى تنتمى أصلا للعناصر الأربعة مثلها فى ذلك مثل حوريات الماء والأقزام من ساكنى بطن الأرض وجنيات الهواء والسمندل كما وردت فى أساطير الشمال . وثمة عدد كبير من القصائد الشعرية الفارسية تتحدث عن التاريخ التفصيلى للأسر الحاكمة قبل الآدمية .

فبعد أن ترك الله هذه الشعوب البدائية تحتل الكرة الأرضية لمدة تزيد عن اثنى عشر ألف من السنين وتعب من مشهد حروبها وغرامياتها وانتاج عبقريتها الهشة أراد أن يخلق جنسا جديداً يتصل بالأرض اتصالاً وثيقا ويحقق بشكل أفضل التزاوج العسير بين المادة والروح . ولذلك قيل فى القرآن : «لقد خلقنا آدم جزءا من الأرض الرملية وجزءا من الطين . ولكن بالنسبة للجن فقد خلقناها وشكلناها من نار حامية جداً» .[٣٨]

---

(٣٥) ذلك النص الذى يدعى جبرار أنه من القرآن من اختلاف مخيلته .

(٣٦) جنس أسطورى تنسب إليه القداسة .

(٣٧) جنيات أسطورية فارسية قابلة للتشكل بمختلف الأشكال .

(٣٨) هذه الآية من اختلاف جبرار .

ولذا فقد شكل الله قالبًا يتكون أساساً من هذا الرمل الدقيق الذى اتخذ من لونه اسما لآدم (اللون الأحمر) . وحين جف الوجه عرضه على أنظار الملائكة وجنس الديف المقدس حتى يقول كل رأيه فيه . وأتى إبليس . الذى يسمى كذلك أزازل . وهو نفسه الشيطان لدينا . أتى يلمس النموذج وضربه على بطنه وعلى صدره ولاحظ أنه أجوف . فقال : «هذا المخلوق الأجوف سوف يتعرض للإمتلاء ، وللإغراء طرق كثيرة للولوج إليه» . ونفخ الله الحياة فى خياشيم الإنسان وأعطاه رفيقه هى ليليت المعروفة التى تنتمى إلى جنس الديف . وقد أصبحت فيما بعد . وبناء على نصيحة إبليس . خائنة . وقطعت رأسها .

وأدرك المولى أنه أخطأ بإدماج طبيعتين مختلفتين فقرر أن يستخلص المرأة هذه المرة من ذات المادة المكونة للرجل . فأغرق الرجل فى سبات عميق وأخذ ينتزع أحد ضلوعه كما ورد فى الأسطورة التى نعرفها .

وهنا ترد قصة على شىء كبير من الطرافة . فبينما الله مشغول فى إغلاق الجرح وتحولت عيناه عن الضلع الثمين الذى وضعه على الأرض بجانبه . أتى قرد . أرسله إبليس . فالتقطه بسرعة واختفى فى أعماق الغابة المجاورة . وتضايق الخالق من هذه الدعابة السمجة . وأمر أحد ملائكته بملاحقة الحيوان . وتوغل الحيوان بين أغصان متزايدة الكثافة . وتمكن الملك من الإمساك بذيله . إلا أن الذيل انفصل وبقى فى يده وكان هذا هو كل ما استطاع العودة به إلى سيده وسط الضحكات المتعالية للجمع . ونظر الخالق إلى هذا الشىء بشىء من الامتعاض وقال : «لا عليا .

ما دمنا لا نملك شيئا آخر سوف نحاول التصرف » . وربما يكون قد خضع دون تفكير لاعتزاز الفنان بفنه فحول ذيل القرد إلى مخلوقة جميلة من الخارج ولكنها من الداخل مليئة باللؤم والخسة .

ترى أنكتفى فى تلك القصة بسذاجة الأسطورة البدائية أم نجد فيها نوعاً من السخرية الفلسفية التى ليست غريبة على الشرق ؟ وربما كان من المستحسن ، من أجل تفهمها أن نرجع إلى عصور التطاحن الأولى بين أديان التوحيد المختلفة التى كانت تنادى بسقوط منزلة المرأة وذلك تعبيرا لكراهية تلك الأديان للديانة السورية متعددة الآلهة التى كان المبدأ السائد فيها هو سيطرة المرأة التى كان اسمها على التوالى استارتيه Astarte وديكريتو Decrto وميليتا Mylitta .

وترجع تلك الأديان المصدر الأول للشر والخطيئة إلى ما قبل حواء نفسها ، إلى أولئك الذين رفضوا فكرة الله الخالق الأوحد دواماً . وتتحدث عن جريمة كبيرة ارتكبتها الزوجة الإلهية القديمة لدرجة أن عقابها عليها اهتز له الكون وحرم على أى ملك أو مخلوق أرضى أن ينطق باسمها أبداً . ولا تحتوى المعلومات الغامضة عن نشأة الكون الأولى على شىء أكثر هولا من هذا الغضب الإلهى الذى حطم كل ذكرى لأم العالم .

وتمتلىء آلاف من الأساطير العربية بهذه المفاهيم الغريبة التى اشتملت على طائفة كبيرة من الكفر . وقصة آدم وحواء هى قصة طويلة من قصص المعارك التى خاضها الرجل الأول ضد جنس الديف الذى كان ينافسه على ملك الأرض ، وقد هزم آدم آخر أباطرتهم مما حقق له الخضوع التام

لجميع الأجناس قبل الآدمية .

وفى أحد أروقة جبل قاف تجمعت صور الأباطرة السبعين أو السلمانيين الذين حكموا قبل خلق الإنسان . وأقدمها بشعة الشكل ولاعلاقة لها ببعض سلالات الحيوانات . وربما يكون علم تسلسل الآلهة لدى العرب قد استقى فكرة هذه المخلوقات الأسطورية من أشكال الآلهة الهندية والأشورية والمصرية . ويمكننا أن نرجع فى جميع تلك النقاط إلى المكتبة الشرقية لهربلو Herbelat .

يلاحظ كاتب أحد الكتب التى ظهرت حديثا (١٨٥١) عن تركيا . السيد أوبيسينى Ubicini . بحق أنه رغم اختراع السفن البخارية والتقدم الإحصائى الحديث فإن معرفتنا بالشرق ليست أكثر وضوحاً اليوم مما كانت عليه خلال القرنين الماضيين أو من المؤكد أنه وإن كان عدد المسافرين إلى الشرق قد زاد فإن العلاقات التجارية التى كانت قائمة فيما مضى بين مقاطعاتنا الجنوبية ومدن الشرق قد ضعفت كثيراً والسواح العاديون لا يقيمون مدة طويلة تتيح لهم التغلغل إلى أسرار المجتمع الذى تخفى عاداته وتقاليده بعناية على النظرة السطحية لأى مسافر . كما أن النظم التركية قد تغيرت تماماً ابتداء من المؤسسة الحديثة التى تسمى « التنظيمات » والتى حققت الانجاز الذى طال انتظاره فى هاتى - شريف فى قصر جول هانه[39] . فتركيا اليوم تعيش آمنة فى ظل حكومة نظامية مبنية على المساواة

---

(٣٩) هذا الإسم هو إسم فناء قصر السلطان فى القسطنطينية حيث وقع الأمر بالتصديق على جملة =

المطلق بين مختلف رعايا الامبراطورية[٤٠] .

إن الخطابات وذكريات الرحلة التى جمعت فى هذين الجزءين وكانت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى جزأين لم تكن سوى سردًا لمغامرات حقيقية ولذا فلم تستطع أن تعطى القارىء اتجاه بانتظام الحدث والعقدة وحلها كما يحدث فى الأشكال القصصية . والواقع لا يعطى أكثر من حقيقته . ولذا فقد بدا الجزء الأول من هذا الكتاب كما لو كان يستقى نجاحه أساساً من الإثارة التى أحدثتها قصة الجارية الهندية التى اشتريتها فى القاهرة من الجلاب عبدالكريم . إن الشرق أقرب إلينا مما نتصور . ولما كانت تلك الفتاة مازالت على قيد الحياة فقد كان لابد من تغيير اسمها فى القصة المنشورة . وهى الآن متزوجة فى إحدى مدن

---

* الإصلاحات التى سميت بـ « تنظيمات خيرى » (٣ نوفمبر ١٨٣٩) هذه هى أحدث الأرقام التى يمكن تطبقها على الوضع فى الامبراطورية التركية :

(٤٠) الجنس العثمانى ١١٫٧٠٠٫٠٠٠ نفس .
أما الشعوب الأخرى بمختلف أجزاء الإمبراطورية من يونانيين وسلافيين وعرب وأرض ألخ فيكون عدد رعايا الإمبراطورية وهم ٣٥٫٣٥٠٫٠٠٠ نفس . وسكان القسطنطينية يبلغ عددهم ٧٩٧٫٠٠٠ منهم ٤٠٠٫٠٠٠ من المسلمين والباقى يتكونون من أرض ويونانيين الخ .. وميزانية الدولة هى ١٦٨ مليوناً .
ويتكون الجيش النظامى من ١٣٨٫٦٨٠ جندياً قد يصل عددهم بالإحتياطى إلى أكثر من ٤٠٠٫٠٠٠ رجل (ملاحظة جيرار) . وهذه الأرقام مستقاه من « خطابات من تركيا للكاتب أوبيسينى التى نشرت فى المونيتور بينما كان جيرار دى نرفال يعد الطبعة النهائية لرحلة إلى الشرق (١٨٥٠ ـ ١٨٥١) .

سورية ويبدو أنها تنعم بالاستقرار والسعادة . والمسافر الذى ألقى نفسه ، دون تفكير منه ، يغير مكان حياة هذه الإنسانة لم يهدأ بالاً بالنسبة لمستقبلها إلا بعد أن علم أن مصيرها الحالى من اختيارها وحدها . وقد ظلت تلك الجارية على الدين الإسلامى رغم أن ثمة جهوداً بذلت لتحويلها إلى الأفكار المسيحية . ولن يستطيع الفرنسيون بعد اليوم شراء الجاريات من مصر فلن يجازف أحد اليوم بأن يلقى بنفسه فى مضايقات تجر عليه شيئا من المسئولية المعنوية .

على هامش رحلة إلى الشرق

نقوم هنا بجمع بعض النصوص التى وإن كانت لا تتصل اتصالاً مباشراً « برحلة إلى الشرق » إلا أنها توضح بعض الأسباب التى دفعت جيرار إلى الاهتمام بالشرق أو سوف نلاحظ فى تلك النصوص ظهور تلك الموضوعات الخفية أو الشاعرية التى لم تكن تلاحقه (مثل القابيلية) . وفى نفس الوقت سوف نرى إلى أى حد تقترب « رحلة إلى الشرق » من الأحلام لدرجة أنها لم تلبث أن بدت وكأنها انحدار لهذه الأحلام ، وتلك التجربة هى التى جعل منها مارسيا بروست فيما بعد نقطة انطلاق « بحثه عن الزمن الضائع » . كما لم يلبث أن ظهر الشرق الساحر وموضع تعلق الكثير من الرومانسيين ، ظهر خداعاً ومخيبا للآمال بحيث يحتاج إلى إعادة تقييمه باللجوء إلى مختلف مصادر الأدب والأحلام .

وحينئذ لاشك أننا سندرك بطريقة أفضل لماذا كانت القصة الخالصة لرحلة إلى الشرق ، التى خضع فيها جيرار كثيرا لتأثير الرومانسية كما

أوحى له شيطان الأدب النابع فى نفسه ، قد تغيرت واستبانت معالمها بفضل تلك القصص الشاعرية القريبة التى يتخذ وجودها فى السرد قيمة رمزية .

ولن تجد هنا النص الكامل لمذكرات رحلة إلى الشرق التى نشرها لأول مرة بيير مارتينو Pierre Martino فى مجلة الأدب المقارن Revue de btterature Comparee (يناير - مارس ١٩٣٣) والتى أعاد الناشران بيجن وريشيه Beguin et Richer نشرها فى مكتبة لابلياد Bibbiotheque la Bleiade (فى جزئين سنة ١٩٥٦) . ولقد رأينا أن نشر نص جزئى كمستند بدون أى إعداد لا يتفق مع روح هذه الطبعة التى تعنى بألا تقدم للقارىء إلا مؤلفات بالمعنى الأدبى الخالص للكلمة . ومع ذلك فلم نقصر فى الرجوع عند الاقتضاء إلى هذا المستند فى مقدمتنا وفى ملاحظاتنا الهامشية وإنا لنقدم منه هنا بعض المقتطفات المميزة .

- ١ -

ديوراما [٤١]

إن أشد ما جذب جمهور المسرح هذا الأسبوع هو اعادة افتتاح الديوراما وعرض المسرحية القوية الجديدة ، مسرحية الطوفان وهى مسرحية خيالية فى استعراض كبير . ويقوم بتمثيلها العناصر الأربعة الهواء والماء والتراب والنار ، تلك الشخوص العتيقة التى تحولت فى العصور الحديثة إلى كائنات أسطورية تتصارع من أجل السيطرة على العالم فنراها تندفع خلال فصول المسرحية الأربعة فى رباعى مروع ومثير للغاية . إلا أن طبيعة الموضوع نفسها تعطى للماء الدور الرئيسى ، عنصر الرطوبة الهائل

---

(٤١) ظهر هذا النص فى مجلة الأرتيست EL Artiste (١٥ سبتمبر ١٨٤٤) بعد عودة جيرار من الشرق ببضعة أشهر . وكان بوتون وداجير Bouton de Daguerre قد أخترعا الديوراما وحققت نجاحاً كبيراً . وهى تشكل تحسيناً للبانورامات التى كانت منتشرة فى بداية هذا القرن وتعد من العناصر السابقة للسينما والتى أعدت لها .

الذى جعل منه طاليس مصدر وغاية كل شىء والذى يهدد بإفناء الخليقة التى ما زالت شابة والقضاء على الأجناس الحية فيما عدا الأسماك وحدها .

وقد كان الموقف خطيرا وكم كان بودنا أن نعرف ماذا يقول باريسيو الغد لو تجددت تلك الظاهرة بالنسبة لنا ، وكما حدث لسكان مدينة إينوك الهادئة حين تمر مع المطر من الطل إلى الوابل إلى الشلالات التى عرضها علينا مسيو بوتون فى تلك اللوحة !

إن مدينة إينوك أو هينوك السابقة للطوفان ، مدينة الخبائث الأولى التى لا تذكر عنها التوراة إلا كلمة واحدة قد بناها قابيل وسماها باسم ابنه . ولا ينبغى أن نخلط بين هذا الابن وبين هينوك الآخر ، حفيد ست ، الذى يسميه الشرقيون إدريس والذى يشترك مع إيليا ودلشيزويك فى ميزة الاختفاء من الأرض بدون موت . وكانت مدينة هينوك هى أهم مقر هذا الجنس المهجن الذى فاق ظلمه ظلم البشر ، ومازلنا نجهل ما إذا كانت تلك الكائنات الغريبه من انتاج الملائكة أم الشياطين باختلاطها ببنات البشر .

فالنص ليس واضحا فى هذا الصدد والتراجم تتغير حسب عقائد من قاموا بها . فنجد فى العبرية بنى إلوام Bnieloim وبنى معناها أبناء وإلوام معناها الآلهة ، وهذا هو ما يراه فيلون Philon والغنوصيون (من يبحثون فى تكوين الآلهة) والقابليون (العالمون ببواطن التوراه) ، وهذا هو ما يراه كذلك كورت دى جبلان Court de gebelin وفابر دوليفيه Faler d Olivet ولاكور Lacour مؤلف الكتاب المثير الذى يسمى

« إلوام أو آلهة موسى » Eloim ou les Dieux de moise . ومن أجل تفسير تلك الآية التي تحتاج لدقة متناهية افترض البعض أن اسم الوايم Eloim أي « من الآلهة » كان يطلق على الأرواح الرئيسية وكذلك على الله الأعلى الذي يسمى كذلك أدوناي . ويرى البعض الآخر أن هذا الاسم يطلق على الله القدير بصفته شخصية متعددة حينما ادعى فريق آخر أن موسى كان يعتقد في تعدد الآلهة ما دام لا يذكر الخالق أبداً إلا في صيغة الجمع . وهذا الفريق يرى أن « الإلوام » هم آلهة آمون المصورة على الآثار المصرية على أنها هي التي قامت بعجن وتشكيل الخليقة كلها بناء على أمر أول إله فيهم .

ولم تقم الكنيسة قط ، على الأقل كنيسة روما ، بالتصديق على هذه الخزانات الكافرة . ولقد انغمست في الغرور الكهنوتي حين ترجمت الجمع بالمفرد فقالت : « إن ابناء الله حين رأوا بنات البشر جميلات اتخذوا ممن أحببنهن منهن زوجات » وتقول التفسيرات الكنيسة إن ابناء الله « بالمفرد » هم جنس هابيل وأن البشر هم أبناء قابيل[42] . إلا أن هذا

(٤٢) انظر سفر التكوين (١٠٦ ـ ٢) ولنرجع هنا إلى تفسير آخر ترجمة رومانية للتوراه ، توراة أورشليم (انظر دى سير Ducrf ، باريس ١٩٥٦) « إنه جزء صعب رجع فيه الكاتب المقدس إلى أسطورة شعبية عن العمالقة الذين خلقوا من التزاوج بين نساء فانيات من البشر وبين مخلوقات سماوية .. وترى اليهودية التي تلت ذلك وجميع الكتاب الكنسيين في أبناء الله هؤلاء ملائكة مذنبين . ولكن إبتداء من القرن الرابع بدأ الأحبار بالإجماع يفسرون أبناء الله على أنهم سلالة ست وبنات البشر مثل سلالة قابيل » . أما عن الجمع في كلمة

الجنس يصدر عنه مجرد رجال ونساء فكيف نفسر إذن الآية التالية التى تقول إن هذه الروابط قد نتج عنها العمالقة ؟ وقد ترجم البروتستانتيون أبناء الله بالملائكة ونحن ندين لهذا التفسير **بغراميات الملائكة** لتوماس مور و « بقابيل » Cain للورد بايرون .

وهذه التفاصيل مهما بدت غريبة فلا نعتقد أنها وصفت فى غير مكانها المناسب لا من وجهة نظر النقد ولا من وجهة نظر الفن . فالرسم والشعر يعيشان على هذه القضايا التى يتوجه فيها العقل البشرى فى ارتياع إلى القصص القديم يستفسره . ومن بين الكتب المزيفة عن التوراة ثمة كتاب يسمى « **كتاب إينوك** » وهو الذى ندين له « بالفردوس المفقود » لميلتون و « سقطة الملاك » للامرتين . وهو ليس إلا قصة النضال بين الأرواح الثائرة ضد الله القادر الذى تساعده جوقاته المقدسة . ويقص الأب كيرشيه Kircher جزءا كبيرا من ذلك الكتاب مترجما إلى اليونانية واللاتينية . وهو مصدر ينبغى للرسامين الذين يعالجون موضوعات دينية أن يرجعوا إليه . ولو أن مسيو بوتون قد تصور أن أنصاف الآلهة قد ساهموا فى بناء مدينة إينوك فربما كان ذلك يدفعه إلى إعطائنا مشهدًا أكثر تعقيدا وأكثر روعة . وبفضل معرفة لامرتين للمصادر الدينية فقد جعل من

= Elohim فتفسر اليوم بالإجماع على أنها اللانهاية متعددة الجوانب لله الواحد والجدير بالملاحظة أن ثمة إتفاق على أن التوراه تجمع بين شكلين تقليديين من أشكال التوحيد اليهودى يرمز إلى كليهما باسم الله وهما التقليد اليافسى Yahviste وتقليد الإلوى Elahiste اللذين يبرزان أحدهما شخصية الله والآخر لا نهاية الله

سكان مدينة إينوك أناساً أكثر تقدماً منا أنفسنا فيما يختص بروائع الحضارة . فقد توصلوا حتى إلى فن الملاحة الجوية التى يشرح الشاعر فنها العبقرى[٤٣] . وفى هذا المجال الحق يتحول الإنسان إلى إله لمهارته وفنه فيوقفه الله ويبين له أن الإنسان لا ينبغى له أن يرتفع إلى الله إلا بالروح والحب[٤٤] .

ومع ذلك فقد شيد مسيو بوتون مدينة غريبة بالقدر الكافى وذات طابع بدائى أسطورى جميل . فهى تمتد بشكل رائع فى واد شاسع وتغمس فى الأفق أقدامها المرمرية فى البحر . وثمة سور كبير ذو باب شاهق مبنى بلا ملاط يحيط بالمدينة الشيطانية حيث نشاهد هنا وهناك المسلة والهرم . وتنتشر القصور الشاهقة يمينا ويسارا وإلى اليسار نرى قنطرة مهدمة . ولاريب أنها فكرة شاعرية تلك التى جعلته يظهر الأطلال فى مدينة ناشئة . ومما يثير الانتباه بصفة خاصة هو بناء شاسع لم يتم ، وهو المحاولة الأولى لبناء الأبراج البابلية التى تكاد ترتفع بحلزوناتها إلى السماء[٤٥] .

---

(٤٣) انظر سقطه الملك Chute dun Onge .

(٤٤) ثمة شىء ما يذكرنا هنا بالقابيلية التى إهتم بها جيرار كثيراً أو بعقدة الذنب التى تلعب دوراً هاماً فى قصته Ceurelia .

(٤٥) كان موضوع المدينة الأسطورية شائعاً فى الوقت الذى كان جيرار يكتب فيه هذه السطور . فكتب عنه بيكفور Beckford وصورة جون مارتن فى كثير من لوحاته التى تمثل بابل (وهى

ويتغطى الأفق تدريجيا وتأخذ السحب لونا داكنا وتصبغ بلمحة حمراء ، ويلمع البحر بتأثير أشعة الشمس البالغة فى الغروب ، وتسيل المياه على الجدران وتمتلىء الميادين والشوارع بمياه فائرة تلهبها العاصفة بسياطها . وتمتلىء الأفنية فتفيض مياهها من فوق أسوارها كما لو كانت أوان امتلأت عن آخرها ، ويلجأ السكان إلى الأسطح والأبراج والجبال ثم يختفى كل شىء تحت كثافة السحب وأعمدة الماء المعتمة التى تغطى السحب محدثة ضوضاء شديدة .

وثمة حادث حرمنا من المشهد الثالث الذى يمثل اللوحة الهادئة للطوفان والسفينة العائمة فوق الماء . ثم تم إصلاح العطب ولن يفقد الجمهور شيئا . أما المشهد الرابع فنرى فيه الأرض وقد انحسر عنها الماء جزئيا ومازالت رطبة(٤٦) وقد عجنتها وشققتها المياه وهى تنحسر وتترك وراءها القواقع والمخلفات . وجثت أسرة نوح على قمة جبل أرارات وشاهدت قوس قزح علامة العفو السماوى يخط قوسه الشاسع على الضباب الأخير للطوفان .

= لوحات معروفة وواسعة الإنتشار نرى فيها برج بابل . ولم يكن جيرار يجهلها وقد تحدث عنها الكسندر دوماس فى الكونت دى مونت كريستو) بل لقد أثر هذا الموضوع فى بناء المدن الحديثة وهى أحد مصادر الطراز البابلى الذى لفت نظر جيرار فى أحد أسفاره إلى لندن .

(٤٦) ربما كان ذلك هو مصدر البيت المشهور لفيكتور هوجو فى مقطوعته المعروفة « بوعز النائم » ... الأرض ... كانت ما تزال مبلله ورطبه من الطوفان ... » .

وإن الملاحظة الوحيدة التي يمكن أن نوجهها لمسيو بوتون هي أنه جعل شخوصه أطول مما ينبغى لا سيما فى اللوحة الأخيرة . فإن الإنسان من التفاهة على هذه الأرض بحيث يصبح من المستحيل أن نصور الأفق المتسع دون حاجة إلى أن نجعل منه كائنا لا تكاد العين تراه . ولقد قال دافيد يوما لباور لورميان Baour Lormien : «كم أنت سعيد لكونك شاعرا ، إنك تريد أن تصور الحب فى جبال الألب فترسم عشرين صفحة للمحبين وعشرين صفحة للجبال وكل هذا يبدو متلائما تماما بعضه مع بعض . أما أنا فعلى العكس من ذلك فحين أريد أن أرسم لوحة فإما أن أصور المحبين كبيرى الحجم والجبال صغيرة جداً أو الجبال عملاقة والمحبين ليس أكبر حجما من هذا » وأشار بأصبعه الخنصر . ولقد بدا لنا جبل أرارات أصغر كثيرا من طول نوح . ويستطيع مسيو بوتون أن يرد على ذلك بأن أناس هذا العصر الذين كانوا يعمرون ألف عام كان حجمهم يبلغ عشرة أضعاف حجمنا . وربما كان على حق . ومع ذلك فلوحاته رائعة وتتسم بالحقيقة المدهشة فى تصوير طبيعة إلى حد ما مثالية والسماوات بدت ذات ضوء يضيف كثيرا إلى الصورة الخيالية وكذلك تغير التأثيرات الضوئية والظل وكذلك التغيرات التى حدثت فى الأرض نتيجة انحسار المياه جعلت من تسلسل هذه المشاهد عرضا مسرحيا رائعا بمفاجآته وتأثيراته وكل ما أثاره من اهتمامات .

- ٢ -

رسالة إلى تيوفيل جوتييه[٤٧]

إلى صديقى تيوفيل جوتييه

أى سعادة تلك فى أن تكتب لى من خلال إحدى الصحف لا عن طريق الخطابات ! فالرسالة كانت ستنام إلى هذه الساعة فى أحد أدراج البريد المنتظر فى القاهرة الكبرى التى غادرتها أوكانت مازالت تعدو فى إثر صديقك الطائر من هذا السلم إلى ذاك من سلالم المشرق .

أما الجريدة ، وهذا مالابد أنك توقعته ، فهى تصل فى وقت واحد إلى جميع الأماكن التى يحتمل أن أكون فيها ، ولقد لقيتنى فعلا فى

(٤٧) هذه الرسالة نشرت فى جريدة القسطنطينية Journal de Constantinople فى ٧ سبتمبر ١٨٤٣ ثم فى مجلة Le Sylphide (١٨٤٣ الجزء ٨ ص ٢٨٤ - ٢٨٥) فهى إذن رسالة أدبية إنه شكر يوجهه جيرار لصديقه الذى كان قد أهدى له البالية الصامت من فصلين الذى يدعى « البيرى » فقد عرض فى الأوبرا فى ١٧ يوليه ١٨٤٣ . وقد نشر إهداء جيرار فى مسلسل ليتونيل نشر فى Le Presse فى ٢٥ يوليه .

القسطنطينية حيث أنا الآن . كما أن العالم جد صغير والصحافة جد كبيرة لذا فسوف أستطيع الرد عليك بعد عشرين يوماً فى جريدة البوسفور أكثر الصحف انتشارا فى باريس ولى فيها أصدقاء قدامى يجعلون صفحاتها رهن إشارتى . وقد لايكون هذا موضع سرور إدارة البريد بل ربما كان مصدر قلق بالنسبة لها . أما عن الجمهور فربما كان على أتم استعداد لكتمان أسرارنا : أو بصفة خاصة أسرارى أنا .

ولكنك تحدثنى عن أمر يهمه كما يهمنا ولا ينبغى أن يكون أقل شعبية فى استامبول عما هو فى باريس ، مادام العمل الأدبى الذى أنتجته ، حسب ما تقص على ، يعتبر مشرفا لخيال الشاعر المسلم الحقيقى .

والبيرى هى فى ذات الوقت باليه وقصيدة شعرية ، قصيدة مثل مجنون ليلى وباليه كأمثاله من الباليهات الساحرة العديدة التى رأيتها ترقص لدى بعض الشخصيات الشرقية من الكرام الظرفاء . ولن تدهش هذه الشخصيات فى هذا البالية إلا من شىء واحد : ذلك أنه لابد فى باريس إذا أراد المرء رؤية باليه ما أن يذهب فيتكدس وسط ألوف غيره فى قفص من الخشب المذهب بالنحاس وقلما توجد فيه الأرائك ، وحيث لا توجد لا نرجيلة ولا شبوك ولا قهوة ولا مرطبات .

أما الشخص الميسور هنا فيستطيع جمع أصدقائه على وسائد مريحة وتجلس نساؤه خلف حاجز من القضبان ويتم رقص باليه البيرى بواسطة راقصات أو راقصين حسب ذوق الداعى . وإنى على يقين أنه سيستفيد جداً من تكوين هذا الباليه هذا وسوف تعجبه جداً التفاصيل التوقيعية التى

زخرف بها الراقص التوقيعي كورلى Corlay الباليه . ومع ذلك فسوف تنقصه كارلوتا الساحرة[٤٨] التى تمسك بها الأوبرا بخيط من ذهب . ولكن من يدرى ؟ فربما حلت محلها جنية «بيرى» حقيقية بناء على دعوة ذلك المؤمن الهمام ، ومع ذلك فإنى أقول ان الشرق لم يعد أرض المعجزات ولم تعد الجنيات يظهرن فيه منذ أن فقد الشمال حورياته وجنيات الهواء المحاطة بالضباب . ولن يكون فى القاهرة على وجه التحديد قدوم فتيات السماء تلك بحثا عن الهوى العذرى والقلوب الوفية بناء على معتقدات الحجاز العتيقة . وربما فسر البوليس الصارم ماديا الاستخدام الالهى لهذه السيدات فيبعث بهن بالقرب من الشلال الأول ووسط أطلال إسنا بحثا عن المعجبين .

إيه أيها الصديق ! لقد طلبت مني تفصيلات محلية تصويرية عن « عوالم » القاهرة ورقصاتهن التى طالما تغنى الشعراء بها . وقد انهمكت فى أبحاث حول رقصة النحلة وغيرها من الرقصات المحلية . وكنت آمل أن أقوم بدور فى الرقص التوقيعي يشبه الدور الذى قام به شارل تكسييهCharles Texier[٤٩] وليبسيوس Lipsius [٥٠] فى مجال الآثار ، كمراسل

(٤٨) كارلوتا جريزى (١٨١٩ ـ ١٨٩٩) التى لعبت دور الجنيـة البيرى .

(٤٩) عالم آثار فرنسى (١٨١٩ ـ ١٨٩٩) .

(٥٠) مستشرق ألمانى كان على رأس بعثة للآثار إلى مصر وقد ذكره نرفال فى « نساء القاهرة » و « الأهرام » من أبواب هذا الكتاب .

لأكاديمية الموسيقى . ولقد دهشت لأنني بدلا من أن أستجيب لمهمة سهلة ولطيفة مثل تلك التي طلبت إذا بي أصف لك الملابس الإنجليزية وثياب الإفرنج الرثة وأسمال الفلاحين ...[٥١] يا للأسف ! ففي الوقت الذي كنت تربط فيه كل ما في الأوبرا من فخامة بالقاهرة التي رسمتها في مخيلتك كنت أنا لا أربط بالقاهرة الحقيقية إلا العناصر التي لا تخضع لأية قاعدة كما في تمثيليات الممثل الصامت ديبورو Deburau .

وإذا كنت لم أحدثك بشيء عن رقصات القاهرة فذلك لأنه كان من الخطير في ذلك الوقت انتزاعك من أوهامك . فقد كانت أول رقصة رأيتها في مقهى لامع من مقاهي الحي الإفرنجي الذي يسمى شعبياً بالموسكي . وكنت أود أن أجسد لك بعض الشيء هذا المشهد إلا أن الديكور لا يحتوى لا على أوراق النقل ولا أعمدة صغيرة ولا على ثريات جانبية من الصيني ولا على بيض النعام المعلق . إنك لا تجد تلك المقاهي الشرقية إلا في باريس . ولتتصور مكانا حقيرا مربعاً مبيضا بالجير كل ما فيه من زخارف عربية هو تكرار صورة ساعة حائط موضوعة وسط أحد

---

(٥١) انظر خطاب إلى تيوفيل جوتييه (دمياط مراسلات جرار ، سبق ذكره ، رقم ٩٧) :
« أحسنت صنعاً بإظهار القاهرة في باليه قبل أن تراها والأفضل وصف العصر المملوكي لا العصر الحاضر إلا إذا لجأت في الأدوار الثانية إلى إنجليز من الكاوتشوك بقبعات من القطن وخمار أخضر ، أو فرنسيين يثيرون الدهشة يرتدون موديلات ١٨١٦ أو أتراك يثيرون الضحك بالملابس المميزة لإستامبول .

المراعى بين شجرتين من أشجار السرو . أما بقية الزخارف فتتكون من المرايا المطلية بلون واحد والغرض منها عكس ضوء نجفة معلقة على عصا من جريدالنخيل ومحملة بقناديل الزيت الخافتة التى تعطى مع ذلك تأثيراً طيبا . وأمام الأرائك المصنوعة من نوع من الخشب الصلب والتى تحيط بالغرفة توجد أقفاص من جريد النخيل تستخدم كسنارات لأقدام مدخنى التبغ أو متعاطى الحشيش . هنا يستسلم الفلاح بصديريته الزرقاء ، القبطى بعمامته السوداء والبدوى بمعطفه المقلم إلى الأحلام التى تتناقض تماماً مع أحلامك . ربما كانوا يحلمون بوطن بدون نخيل ولا جمال أو بأنهار خالية من التماسيح وسماء يحف بها الضباب وجبال من الثلج وجنة لا يكون

محمد على هو إلهها . أما الجنيات « البيرى » التى تظهر لهم حقيقة وسط غبار دخان التبغ فقد استأثرن بمشاعرى لأول وهلة لبريق طواقيهن الذهبية التى تعلو شعورهن المضفرة . إن كعوبهن التى تضرب الأرض بينما تكرر الأذرع المرفوعة صدى تلك الضربات الشديدة تجعل الجلاجل فى الخلاخيل ترن بينما ترتعد الأرداف من تلك الحركة التى تشبهها وتبرزها لدينا حركة الرقص الرومانى . كان الوسط يبدو تحت الموسلين بين الصديرية والحزام الفخم المرخى كما لوكان حزام فينوس . ولا نكاد وسط الدوران السريع نميز ملامح تلك الفتيات الفاتنات اللائى يتحركن بقوة على النغمات البدائية للطبول والمزمار . وكان من بينهما اثنتان غاية فى الجمال يتميزان بمحيا فخور وعينين عربيتين زادتهما الأصباغ حيوية والخدود الممتلئة الرقيقة الملونة تلوينا خفيفا .

أما الثالثة ... ولماذا لا نقول ذلك فوراً ؟ الثالثة ، وهى جنية من الطبقة الأقل فتكشف عن جنس أقل رقة تدل عليه ذقن طولها ثمانية أيام ! وأنا ، الذى كنت استعد لتقديم أقنعة مغطاة بالقطع النقدية الذهبية لهن حسب التقاليد الشرقية الأصيلة ، فقد وجدت أن من الأولى العدول عن هذه المجاملة الرقيقة بالنسبة لوجهى الراقصتين الأخريين اللتين تتصببان عرقا فهما ليستا بعد الفحص الدقيق ، إلا اثنتين من « العوالم » الذكور . وتستطيع أن تفهم الآن أنه لم يعد لدى أى ميل لأن أطلب إليهما تنفيذ رقصة النحلة التى يقولون إن نجاحها فى الأوبرا لم يكن كاملاً إلا لأن كارلوتا لم تقم بتنفيذها بالكامل وبجميع تفاصيلها .

وسوف تسألنى لماذا نلتقى فى القاهرة ، وربما تحتَ مظاهر خداعة جدا أحيانا ، بالحقيقة النهائية وهى أن العامل المسكين كان بلا عمل ... وأرد على ذلك بقولى ، بعد التقصى الدقيق للحقائق ، إنه من أجل الحفاظ على الأخلاقيات العامة نفت الحكومة إلى إسنا العوالم الحقيقيات وغيرهن من غانيات الدلتا . وهذه الأخلاقيات التى أفلحت فى إحلال جنس مكان الآخر قد احتفظت لسكان القاهرة بنوع من التعويض التوقيعى سوف يكون من العسير على إعطاؤك فكرة ملائمة عنه .

ولكى تذهب من ميدان الأزبكية فى الموسكى (الحى الإفرنجى) فإنك تتبع شارعاً طويلا وملتويا وعلى شئ من الاتساع ومزدحما بالشحاذين والحمارين وبائعى البرتقال وبائعى قصب السكر . وإلى اليسار تمتد أسوار الدراويش الدوارة حتى حظيرة سيارات السويس التى يعلو

بابها تمساح محشو بالقش . وإلى اليمين توجد بعض المنازل الجميلة والمقاهى والمعارض الزجاجية بل وحتى حان إيطالى . وبالقرب من هذا المكان نسمع رنين آلات النفخ المصاحبة لفرقة من الراقصين التوازنيين اليونانيين .

والمكان ، كما تستطيع أن تتصور مأهول جداً شديد الضوضاء وغاص ببائعى المقليات والفطائر والبطيخ . ويوجد كذلك بعض منشدى الأغانى الحزينة ، والمصارعين والمشعوذين الذين يعرضون القرود والثعابين . وهنا يدور علنا المشهد الذى أريد الحديث عنه والذى يحقق أكثر الصور التى صورها رابليه فى قصصه غرابة . والشخصية الرئيسية ، وجسمها مربوط بخيط يوصله بركبة شخص مسن مرح يجعلها تتكلم وترقص وتتحرك ليست كما تتوقع ، إلا القراقوز الخالد هذا الكاريكاتير القديم الذى اخترعه قاض من القاهرة كان يعيش فى عصر صلاح الدين . ولم أكن قد سمعت عنه إلا على أنه نوع من خيال الظل إلا أنهم فى مصر يعطونه حياة تشكيلية للغاية . ولن أقص عليك المسرحيات التى تمثل كلاما وغناء وحركة ورقصا وسط دائرة شديدة الانبساط من النساء والأطفال والعسكريين . إن هذا المشهد كلاسيكى فى الشرق والرقابة المحلية لم تقص أو تلغى منه شيئا كما يقال إن رقابتنا تفعل فى مدينة الجزائر . وبعد هذا المشهد الساذج ازدادت صعوبة فهمى لنفس تلك العوالم المسكينات اللاتى يضطررن إلى إفساد طيبة بحجة الحفاظ على أخلاقيات القاهرة وتلك هى عينات منها .

إيه يا صديقى ! لكم نحقق نحن الاثنان أسطورة الإنسان الذى

يعدو وراء الثروة وذلك الذى ينتظرها فى فراشه[٥٢] . وليست الثروة هى التى ألاحق ولكن المثل الأعلى واللون والشاعرية وربما الحب ، وكل ذلك لك أنت الجالس فى مكانك ويهرب منى أنا الذى أعدو . ولم يحدث إلا مرة واحدة ، أيها المتهور ، حين أفسدت رحلتك إلى أسبانيا ثم كنت بعد ذلك فى حاجة إلى مهارة كبيرة وقدرة على الاختراع ليكون لك الحق فى عدم العودة منها .

أما أنا فقد فقدت مملكة تلو مملكة وولاية بعد ولاية وأجمل شطرى العالم وبعد قليل لن أدرى أين تسكن أحلامى . إلا أن مصر أكثر من غيرها هى التى آسف على طردها من مخيلتى وإسكانها بشكل حزين فى ذكرياتى !...

وأنت مازلت تعتقد فى طيور أبو منجل وفى زهور اللوتس الحمراء القانية والنيل الأصفر ، وتعتقد فى شجرة النخيل الزبرجدية والصبار الهندى وربما فى الجمل ذى السنامين .. يا للأسف ! إن أبا منجل ماهو إلا طير برى واللوتس من الأبصال المبتذلة ، ومياه النيل حمراء ذات إشعاع اردوازى والنخيل يبدو كريشة ضعيفة والصبار الهندى ليس إلا صباراً عاديا ، والجمل لا يوجد إلا بسنام واحد ، والعوالم من الذكور ، أما النساء الحقيقيات فيبدو أن المرء يكون سعيدا بعدم معرفتهن ؟

---

(٥٢) انظر آقاصيص لامونتين ٧ ـ ١٢ .

كلا ، لن أفكر فى القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة دون أن أذكر الانجليز الذين حدثتك عنهم وعربات السويس المعلقة ببغاوات الصحراء ، والأتراك الذين يرتدون الملابس الأوروبية والإفرنج الذين يلبسون الملابس الشرقية وقصور محمد على الجديدة المبنية كالثكنات ومؤثثة وكأنها مراكز ريفية بمقاعد كبيرة وأرائك من الأكاجو وموائد بلياردو وساعات حائط ومصابيح ذات ضاغط ولوحات زيتية للسادة أبنائه فى ملابس المدفعية ، أى كل ما يشكل المثل الأعلى للريفى الثرى ! ..

إنك تتحدث عن القلعة . إن مناظر الديكور التى أعدها لك فى الأوبرا لابد أن تظهر أعمدة الجرانيت الأحمر لقصر صلاح الدين القديم . أما أنا فقد وجدت فيها بناء شاسعاً مربعا يشرف على المدينة ويبدو وكأنه سوق لبيع الغلال ويدعون أنه سوف يصبح مسجداً بعد إتمامه : حقا إنه لمسجد كما أن المادلين كنيسة . إن الحكومات الحديثة تعنى بأن تشيد لله بيوتا يمكن استخدامها فى أغراض أخرى حين يكف الناس عن الإيمان به !

آه ! كم أتوق لأن أرى فى باريس تلك القاهرة كما صورها رساما المسرح فيلاستر وكامبون[٥٣] . وإنى على يقين من أنها ستكون قاهرتى التى كنت أتصورها فى الماضى ، تلك التى رأيتها مرات عديدة فى أحلامى

---

(٥٣) من بين مهندسى الديكور الذين كان تيوفيل جوتييه يسميهم : « دى لاكروار ديكامب وماريلىلا فى مجال الرسم المسرحى .

لدرجة أنه خيل إلى ، كما خيل إليك ، أننى عشت فيها فى زمن ما ربما فى عصر السلطان بيبرس أو الخليفة الحاكم ! .. هذه القاهرة كنت أصورها أحيانا وسط حى مقفر أو مسجد متهدم وكان يبدو لى أننى أطبع شكل قدمى على آثار أقدامى الماضية . كنت أمضى وأقول فى نفسى : حين أدور حول هذا الجدار أو أمر أمام هذا الباب سوف أرى هذا الشىء أو ذاك ، وكان يحدث أن أرى ذلك الشىء متهدما ولكنه حقيقة .

لنكف عن التفكير فى ذلك ! إن هذه القاهرة ترقد تحت التراب فروح العصر والاحتياجات الحديثة قد انتصرت عليها كما ينتصر الموت . وما هى الا عشر سنوات حتى نرى الشوارع الأوربية تقسم الى زوايا قائمة المدينة القديمة المغبرة الصامتة ، التى تتهدم فى هدوء فوق رأس الفلاحين المساكين . أما ما يلمع ويتلألأ وينمو فهو الحى الافرنجى ، مدينة الانجليز ولمالطيين وفرنسيى مرسيليا . أه ! إننى لم آت لأرى هذه المدينة تأكل الأخرى ، هذا الوكر لتجارة الهند ، هذا المحل التجارى المزدهر الذى يملكه التاجر الوحيد فى مصر ، هذا الدكان الذى يملكه المنتج الوحيد فيها ؛ سوف تفقد فكرة تطيير الجنيات الساحرة فوق جبين أحد المسلمين الطيبين النائمين فى سعادة . لاتأت لرؤية النيل التى تتصارع فيه الحيوانات الأسطورية ، ولا الصحراء التى خططتها العجلات الإنجليزية ولا جزيرة الروضة التى حولها إبراهيم إلى حديقة انجليزية وأمدها بأنهار صناعية ونجيل وكبارى صينية . تصور أن ضاحية شبرا تضاء بالغاز وأن المقطم ملىء بطواحين الهواء ويتحدث الناس عن تغيير حالة الأهرام ، من الجيزة حتى

دارفور وتحويلها إلى أعمدة تلغراف !.. أه ! لتبق فى باريس وليت نجاح الباليه الذى تقدمه يستمر حتى عودتى ! فسوف أجد فى الأوبرا القاهرة الحقيقية ، مصر النقية ، الشرق الذى يهرب مى والذى ابتسم لك بشعاع من عينيه المقدستين . أيها الشاعر السعيد لقد بدأت فى تنفيذ مصرك الخاصة بواسطة الأوراق والكتب . أما اليوم فإن الرسم والموسيقى والرقص التوقيعى تسارع لإيقاف كل ما تصورته فى أحلامك عنها بحيث إن جنيات الشرق لم تكن أبداً فى مثل تلك القدرة . إن أعمال الفراعنة والخلفاء والسلاطين تختفى كلية تقريبا تحت غبار الحماسين أو تحت معارك الحضارة النثرية . أما تحت أنظارك أيها الساحر ! فإن شبحها يحيى وينهض ويتحقق بالقصور والحدائق التى يكاد المرء يتصورها حقيقة ، والجنيات الرائعة ! إننى أومن بمصر الخيالية هذه لا بالأخرى ، ولذا فقد انصرمت الأشهر الستة التى قضيتها هنا ولم يبق منها شىء . ولقد رأيت الكثير من البلاد التى تدفن تحت خطوات أقدامى وكأنها ديكورات مسرحية ، فماذا بقى لى منها؟ صورة مختلطة كصور الأحلام : إن أفضل ما تجده فيها ما زلت أعيه عن ظهر قلب .

- ٣ -
ذكريات من الشرق

على هامش رحلة إلى الشرق اكتشف مسيو جيلبير روجيه Gilbert Rouger فى متحف الأسر Musee des Familles وهى مجلة منافسة لمجلة الحانوت التصويرى Magasin Pittoresque ، عدداً من المقالات التى نشرت فيما بين ١٨٤٤ و ١٨٥٩ وبتوقيع لا يمكن فى واقع الأمر إلا أن يكون اسماً مستعارا وهو ج . دى شاتوفيل C.de chatouville . ونذكر أن احدى قصائد ديوان جيرار المسمى Pdelettes وهى Gaiete (المرح) تحمل فى المخطوط عبارة :

كتبت فى شاتو أمام منزل ميرى Mery (٥٤). ومن جهة أخرى ففى خطاب إلى جرفيه شاربنتييه Gervais Charpentier ناشر رحلة الى

---

(٥٤) قال جيرار كذلك فى إحدى رسائله إلى فرنسيس وى Frencis Wey (مراسلات رقم ٨٨) : «سوف أذهب هذا المساء إلى شاتو ...» (وربما كان والده يقيم هناك) (الناشر) .

الشرق . كتب جيرار التوضيح التالى : «لقد نشر متحف الأسر أمس مقالاً ويقصد بذلك التعليق على «مشاهد من الحياة الشرقية» وهو مقال كتبه رئيس تحرير هذه المجلة . ولاشك أنه من الواضح أن هذا الاسم المستعار كغيره مثل «لورد بيلجرم» و «الفنان» ، هذه الأسماء كانت مألوفة لعدد من المجموعة الأدبية التى كان جيرار ينتمى اليها . إلا أنه من الواضح كذلك أن النصوص التى نوردها فيما يلى ، بعد أن نشرها مسيو جيلبير روجيه ، والتى نشرت بتوقيع ج . دى شاتوفيل هى بلا مراء من كتابة جيرار ، بل أحيانا من جيرار فى أفضل صوره .

ابراهيم باشا ابن محمد على[55]

كم من الثورات توجد فى هذا الخبر البسيط :

«لقد سافر ابراهيم باشا ابن والى مصر وبطل عكا ونزيب ، سافر إلى فرنسا للاستفادة من مياه البرانس» ! وكما يذهب الآلهة والملوك يذهب كذلك الأتراك والعرب أو بالأحرى يأتون إلينا .

ومنذ أربعين عاماً كانت كلمة باشا ترسم فى مخيلتنا رجلا هو أشبه شيء بكاهن لامى (بوذى) مغطى بالذهب والأحجار الكريمة ومختف فى أعماق الحريم مع مائة امرأة وألف جارية وهو يستقبل كل صباح وسط سحب من دخان النرجيلة قبيلة بأسرها من رءوس أعدائه يصبها الجلاد تحت قدميه . إن كل هذا لم يعد له وجود إلا فى ألف ليلة وليلة . أما باشوات هذه الأيام فيتدثرون مثلنا بمعاطف ضيقة وبنطلونات ذات بطانة للأقدام . وقد فكوا رباط عمائمهم الكشميرية لكى يغطوا رءوسهم

(55) ديسمبر ١٨٤٥ .

بأغطية الرأس اليونانية وهم يسيرون فى شوارع سان ـ دينيس . إنهم مغرمون بمواسير المداخن التى نرتديها نحن على أنها أغطية للرأس . وهم يدخنون على أسفلت الأفاريز سيجارا بخمسة وعشرين سنتيما ويأكلون ، بدلا من رءوس المسيحيين ، رءوس العجل المسلوقة . وهم يتزوجون من أول حى فى القسطنطينية أو فى القاهرة .

وهم أوفياء لزوجاتهم مثل وفاء أثرياء حى الماريه Marais ويربون أطفالهم حسب طريقة جاكتو Jactot(٥٦) ..

ولقد كان الشيئان اللذان يرتاع لهما محمد هما شرب النبيذ والاحتفاظ باللوحات فى البيت . ولننظر الآن إلى سكرتيرى السفارة التركية وهم يحتسون أنبذة مقاطعة شمبانيا الفرنسية بعد ضربها بالثلج ! وهم فى ذلك لا يفعلون إلا أن يقلدوا سيدهم السابق السلطان محمود الذى انتقل من النبيذ إلى ماء الحياة ومن ماء الحياة إلى الكحل ومن الكحل إلى الإثير .

وهم يقولون : «حين يأخذ المرء بأسباب الحضارة فإنه لا يدرى كيف ينهل منها» . أما عن اللوحات فإن رشيد باشا السفير العثمانى ، وهو اليوم رئيس للوزراء ، فقد كان يجلس عشية سفره أمام مسيو مكسيم دافيد رسام الصور المصغرة المفضل لدى كبار الشخصيات . ولما كان فخامته

---

(٥٦) جان جوزيف جاكتور (١٧٧٠ ـ ١٨٤٠) وهو صاحب نظرية التعلم العالمى الذى تلجأ بصفة خاصة إلى الإرادة والإنتباه والذاكرة .

يعرف فى التحف الفنية فقد أمر بطبع ثلاثمائة نسخة من صورته باللليتوغراف لكى يوزعها فى القسطنطينية وفى باريس ! ولو أن رشيد باشا قد خطرت له مثل تلك النزوة منذ عشرين عاماً فإن السلطان العظيم لابد كان سيرسل له حبلا من الحرير مع الأمر بتعليق نفسه به ...

الحلاقون الأتراك وحوانيتهم

حين تدخل لدى الحلاقين الاتراك (وإن محلاتهم لمزدحمة منذ أن بدأت اللحى تتساقط بعد إصلاحات رشيد باشا) تبدأ بخلع حذاءك أو نعليك (شبشبك) ثم تجلس القرفصاء على حصير أو تتسلق منصة خشبية مفروشة بالصف)ة . وهنا يحضرون إليك غليونا وقدحا من القهوة . والغليون كبير الحجم بقدرقدح القهوة ماهو صغير الحجم . وتدخن الغليون عدة مرات وتملأ قدحك ما طاب لك ذلك . والمسلمون يتعجلون فى بطء مثلهم فى ذلك مثل بجعة الأقصوصة . ومنهم من يقضى ساعتين فى استنفاذ الشيبوك ويستعين فى قطع ذلك بخمسة عشر قدحا أو عشرين من القهوة .

وحين تفرغ من شرب القهوة والتدخين يقترب منك غلام وهو يسن موساه على قطعة من الجلد معلقة فى حزامه . وتسلم له رأسك فيتصرف فيها كسيد مطلق . وبالنسبة لأهل البلاد فهذه عملية غاية فى البساطة . وبالنسبة للأوربيين فتلك مسألة عادية أو غير عادية . ويغرق الحلاق

وجهك بالماء والصابون . وحذار حينئذ من فتح عينك وتنفس من أنفك إذا كان ذلك ممكناً . أما إذا كان ذلك غير ممكن فلتختنق فى بطء : لديك الوقت كله لذلك لأن القائم بالتنفيذ متسم ببرود يتناسب مع بطئه . وتراه يأخذ بعد ذلك موساه فى جلال ويروح ويجىء به فوق بشرتك بنفس البرود الذى يدركه إذا كان يضرب تمثالا « دمية ، مانيكان » . وهو يمسك بك من أنفك أو من شاربك أو من شعرك ؛ ويضرب رأسك فى الحائط و ويسنده على ركبته إلى اليمين وإلى اليسار وإلى الأمام وإلى الخلف . وهو يشد خديك ويضغطهما ويلاحق الذقن حتى يغور فى اللحم وهو يروح ويجىء على الرغوة الوردية اللون ، ولا يقلق أبداً إذا ألفى الدم على وشك التدفق مثله فى ذلك مثل الدباغ المنهمك فى دبغ جلد إحدى الدواب . وإذا تأوهت فهو أصم لا يسمع ، وإذا صحت فهو لا يشعر بأية شفقة ، وإذا عصلجت فهو أعمى وإذا عنفته فهو أبكم . إن كل ما سوف تحصل عليه منه هو أنه سيمسك بك بطريقة أقوى ويسيطر عليك فى صلابة ويعشطك بطريقة أكثر إيلامًا . وأخيراً تخرج من هذه الملزمة ذات الألف سلاح وترى جلادك وهو راض عن نفسه كل الرضى يجفف موساه بين السبابة والابهام . وهو يحييك تحية صغيرة وهو يهز أصابعه وقد يحدث أن يلطخك برذاذها . وبعد ذلك يسحب أداة أخرى من جعبته ويمسك بأذنيك ، ويثنيها ويفتحها وينفخ فيها لدرجة قد تصيبك بالصمم ، ثم يسلكها من الداخل كما تنظف الطباخة قدراً صدئا .

وبالنسبة للأوربى تكون الأزمة هكذا قد انتهت ، وليس أمامه إلا أن ينظر فى مرآة صغيرة يقدمونها له وأن يريح أخيرا عضلاته المنقبضة وهو يدخن غليونه الأخير ويساعد التدخين ببعض رشفات من القهوة .

أما بالنسبة للمسلم فالعملية لم تبلغ سوى منتصفها . فبعد الوجه لابد من حلق الرأس . وأنت ترى فى الصورة(٥٧) هذا القمع الأنيق المستدير المعلق فوق رأس الزبون . ويقوم الحلاق بإسالة الماء الدافىء من هذا القمع فتسقط كالدش على أم رأسك ووجهك ورقبتك وكثيرا ما تسقط كذلك على ملابس العملية . فإذا غرق المسكين فتلك هى مشكلته هو ! لأن الصبى قد وضع له صحنا كان عليه أن يجمع فيه هذا الشلال بقدر المستطاع . إلا أنه مادام مضطرا لإغلاق عينيه إغلاقا محكماً فيحميهما من حمام الماء والصابون الكاوى فإن الخزان المزعوم لا يتلقى إلا بعض قطرات من الماء فى حين يمتص قفطانه وجبته بل وحتى حذاؤه ما شاء لها الامتصاص . إلا أن المسلمين يستسلمون لكل شىء ! مادموا يقولون : هذا أمر مكتوب ! إن هذه الكلمة تقف حجر عثرة أمام التقدم لديهم وكأنها سور أبدى .

وحين تم حلاقة الرأس بالطريقة التى رأيتها يقوم الحلاق بتعطيرها بزيت معطر ويعطيها لمحة حمراء وكأنها رأس دمية جديدة . ويتوج الغليون والقهوة هذه العملية ويعتقد التركى أنه الآن فى جنة محمد .

---

(٥٧) صورة بالحفر على الخشب الارنست بريغون « حانوت الحلاق » بالقرب من القنطرة الجديدة بالقاهرة » .

وإن من يعرف الصخب الذى يسود مقاهينا الفرنسية وثرثرة حوانيت بيع الشعور المصطنعة (الباروكات) فإن هذا السكون وهذا البرود يشكلان تناقضا مضحكا .

والأتراك الذين تربوا فى أوربا لايتخلون لحظة واحدة عن برودهم فى الشرق إلا لينغمسوا فيه بشكل أقوى .

وذات يوم ، فى القسطنطينية ، هرع أحد الإنجليز الذى انتزعوا له شعره إلى ضابط الشرطة الذى كان يدخن فى صمت وبلا حركة فى أحد المقاهى . وتحدث المجنى عليه عن شكواه . لا جواب . ورفع صوته ، وأقسم وهاج وماج ... لا جواب . ومع ذلك فقد كان الضابط يفهمه جيدا لأنه كان يكلمه بالفرنسية وكان التركى ممن تربوا فى باريس . وأخيرا بلغ الأمر بالانجليزى أقصى مداه فأعلن أنه سوف يبلغ سفير بلاده وأن الأمر سوف يبلغ السلطان وأنه لابد من تقديم ترضية لبريطانيا العظمى ! .

ولكن لا جواب كما كان الأمر من قبل .

كل ما فعله الضابط هو أنه فتح فاه بين نفختين من نفخات دخان غليونه وأفلت بضع كلمات ليبين للإنجليزى أنه فهمه تماما وبتعبير فرنسى فقال له : «إنى لأهزأ من ذلك» .

ثم عاد إلى بروده . وكان هذا التعبير الفرنسى هو أحسن ذكرى احتفظ بها فى الشرق من ثقافته الباريسية .

وأسقط فى يد الانجليزى فانصرف وهو يعدو .

ذكرى من شبرا (القاهرة)[58]

منذ سنين زرت فى القاهرة مقر والى مصر ، وهو مقر جميل فى شبرا جعل منه محمد على جنة شرقية . وكان مرشدى فناناً أرمينياً يعرف القاهرة كما لو كان هو بانيها . ووصلنا إلى شبرا عن طريق الممر الكبير الذى لا مثيل له فى العالم حيث يتجول حول الملاهى الظليلة جميع الذين يقضون وقت فراغهم من سكان القاهرة : فترى فرقا بأسرها من الضباط ، ومسلمين يتبعم حاملو غلايينهم ، ونساء وجاريات ذوات خمر طويلة والأنيقات والمتغندرون من الحى الإفرنجى ... إلخ . ولتتصور مكانا تحف به أشجار الجميز والأبنوس الشاهقة وتكون قبابا لا تنفذ الشمس إليها وهيئا يتناقض تماما مع ما إلى يمينه من رمال ملتهبة . وإلى اليسار يروى النيل الحدائق الشاسعة ويضىء هذا المتنزه بالانعكاسات الحمراء لأمواجه .

(٥٨) أكتوبر ١٨٥٠ .

ويطل القصر على النيل ذاته فى مواجهة سهل إمبابة الذى شهد المعركة الشهيرة التى هزم فيها المماليك . ونقلنا الكشك القائم فى المدخل بأروقته المطلية والمذهبة بكثرة إلى جو ألف ليلة وليلة : فثمة أكشاك للطيور تغص بالطيور من جميع الألوان ، وحمامات تسيل فيها المياه بصفة مستديمة ، وقاعات للاستقبال مذهبة على الطريقة التركية ومهيأة بالأثاث الأوربى الذى تتضاءل فخامته أمام بريق الرسوم .

ولقد أدهشتنى اللوحات بطرافة طابعها الإسلامى . إنها لوحات جانبية أو أعالى أبواب أو تجويفات سقوف مرسومة بالبيضة . ولا ترى فى هذه الرسوم ، حسب القاعدة التى وضعها القرآن ، أى كائن حى اللهم إلا بعض الحيوانات الخيالية مثل أبى الهول والتنين والحيتان . والرسام المسلم الذى يصور كائناً حياً يتصور أنه سوف يحكم عليه فى محكمة النبى بأن يمنحه روحاً . ومع ذلك فإن مواقع معارك إبراهيم البحرية فى اليونان قد صورت فى رسوم شبرا . إلا أنك لا ترى على السفن بحاراً واحداً ، وكذلك لا ترى على القلاع جندياً واحداً . وتتقابل القذائف والقنابل كما لو كان ذلك بفعل ساحر . وقد يظن الرائى أنه ثمة آلات من الحجارة أو الخشب تتصارع بواسطة زمبركات غير مرئية . ليس ثمة ما هو أغرب ولا أطرف من هلع الحرب حين تترجمه الطبيعة الجامدة .

وفى قاعة العدل الخاصة بالباشا لاحظت عبارة مكتوبة تعتبر غريبة

بالنسبة لمحمد على تقول : إن سبعين ساعة من الصلاة لا تعدل ربع ساعة من التسامح[٥٩] .

ونظرت إلى مرشدى وأنا أفكر فى مذبحة المماليك[٦٠] وسألته عما إذا كان الفنان الذى قام بأعمال الديكور كان يقصد هجاء الباشا . فأجابنى وقد أحمر وجهه :

« إنها لقصة مؤثرة . وأستطيع أن أقصها عليك لأننى أعرف جيداً هذا الفنان . لقد قدم إلى القاهرة شاباً إلا أنه كان مشهوراً فى الرسم بالبيضة . واستخدمه محمد على فى شبرا فاستأجر منزلاً جميلاً فى المدينة واستقر به مع ثلاثة من الخدم . إلا أنه ابتداء من اليوم التالى طرده صاحب المنزل حفاظاً على الفضيلة وقال له :

أنت تعيش بلا نساء ، وفى سنك كان ينبغى أن يكون لك منهن ست . واهتز إيمان الرجل بسبب هذه القاعدة القرآنية . فغادر المنزل واستشار أحد أصدقائه الذى أرسله إلى أحد « الوكلاء » (وسيط زيجات) يقوم بنفس عمل مسيو فوا Fay فى باريس . وأخذ هذا الرجل يتجول به

(٥٩) إن نص الفقرات الثلاث السابقة يكاد يكون مطابقاً حرفياً لما قاله الكاتب فى رحلة إلى الشرق (سماء القاهرة ٣٠٣) .

(٦٠) فى أول مارس ١٨١١ دعى المماليك لحضور تنصيب ابن محمد على ، طوسون باشا ، الذى عين على رأس حملة ضد الوهابيين . إلا أنهم ذبحوا فى القلعة فى القاهرة بأمر من الوالى .

من حريمات البيوت إلى أسواق الجوارى ويعرض عليه عشرين زوجة فى اليوم بمعدل يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ فرنكا للرأس الواحد . ولما كان يرفضها الواحدة تلو الأخرى فقد ضرب الوكيل جبهته وواتته فكرة تفوق صاحباتها وصاح قائلا : أقسم لك بمحمد أن لدى طلبك . إنه خادم تركى على استعداد لأن يتزوج من أجلك أى عدد من الزيجات تطلبها منه أمام الشيخ والقاضى والقسيس القبطى وحتى أمام القنصل . وهذا «المتزوج» الشجاع يمارس تلك المهنة من أربعين عاماً فى خدمة الإنجليز الذين يضطرون مثلك إلى احترام التقاليد . وهو لا يتقاضى إلا مائة قرش (عشرين فرنكا) عن كل زيجة . وكما ترى أنه مبلغ تافه . فاذا أمرتنى بكلمة منك آتيك به وتستطيع هكذا أن تعود إلى بيتك الجميل . وأمام هذه المشاهد التى تسىء إلى دينه كان ثمة ما يدعو هذا الرسام إلى أن يدوس عمامته بالأقدام . وقرر أن يظل أعزب ويظل ينتقل كل يوم من بيت إلى آخر . إلا أنه وجد مأواه لدى أسرة مسيحية وجد لديها زوجة ساحرة أوحت اليه بمتع الزواج الحقيقى وسموه ، ووجد بجوارها أختا لها أكثر سحرًا ترسم مثله ، بل ربما أحسن منه ، وانتهت بأن محت من نفسه كل سحر للقرآن . وباختصار فبعد شهر تبادل الفنان والمسيحية الحسناء خواتم الزواج فى دير الفرنسيسكان . لقد ارتد الفنان عن الاسلام ولم يحتفظ هو وزوجه من الإسلام إلا بغطاء الرأس التركى ذى الشرابة الطويلة والطربوش الأحمر ذى الضفائر الحريرية . ولكن لسوء الحظ إن الأسرار تنتشر فى القاهرة كما تنتشر فى باريس . ووصل ارتداد الرسام عن دينه إلى مسامع محمد على الذى أمر بحمله من قصره الصينى ووضعه فى سجن

المرتدين المظلم . وعلى الفور حلقوا له رأسه ولم يتركوا له إلا خصلة من الشعر لكى يعرضوا الرأس على الجمهور يوم قطعها . وما كان هذا اليوم ليتأخر لو لم يكن الله الذى لجأ إليه أكثر قدرة من النبى .

فى اليوم التالى لاعتقاله تقدم فنان شاب من الوالى لاكمال المهمة التى انقطعت . وكانت لحيته من القلة بحيث ظنوه طفلا ولكنه أراهم عينات جميلة من عمله حتى أنهم عهدوا إليه ببقية أعمال الزخارف . وتفوق على سلفه وأصبح مقربا من الباشا . ولم يكن للباشا من مأخذ يأخذه عليه إلا أنه فى كل يوم كان يغادر عمله فى منتصف النهار تماما . وفى تلك الساعة بالذات كان محمد على لدى خروجه يرى امرأة باكية تأتى فترتمى عند قدميه وتصيح فيه قائلة :

ـ « اعف عن المرتد » .

وانتهت هذه الدموع الملحة التى لا تكل ولا تمل بأن هزته . فأجاب المرأة ، قائلا : « سوف استخير الرسول فى الصلاة » . وأجل تنفيذ حكم الاعدام فى السجين إلى اليوم الذى يتم الرسام الذى تلاه فيه عمله . ياللمعجزة ! فقد كان هذا الرسام يواصل عمله مادامت الشمس ساطعة وأتم زخارف قصر شبرا فى أسبوعين ! وسر الوالى أيما سرور وطلب منه للفور أن يطلب المكافأة التى يريد . فصاح الرسام وهو يترامى على ركبتيه : « العفو عن المرتد » . وفى هذا الوضع وبهذا الصوت المتوسل تحت التخفى الذى خدع الناس جميعا تعرف الباشا على المرأة التى طالما استمع إلى توسلاتها أنها زوجة الفنان السجين المسيحية ! وقد أرته آخر ما

خطته ريشتها ، وهى تلك العبارة التى كنا نقرأها منذ قليل بشىء من الدهشة : إن ستين ساعة من الصلاة لا تعدل ربع ساعة من التسامح !

وأسقط فى يد محمد على وأنهض المرأة الشجاعة وأرسلها لتأخذ زوجها من السجن ...

وأضافت سيدة من الحى الافرنجى كانت قد لحقت بنا فى تلك اللحظة وهى تزيح خمارها :

وهاهما الاثنان أمامك !

وأخذت أضغط على يد هذا الرجل ذى القلب والعبقرية وواصلت فحص أعماله وأعمال زوجته التى كانا هما الاثنان يشرحانها لى وسط اعجابى الشديد .

إن تحفتهما الفنية بلاشك هى السرادق المرسوم إلى أعلى[٦١] . ولاريب أن خلفاء قصة ألف ليلة وليلة لم تكن لهم أبدا مثل هذه الاستراحة اللذيذة . ولتحكم بعينيك على التأثير الأثيرى الساحر لهذه الخيمة ذات الكتابات العربية على الطراز البيزنطى وهذه الأعمدة التى تحف بمناظر بقدر ما تستطيع العين أن ترى ، وهذا التسلسل من المآذن التركية والنافورات اليونانية والنافورات المتدفقة والأحواض الرقراقة والقنوات التى تخططها القوارب الذهبية والأغصان التى تصدر شرارات

---

(٦١) هى لوحة محفورة على الخشب لبريتون : نافورة وكشك شبرا قصر صيفى بالقاهرة .

من الضوء إلى جانب ثمار الليمون والبرتقال والتى تنعكس فى مياه النيل الصافية النائمة تحت جذورها . أضف إلى ذلك الستائر الذهبية والحريرية التى ترفرف بين أكاليل الخضرة والزهور . ولتتخيل ذات مساء جميل حريم الوالى المنعم يعبر هذه الممرات تحت أشجار الليمون المقصوصة فى أشكال مغزلية وأشجار الموز المشعة كالزبرجد الشفاف والمعتم فى وقت واحد . ولتتبع هذه المجموعة ذات الزينات المبهرة حتى الحمام المرمرى الأبيض الذى لاتتوانى تماسيح النافورة العالية أن تمد أفواهها إليه .

ماهى هذه الضجة الشبيهة بخلية من الطيور تغوص وسط الأمواج ؟ إنهن جاريات الحريم اللائى يلقين بأنفسهن إلى حمام السرادق الفسيح وهن مرتديات برانسهن الحريرية .

وماهى هذه الهمهمة التى تتناقص فوق القناة التى تفوح عطرا ؟ إنه قارب الباشا المذهب الذى تقوده عشرون من النساء المسلحات بالمجاديف المطلية وكأنها أجنحة الشعار الملكى .

وغنى عن الذكر فى تلك الساعة الخفية يغلق قصر شبرا للجمهور . إلا أن ما يستطيع الجمهور أن يراه طوال اليوم ويستمتع به هى تلك الروائع الشرقية التى وصفتها لك وهذه الحدائق التى لا مثيل لها التى تحيط بالمقر الجميل حيث تتكاثر الزهور والتفاح الذهبى لدرجة أنه يتساقط كالمطر تحت الأقدام ، وإن أوربا كلها لاتملك من الورد مثل ما تملك حدائق محمد على وحفيده عباس باشا .

ـ ٤ ـ
مذكرات
رحلة الى الشرق

(مقتطفات)

ص ٧

إن الذى بنى بوابة النهر هو الحاكم بأمر الله ثم هدمت فى عهد السلطان بيبرس . وفى غرة محرم ٦٧٢ صدر أمر بهدم احدى بوابات القصر المقابل الكلية، الكامل من أجل الاستفادة بأعمدتها فى مبنى آخر . واكتشفوا صندوقا فى الحائط وجد به قناع من النحاس الأحمر موضوع على عرش شبيه بأحد الأهرامات ارتفاعه شبر ويستند إلى أربع عجلات . وكان التمثال جالساً القرفصاء وقد عقد ساقيه . وكانت يداه تحملان موسياً يبلغ محيطه ثلاثة أشبار وقد وضعت عليه عدة أشكال وجوه بارزة . وفى الوسط رأس بلا جسد حوله كتابات بالخط القبطى والخط الكوفتيرى Kolfatyry وعلى أحد جانبى هذا الرأس ثمة وجه بقرنين ويشبه الشكل الذى يتمثل فيه شعار العذراء . وعلى الجانب الآخر يوجد وجهان على أحدهما صليب فوق رأسه والآخر يمسك بيده عصا ويضع على رأسه صليبا . وعلى الأقدام توجد أشكال طيور تعلوها كتابات . وقد وجد

كذلك لوح ملمع كما لو كان يراد استخدامه لتعليم الأطفال الكتابة فكان أحد وجهيه أبيض والآخر أحمر .

ص ٢٩

إننا فعلاً الآن على ضفتي التيجر (النمر) : ألا تريد أن تشرب ؟ – فقلت له : «إنى أفعل كل ما ترغب فلم أخلق إلا لطاعتك» . فأحضر كأساً كبيراً من النبيذ التى أعرف أنها تعجبه . فقال لى :

– ألا تريد دعوة أحد ليرد عليك؟» فقلت له :

– «هذا ليس ضروريا بالنسبة إلى» . ومع ذلك فقد أصر على دعوة إحدى الآنسات التى كان يحيطها بالتقدير وتسمى ديجاف Degafe وهذا الاسم معناه الضعيفة مما جعلنا نتشاءم من هذا الاسم لاسيما فى الحالة التى كنا فيها .

وقال لها : «غنى» .

فأخذت تغنى تلك الأبيات للشاعر نابيج لى جيجاديت Nabegue le gegaerite : «إننى فى نهاية حياتى . إن معظم أهلى وأقاربى المقربين يطلبون الثأر» .

فقال لى : «خذ فألك من هذا» . ثم قال لها : «غنينا شيئا آخر» فبدأت بهذا القول : «لتبك يا عينى ، لتبك لرحيلهم فإن فقد الأصدقاء يستأهل ذرف الدموع» فقال لها :

«ليلعنك الله ، ألا تعرفين من الأغانى غير هذه؟ فقالت :

ـ يا سيدى ، إننى لم أغن إلا ما رأيت أنه سيلقى استحسانا منك ، ولم أكن أقصد أبداً أن أضايقك » .

ثم غنت تلك الأغنية الأخرى : « يا إله الراحة والحركة ، ما أسرع ، ما تبلغنا أقدارنا ! إن الليل والنهار ودوران الكواكب فى مسراها لا تتغير أبدا ؛ إلا أن الملكية قد تترك ملكا لتلحق بآخر ثم آخر . أيها الإله الكبير الذى تملك عرشك الذى لا يتزعزع دوامًا دون أن يكون لك خليفة ولا رفيق .. »

فقال لها : « إليك عنا لتلحق بك اللعنة » .

فذهبت ؛ وأثناء انصرافها ضربت بقدمها كأسا من البللور جميل الصنع كان يحبه كثيرا فكسرته .

فقال « المخلص » : « يا للأسف يا إبراهيم ، ألم تر ما فعلته هذه الفتاة ؟ وما حدث للكأس ؟ وحق الله لا أظن أن موضوعى سيتم على خير .

فقلت له : يمنحك الله طول العمر والعهد السعيد ويحطم أعداءك ! »

ولم أكد أتم كلامى حتى سمعنا صوتا من فوق « النمر » يقول : « إن الأمر الذى يهمكما أنتما الاثنين قد أفرغ »

فقال « المخلص » : « ألم تسمع شيئا يا ابراهيم ؟ »

فقلت : «لاشيء على الإطلاق» . ومع ذلك فقد كنت سمعت جيدا ما قيل ، بل واقتربت أكثر من حافة النهر . ثم أعيدت العبارة نفسها وبصوت أكثر ارتفاعا : «إن الأمر» .. وظل بعض الوقت ثابتا فى مكانه وهو يفكر فى حزن ، ثم امتطى صهوة جواده وعاد إلى قصره فى المدينة . ولم يمض يوم أو يومان حتى قتل ...

(هذه بعض ملاحظات جانبية من المذكرات تتصل بأهم الموضوعات التى كانت تهم نرفال) .

أحس بالحاجة إلى احتواء الطبيعة كلها (النساء الأجنبيات) وثمة ذكريات بأنى عشت فيها .

إنى أتتبع نفس الملامح فى نساء مختلفات .

إنى عاشق لنمط معين لا يتغير .

آل مديتشى ، مارى دى مدنسى (القديس دنيس) . بالنسبة لى إنها إحدى آل مدتشى .

قرين سليمان . أفضل أجزائه كان يبعث الحياة فى الآخر (طرف النقيض)

العالم اللا عالم

البطل ابن قابيل

الإله الذى يتمتع بجميع النساء فى الحلم .

القرين : ابن السماء

ابن النار
الذى يفرض أن يكون كل شخص إله عالم أحلامه .
يتبعه قرينه أو جنيه الداخلى .   الملوك .

أشباح النبيذ . ما يشرب وما يؤكل ، الروح الشريرة تأكل لحم ملائكتها الثائرة .

اختيار لبعض النصوص المتغيرة

حسب عادة جيرار طبعت «رحلة إلى الشرق» قبل الطبعة النهائية التى صدرت سنة ١٨٥١ عدة طبعات جزئية . ولذلك فإن اختيار عدد متميز من النصوص المتغيرة يجعل الناشر فى حيرة . بل إن فكرة النص المتغير فى حد ذاتها كانت موضع جدل . والواقع أن جيرار لم يكن يكتفى بمراجعة بعض التفاصيل أو تحسين العبارة الأدبية بل كان يحدث أن يعدل مجموعات بأسرها وأن يحذف أجزاء هامة . وكان يحدث له كذلك أن يحذف ، فى الطبعة النهائية ملاحظات اعترف المؤرخ الصحفى أنها من مصادر ومراجع أكيدة رفض الروائى ــ القاص أن يفرد لها أى مكان .

ولذا فسوف يجد القارىء هنا اختياراً غزيراً نوعاً ما للنصوص المتغيرة الهامة وأكثرها دلالة مرتبة حسب الفصول والموضوعات التى كثيراً ما كان جيرار ينشرها منفصلة . وسوف نجد على رأس قائمة هذه النصوص المتغيرة مراجع هذه الطبعات .

مقدمة : نحو الشرق

ص ٩

من الخير أن نعترف اليوم بأن أوربا معروفة تماماً للناس جميعاً ولذا فإن المسافر لا يمكن إلا أن يكتب مسلسلة لما رآه فى طريقه وقصة مغامراته ، وقد يستطيع إذا انقضى الأمر نقل بطاقة عشائه كما كان يفعل لويس الثامن عشر فى أكثر كتب الرحلات إمتاعاً وإثارة .أليس من المثير مثلا أن نعرف أن من العسير جداً الحصول على سمك التروته فى جنيف وأن هذا النوع من الأسماك من الندرة فى بحيرة ليمان بحيث يذكرنا بندرة المحار فى أوستاند والشبوط فى نهر الراين ؟

ولقد كنت أدهش على مائدة فى مانهايم ، بأننى لم آكل الشبوط أبداً فى تلك المدينة رغم حبى الشديد له (لابد أن أضيف أننى لم أستطع أبداً الحصول على شراب التفاح فى روان ولا فطيرة الكبد فى ستراسبورج بحجة أننا فى غير الموسم) . ورد على أحد الألمان من سكان هذه المدينة الطيبة مانهايم : أتظن أنهم يصطادون الشبوط هكذا فى نهر الراين؟ فرددت عليه فى برود قائلا : لقد رأيت لدى كورسليه ولدى شيفيه بعض

هذه الحيوانات التى تدعى أنها عاشت فى هذا النهر . فأجاب الألمانى : انى لا أقول يا سيدى أنه لا توجد أشباط فى نهر الراين ...- بل قل ذلك ، لو شئت يا سيدى ، فنحن نسمى ذلك فى باريس أمرا خارقا للعقل ، أما هنا فقد يكون الأمر صحيحاً تماماً . فقال الألمانى : إن أشباط نهر الراين جميلة جداً ولذا فهى الصحن المفضل للرءوس المتوجة . وهم يعرفون قيمتها ، وصيادو الراين الذين يكونون نقابة قد تقاسموها منذ مدة طويلة . إنهم يعرفونها وحين يصادف صياد إحداها فإنه يقول : «حسن إنه شبوط فلان» ويعيدها فى شرف الى الماء» ، وأظن أن ثمة تروتات بهذه الطريقة فى بحيرة ليمان .

٢ ـ الملحق بالسفارة

ص ١٠

أنت لا تؤمن باللصوص ولا أنا كذلك ، فلم أر أحداً منهم قط وإن كنت تخيلت منهم الكثير) . حسن ! إن ثمة أناسا هنا يصدقون ما يروى عنهم ؛ وتؤكد لنا الصحف أن بفاريا ملغمة بهم . أما عن الجليد فهم يقصون عنه قصصًا مروعة . فنسمع أحيانا عن مرشد يختفى تحت أنظار المسافر الذى يرشده ، كما يختفى الشبح فى فتحة الباب ، وأحيانا أخرى عن عربة مسافرين تظل مدفونة فى الجليد سبعة عشر يوماً ، ويضطر المسافرون إلى أكل لحم الخيول ليتغذوا بها . وهناك مسافر انجليزى ذهب

الى ايطاليا بحثا عن الربيع فضل وسط الثلوج ولم ينقذه أى كلب من كلاب جبل سان برنار لأن مسرح الأمبيجو Ambigee أهمل إعادتها الى مراكزها الا أن قصص الفيضانات أشد من ذلك هولاً .

ص ١٣

وسافر بعربة وتمنيت أن يصادف عربة أفضل من تلك التى نقلتنى الى فرنى Ferney وبعد ذلك فقد يومان هباءً بالنسبة للبرقيات ، ومن يدرى أية تعقيدات حدثت بسبب ذلك بالنسبة لمشكلة ما ... أتريد أن تعرف الآن اسم الملحق ؟ انه ابن عمى هنرى ، الذى سافر من باريس فى نفس الوقت الذى سافرت فيه منها وصادف من المتاعب أكثر مما صادفت فى العربات المتواضعة التى التقيت بها .

ص ١٤

لست أجد فى نفسى أية رغبة لتسليتك بالأخطار التى صادفتها والمتاعب التى لقيتها كما حدث لكاتب « رحلة الى سان كلو » المعروف(٦٢) ومع ذلك فلن تمنعنى من الأسف على هذه الأسفار الصعبة فى فرنسا العتيقة كما نقرأ وصفها فى « سيرانودى برجراك »

وفى كتابات الشيفالييه داسوسى بل حتى فى الجولة الذواقة التى قام بها باشومون وشابيل . أتذكر مغامرات البارون دى فينست المرحة حيث

(٦٢) إنه لويس ىلتزار بيل (١٧٤٨) .

كان يعنى بتعويض نفقاته من الفنادق التى كان ينزل بها بأن يستولى من غرفته على الأقل على المناشف والأمشاط أو حتى قدر الماء لو كان من المعدن ؟ وفى الفصول الأولى من قصة ماريان أية رحلة تلك التى كانت تقوم بها عربة بوردو الضخمة التى كانت تقضى ثلاثة أسابيع للوصول الى باريس وتجنح من خمس الى ست مرات فى الطريق وتصادف على أقل صدمتين من صدمات هجوم اللصوص !

تلك متع فقدناها كما فقدت قصص الأسفار الحديثة منها مصدرا كبيرًا للإمتاع . وما أن يجد المسافر نفسه خارج فرنسا حتى يحدوه الأمل فى العثور مرة أخرى على هذا العرق الطيب للمتعة لاسيما فى البلاد الجبلية . لكن يا للأسف ! كم أصبح غير المتوقع نادراً ، حتى فى سويسرا حيث يسافر المرء معظم الوقت سيراً على الأقدام وغير المتوقع هو سيل يحول عربتك الى سفينة (إنك لم تنس بعد قصة الملحق) أو اعصار يبتلعك أو دب من برن يأتى ليشم رائحتك فى طريقه أو موجة من بحر الثلج تتكسر تحت أقدامك . أو ربما (اذا كنت من المحظوظين جداً) مغامرة صغيرة مع اللصوص .

معذرة ، لقد ابتعدت كثيرا فأنت لا تؤمن باللصوص واللصوص فى الواقع لا وجود لهم فى أى مكان . وأنت تعرف كما أعرف أن المرء يضطر الي دفع النقود الى بعض التعساء لكى يعترفوا بأنهم مذنبون حتى يتمكن القضاة ورجال النيابة والمحامون والشرطة المحلية من أن يبرروا وجودهم يتقاضوا رواتبهم وحتى تعمر سجون الأشغال الشاقة والسجون . انها

مسرحيات هزلية صغيرة تلعب فى وضح النهار بين الأرواب السوداء والثياب المثقبة ويمكننا أن نرى بقراءة أوراقنا القضائية كم يبذل فيها من اختراع وفن .

ولكن اذا لم توجد المغامرات ، فما زال أمام السائح الأديب مهمة الوصف . فهو يعد أحجار الآثار وأوراق الغابات ، ويخلق الأراضى الخلفيات العابرة والآفاق . ويأتى التصوير فيسد أمامه الطريق . وفى كل مدينة تصادف من المصورين اثنين أو ثلاثة لا ينتظرون إلا شعاع شمس ليبدءوا فى العمل . ولكن الشمس نادرة فى هذا الفصل وليس أمام مصورى المناظر الميكانيكيين الا الذهاب والبحث عنها فوق السحب باللجوء الى عمليات صعود خطرة .

ذلك أنها جبال الألب العالية هى التى يكتشفونها فى كل جانب من الأفق . واعترف أننى لم أكن قد عرفتها بعد . وكان بعضهم قد ادعى فيما سبق أنه أرانى إياها فى ليون من أعلى فورفيير Fourviares ؛ وفى نيس من فوق جبل يشرف على المدينة . ولكنى لم آخذ من ذلك الا فكرة ضئيلة أو غامضة للغاية . وهأنذا فى مواجهة الجبل الأبيض ont Blanc. وكم أود تذكر الأبيات العشرين التى قالها لوكونت دى ليل والتى جعلته شهيراً ولكنى لم أذكر الا الأبيات التى خلدت القهوة :

وتخيلت ، وقد شعرت بصحوة العبقرية ،

أننى أحتسى مع كل نقطة شعاعاً من الشمس ! .

ولكن هذه الأبيات لا تنطبق إطلاقاً على تلك الحالة .

ومن المؤكد أنه كان شاعراً مريحا ذلك الذى دق على كل منظر لوحة جميلة من البحر الطويل . وهكذا فإن الطبيعة بأسرها أصبحت تحمل لافتات وكأنها حديقة نباتات . ويرى رجال المجتمع فى ذلك لونا من الحماس المعد مسبقا مثل مجاملات رأس السنة . ولا يزال فى جنيف كثير من المعجبين بدى ليل .

لقد ظللت إذن طول السهرة أبحث عن الجبل الأبيض . ولقد تتبعت شواطىء البحيرة وصعدت إلى أعلى الأسطح فى المدينة ، ولففت حول الأسوار .

ودخلت إلى المسرح ، وهو كبير نوعاً ما ، ولكنه يبدو قليل الازدهار من الداخل . وكانت الفرقة التمثيلية تقدم ثلاث مسرحيات من نوع الفودفيل . وكان الممثلون من مشوهى الحرب الذين لم استطع الاعجاب كثيرا بمواهبهم . وقد وقعت جنيف فى ذات السوأة التى وقعت فيها بلجيكا إذ وجدت نفسها فرنسية دون رغبة منها فى ذلك . وهذه البلاد الضالة لابد أن تكون تعسة سواء إذا قبلت التبعية الذليلة أو ادعت الاستقلال . ومنذ سنة ١٨٣٠ قدمت فرنسا يدها لمساعدة إحداها وأعطت ضربة قدم للأخرى وتسبب عن ذلك أن أصبح الفرنسيون مكروهين فى كلا البلدين . وقد رأيت فى جنيف كما رأيت فى بروكسل رسوما كاريكاتورية كثيرة عنا معشر الفرنسيين وكلها من عهد التهديدات

بالحرب سنة ١٨٣٦ . وأحدها يصور جندى مشاة فرنسيا يتقدم على الحدود وقد بدا فى هيئة حامل السيف المتوحش . ومن ناحية الحدود السويسرية يوجد فى الرسم متطوع من جنيف ، قصير القامة ، ولكنه شجاع . وهويصيح فى الفرنسى مستشهدًا بذلك البيت لشهير ا

صحيح أنى شاب ، ولكن بالنسبة للنفوس طيبة النشأة الخ ...

وقد راعنى أن هؤلاء السادة قد وجهوا إلينا بدل المدافع بيتين من الشعر لكورنى . ومع ذلك فلنعترف بأن هذا أقل مرارة من الرسم الكاريكاتورى الشهير الذى نراه على مدخل الفرانكيلون Franquillons فى بلجيكا .

ص ١٦

ولما كنت لا أدرى كيف أقضى بقية السهرة حتى رحيل عربة بريد ، فقد جلست فى أحد المقاهى حيث وجدت نفس أعداد الصحف الفرنسية ، الدستور والقرن ، التى صدرت يوم سفرى ، وهذا ما دفعنى إلى أن اندفع نحو الصحف المحلية . إن سياسة هذه البلاد الصغيرة مسلية من ناحية أنها تتسم بنفس النغمات ونفس التقسيمات ونفس ألوان الغضب ، ونفس الشعارات المبتذلة التى تتسم بها سياستنا إنها ثورة فى كوب ماء إذا كان يمكن أن نقول ذلك . ومازالت الخلافات الدينية تضيف هناك تعقيدات لم يعد لها مكان لدينا ، ويبدو من جريدة لوزان Le Pr ewicr lousanne التى أراها تحت عينى أن الاستراوسيين يعانون من المكانة الأقل فى أماكن كثيرة . فحزب ستراوس الذى هزم فى زيورخ قد رفع رأسه فى لوزان . وقد ضرب المجلس الكبير ضربة كبيرة فقد كان ثمة

أستاذ متحيز لحزب ستراوس يدعى بشير Scherr كانت المدينة تعطيه كما تعطى بقية الأساتذة خمسين جنيها ذهبيا بخلاف المسكن والحديقة فلكى يعاقبوه على خطبة غير معتدلة ألقاها انتزعت منه الحديقة فإذا تحدث ثانية انتزع منه الخشب وهكذا .

وهذه الطرق الهادئة هى أفضل ولاريب من إشهار السلاح فى زيورخ وأنسب لإقناع الانفصاليين . ولو حدث ذلك فى الماضى لعوملوا بقسوة فى نفس هذه المقاطعة التى أمر فيها كالفان Calvin بشوى ميشيل سيرفيه Michel Servet بالخشب الأخضر حتى يستمر التعذيب مدة أطول . أما اليوم فيكتفى بانتزاع الخشب منهم . وبدلا من حرقهم فى ميدان عام فإنهم يتركونهم يتجمدون من البرد فى منازلهم .

وأنا هنا فى حالة تعطل تام بحيث انى انتقل من السياسة إلى الإعلانات ، حيث أجد منها ما هو شيق للغاية ، وهذا هو أحدها : للإيجار رقم ٢٤ ميدان البالود La Polud شقة كاملة مكونة من صالون يشكل مطبخا وغرفة نوم . وإنى لسعيد إذ استطيع الترويج لهذا الإعلان . والإنذارات القضائية تكتب بهذه الصيغة :

مدير المرافعات Les Delats (ولنلاحظ أن الأمر لا يتعلق بمسيو برتان ولكن ربما بقاضى التحقيق فى البلاد ، الذى يكتب فى الجريدة إلى المجرم العاصى : «إليك يافرنسوا بن برنار الذى يعمل عادة خياطا وهو الآن هارب بموجب القرار الصادر فى ١٧ أكتوبر ننذرك بأنك فى سوق يوم ٩ الجارى وجهت طعنة فى البطن إلى السيد برسون Persond . والآن

تنذرك بأن تسلم نفسك إلى سجن أفانش Avanches وعلى السجان إذا تقدمت إليه أن يقوم بسجنك . توقيع كاتب المحكمة بورنان Bornand »

(٢) إليك (وهنا لم يذكر الاسم لأنه غير معروف) تنذرك بأنك سرقت من غرفة السيدة ميليك خمسة تماثيل ذات دماء مختلطة ، وبخلاف ذلك فقد فتحت «بوفيها» وأخذت مختلف الأشياء التى تلائمك إلخ » . ونحن نوصى بصيغة «الرسالة» هذه إلى قضاة التحقيق لدينا فهى كفيلة بتوفير الكثير من رجال الشرطة . ولو كان المجرمون يقرأون الصحف لتأثروا ولاريب بهذه الإعلانات المهذبة .

ألست أنا الذى قلت أخيرا ان جميع نساء جنيف فى سن الأربعين ؟ ويأتى هذا بلاشك من أنه ، بسبب جهالهن المفرط ، فإن باريس تحتفظ بهن فى ريعان شبابهن ولا تعيدهن إلى وطنهن إلا بعد أن تكون قد أذبلتهن قليلا وحطمتهن قليلا ...

وهنا يمكثن بضع سنوات فى حالة أوهام ضائعة . ثم يذهبن ليعكسن جواربهن الزرقاء فى البحيرة الزرقاء . إنها المدرسة التى مازالت قوية مدرسة روسو ومدام دى ستال وبلزاك (وبنجهان كونستان) . ثم لما تبدأ الأعوام الأربعون ، التى تعنى بالنسبة لهن الثلاثين ، تقترب من نصف القرن تعبر هؤلاء الجميلات من جنيف إلى لوزان عن طريق بحيرة ليمان الهادئة . وهنا تكون مدرسة سينانكور ومدام كرودنر وسانت بيف ــ الخ مما يخلق ملائكة ساقطة ومحطمة و مدفونة فى هوة سحيقة لدرجة غير عادية . فهل يستطيع بلزاك أن ينهضها يوما بأنفاسه القوية !

إن المرأة فى سن الخمسين فى حاجة إلى أن تستند إلى عصا صديقنا ، وأنا لا أفعل إلا أن أنقل إليه هذه الرغبة وأخبره كم هو محبوب فى هذا البلد وموضع الآمال .

ص ١٨

فمثلا لابد أن أقول إننى أطلب بفتيك خوفا من أن يكون من لحم الدب وقد علمت من صديقنا أنه فى «الشاليهات» وهى مقر إقامة الكرم ، فإن فنجان اللبن يباع بأربعة فرنكات ، وقد رفضت لذلك تناوله . ولذا فإن تجارب رحالة الماضى ليست عديمة الجدوى وهذا ما يشفع لهذه الرسالة من قبلكم .

وهكذا فحين تغادر برن وتقضى يوماً ملولاً فى عبور غابات الصنوبر والسندر المزدانة بالشاليهات المتواضعة وقريتين مكتظتين بسكان أقل جمالاً من جمهور الأوبرا فانك تكون سعيدا لو تناولت عشاءك فى الساعة الحادية عشرة فى آرو Aarau فى بيت مضيفة رائعة الجمال عارية الصدر جداً وترتدى الثوب الوطنى . وهناك ، وبعدد معقول من عملة الباتز Batz تتناول وجبة لا ينقصها شىء وتظهر فيها أخيرا تروتة البحيرات والسيول ، التروتة الزرقاء المنقطة ، فراولة الجنس الحيوانى ، البسيطة الرفيعة المعطرة التى ينبغى ألا نخلط بينها وبين تروتة جنيف التى ، لو سلمنا جدلاً بأنها مازالت موجودة ، ماهى إلا إحدى سمكات السلمون المتخفية .

وجدران غرفة الطعام مزدانة بمناظر مدينة آرو التى تلاحظ بينها منظر نزل زوك Zchookke الروائى المشهور . ومن المحزن أن تضطر أخيرا إلى مغادرة هذا الخان اللطيف التى تحب أن تقضى الليل فيه لاعتبارات كثيرة . وتودعك المضيفة بتحية رقيقة ويحمر وجهك وأنت تدس فى يدها لحظة رحيلك النقود المتواضعة التى تسميها سويسرا باتز .

وسوف نعود للحديث عن هذه العملة بخصوص الكروتزر الألمانية Krutzers وهى ليست أقل خداعا من الأخرى بالنسبة للرحالة .

ص ٢٥

إن كل حكومة من حكومات ألمانيا تحتكر المرور ، ولابد من استثناء بلاد الاتحاد الألمانى الصغيرة التى تخططها شبكة المراكز الاقطاعية التى تنتمى لأمير الجولات وسيارات التاكسى . وهذا الأمير ، ولابد أنك سمعت اسمه يتردد ، هو المركيز دى كاراباس الألمانى . فإذا سألت لمن هذا القصر ؟ قيل لك لأمير الجولات والتاكسى . لمن هذه الجياد والعربات والصحف الخ فتتلقى نفس الإجابة (لأنه يمتلك أيضا بعض الصحف فى مختلف البلاد ، باسم الاقطاع ، لاسيما جريدة Gazette des Posts وجريدة فرنكفورت) . وهذه الإقطاعات الصناعية لا حصر لها . وهذا الأمير والإمارة التى لا تكاد تتبينها العين له دخل أكبر الملوك المطلقين نفوذا . وشعبه المكون من رجال محطات الأسفار والكتاب والعمال يبدو سعيدا فى حياته تحت قوانينه فى مساحة قد لا تعدو مائتى فرسخ من الشمال إلى الجنوب . وعلاوة على ذلك فهو سعيد الحظ إذ يحتفظ دائما بطبيب

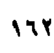
إلى جوار شخصه وقد جعل منه أحد وزرائه ، فماذا تظن قد حدث أخيرا ؟ إنه الطبيب الذى مات . وقد بكاه أمير الجولات والتاكسى ولم يشأ الحصول على آخر . إن هذا الرجل لن يموت أبداً ومع ذلك فالناس ينتظرون موته لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية التى تعوق حقوقه الإقطاعية إقامتها من كل جانب .

ماذا أقول لك عن البلاد التى أجوبها فى هذه الساعة ؟ إنه طريق واحد الوتيرة وسهول وجبال أو على الأصح أكمات ، وتجد أشجار الصنوبر فى كل مكان . إن الجزء الأكبر من ألمانيا على هذه الشاكلة وهذا ما يجعلها خضراء يانعة فى أغانى الشعراء .لنسرع الخطا إذن للوصول إلى أوجسبورج ، وهى مدينة جميلة لا مثيل لها فى هذه الجهات ، تذكرنى بمدن شاطىء نهر الراين الجميلة . إن هذه المدينة تستحق أن يكون لها نهر أو بحيرة لسقيا جدرانها ومع ذلك فليس لها حتى ولا جدول صغير . والكاتدرائية جميلة جداً والشوارع ساحرة ببيوتها الكبيرة المطلية باللوحات الضخمة من أعلى إلى أسفل . وهنا يوجد رسامون مجهولون فى مهارة كارافاج وميكل انجلو لأن الأمطار تقلل من قيمتهم كل يوم . إنها أروقة لا نهاية لها من اللوحات الضخمة الدينية أو المدنية تعترضها الأبواب والشبابيك كالثقوب ويمتع منظرها عين المار . ومعظم هذه الرسوم من طراز الروكوكو الذى ساد القرنين الماضيين ، وتجملها أحيانا التماثيل والألوان المذهبة الزاهية . وفى أكبر الشوارع ، وهو تقريبا ميدان طويل ، نرى مقر البلدية التى يشاهدفيها الأجانب الغرفة الذهبية الشهيرة

المتألقة بالذهب والخشب المنحوت والتى ينيرها عدد لا حصر له من النوافذ . وثمة نافورة كبيرة من المرمر والبرونز على طراز عصر النهضة تزين الميدان المجاور لهذا القصر وهى من أثرى وأرشق النافورات التى رأيتها مما يشيع الخجل فى مجموعات النافورات الصغيرة من الزهر التى تزين ميادين باريس بطريقة اقتصادية .

وبعد أن أعجبت بكل هذا الجمال وزرت مكاتب جريدة أوجسبورج أولى صحف المانيا ، أردت إكمال سهرتى فى المسرح . ورأيت إعلانين فى كل جوانب الشارع أحدهما يعلن عن مسرحية « برسيوزا » وهى أوبرا لفيبر Weber والآخر عن مسرحية دكتور فوست فى مسرح العرائس . وكان من سوء حظى أن أهملت فرصة رؤية الدراما الساذجة التى أوحت إلى جوته بتحفته الخالدة وحجزت مكانى فى الاوبرا . وعرض أولاً فصل مترجم لفودفيل فرنسى . وهكذا تبدأ العروض المسرحية فى ألمانيا بأسرها . ثم كان لابد من سماع مغنية فيينا الأولى أثناء الاستراحة . والواقع أنه ماكاد الفودفيل ينتهى حتى فتح الباب الداخلى وبدأت امرأة ضخمة مرتدية الملابس السوداء . وغنت المقطع الأول بصوت رائع منخفض النبرات . أيكون هذا رجلا متخفيا ؟ إطلاقا فقد غنت المقطع الثانى بصوت سوبرانو أكثر حدة من صوت الآنسة بيجازيه Bejazet .

ماهو هذا الوحش الموسيقى ؟ وفى المقطع الثالث غنت البيت الأول بصوتها منخفض النبرات والثانى بصوتها المتوسط وهكذا . وبعد هذا الجهد غير المعقول ارتفع حماس الجمهور وانهالت الزهور على المرأة البدينة



وكان الأمر يحتاج لكمية كبيرة من الزهور لتغطيتها . ثم بدأ عرض برسيوزا . ولكن لم ألبث أن لاحظت شيئا هو أن الممثلين كانوا لا يفعلون سوى قراءة الأبيات الشعرية بطريقة تمثيلية بينما الأوركسترا يعزف موسيقى فيبر Weber بصوت يصم الآذان . وأسرعت بالخروج من المسرح على أمل أن أجد مسرح العرايس مايزال مفتوحا ولكنى لم أصل إلا لأسمع الأنغام التى أغرقت الدكتور فوست فى الجحيم .

ص ٢٩

إنى أرثى كثيرا لملك هذه البلاد الذى يدافع مع ذلك عن نفسه بأنه ملك دستورى وأنه فرض على نفسه عادة استقبال ثلاثين شخصا مرتين فى اليوم فى سكنه الخاص . وحين يغادر المائدة يجد أرضياته الخشبية وأثاثه وقد تلوث بآثار مجهولة ؛ وإن ما يلمسنه قد لمسه الآخرون للتو والهواء مازال مليئا بأنفاس غير نقية . وقد حفر بعض الإنجليز سراً أسماءهم على المرايا وعلى رخام « الكونسولات » . من يدرى ماذا أخذوا وماذا تركوا ؟

وهذا يذكرنى بأننى قد رأيت يوماً فى التريانون حوض الدوق دى نيمور بجوار حوض جوزيفين وقطعة صابون صغيرة كان الأمير قد استعملها فى آخر مرة قضى ليلته فيها فى التريانون .

وسوف امتنع عن الوصف المفصل لقصر ميونخ الذى طالما عدد مرشدو المسافرين ثرواته الفنية .

ص ٣٠

إنى أبعد ما يكون عن محاولة الإقلال من قيمة جمال المقر وذوق ملك بافاريا للفنون التشكيلية لا يتيح أى لون من الاستهزاء . ولكنى أتساءل ما اذا كان صحيحا أن السيد كورنيليوس حين قدم إلى باريس منذ بضع سنوات لم تدهشه ثروات قصر فرساى وأنه تحدث عنها كما فعل الجاسكونى الذى رأى أن قصر اللوفر يشبه حظائر قصر والده . ونحن نعتقد أنه رجل ذواقه وحسن النية بحيث لا يمكن أن تكون تلك القصة صحيحة لاسيما أن قصر ميونخ يحتوى على نواح من الجمال لا جدال فيها وهى نقطة لا تهم إلا مواهب السيد كورنيلبوس . كما يتوقف علينا وحدنا أن ننسب إليه هذا المجد .

أتتصورون أيها الباريسيون أن أسبانيا وإيطاليا تنقصهما الزبد تماما ؟ وربما لم يحدث لكم أبداً أن أوليتم اهتماماً كبيراً إلى هذا العنصر المتواضع المسمى بالزبد . حسن ! فحين توقفت السفينة البخارية القادمة من نابولى لدى نيس كانت الفكرة الأولى لدى المسافرين هى أن يهرعوا إلى المقهى الملكى فى الميدان الكبير وأن يتناولوا بشراهة إفطارا من الزبد واللبن ، اللبن !

وهل تعرفون كيف تصنع السيدات الإيطاليات قهوتهن فى الصباح ؟ إن هؤلاء التعسات يذبن بياض البيض فى القهوة السوداء ، لعدم وجود اللبن ، ويشربن هذا الخليط . هذا ما لا يعرفه أحد .

وميونخ ينقصها المحار وطبعا أسماك البحار ، ونبيذها متواضع وغالى ثمن ولكنها تطرى البيرة التى تنتجها وهى تتمتع فى الواقع بسمعة كبيرة فى لمانيا بأسرها . ولا ينبغى الحديث عن بيرة ميونخ أمام المسافرين الذين ذوقوا البيرة البلجيكية والإنجليزية . والفارو واللامبيك هى أنواع من لبيرة لا يعرف عنها أحد شيئا حتى فى باريس . إنها حقا مثل أنبذة الشمال لتى تجعل المرء مرحا وتسكره أسرع من النبيذ نفسه . والبيرة الامبراطورية والملكية فى النمسا وبافاريا لا علاقة لها بهذه المشروبات النبيلة . ولذا فهى تنافس التبغ فى ميزة تخدير وتنويم هذا الحسد الكبير جسد الشعب الألمانى .

وسوف يغفرلى القارئ فاتحة الشهية هذه التى لا تخلو من فائدة ذلك لأن المسافرين جائعون كالأبطال والطعام من انطباعات السفر التى لا جدال فيها .

ص ٣١

مادمنا نتحدث عن الآذان فلنتكلم فوراً عن المدافىء . والمدافىء البافارية أجمل مدافىء فى العالم وبناؤها هندسى وزخارفها نحوت حقيقة . ولو عرفوا فى باريس المدافىء الألمانية لزهدوا فى مدافئهم . إنها أجمل قطعة أثاث . وهى تلائم غرفة النوم كما تلائم قاعة فى قصر . وقد رأيت مدفأة ألمانية فى قصر رستاد وقد جملت بالرسوم والقيشانى يقدر ثمنها بمائة ألف فلورين . وأجمل هذه التحف تختفى شيئا فشيئا من ألمانيا لأن الأمراء

وكبار السادة قد تبنوا فى كل مكان المدافىء الفرنسية . إلا أن البورجوازية مازالت تتمسك بمدافئها القديمة وإنها لعلى حق .

ص ٣٢

لنا إذن الحق فى رفض ذوقنا الباريسى الردىء لاسيما إذا عنينا بملاحظة أن ملك بافاريا فى زخرفة قصوره ومتاحفه قد ابتعد دائما عن الذوق السقيم الذى ازدهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويبدو لنا أن هذا موجه ضد قصر فرساى وثمة تلميحات كثيرة لا توجد الآن تحت يدى تؤكد لى صحة هذه الفكرة .

وقد استسلم الرسامون فى أسقف الجليبتوتيك Glyptotheque إلى عدم الاعتدال فى اختيار الألوان مما نحن أبعد من أن نؤيده . وإن الرسوم البارزة السفلية الرائعة لفيدياس والتحف المرمرية النقية لكانوفا Canova التى نلتقى بها إذا خفضنا النظر كان ينبغى أن تخجل التكوينات المتحذلقة للرسامين الجرمان . ومع ذلك فنحن نستثنى رسوم السيد كورنيليوس التى ماهى فى الواقع إلا تكوينات مادام لم يقم هو برسمها ، وقد حدث أن قام بزخرفة قاعة بأسرها بموضوعات مستقاة من الإلياذة وقد رأينا تلك الرسوم فى باريس . ولست فى حاجة لتكرار ما يعرفه الناس جميعا هذه الأيام من أن الرسوم التى ترسل إلى هنا كنسخ للوحات الكبيرة فى مدرسة ميونخ لا تعطى إلا فكرة خاطئة عن تأثير الرسوم الحقيقية : ولا يوجد مسافر واحد لم يبد تلك الملاحظة .

ص ٣٤

هذه الأخيرة قطعة يفخر بها أهل مدينة روان . والمعروف أن سهم روان القديم الذى ينافس سهم مدينة ستراسبورج وأنفرس قد أحرق منذ عدة سنوات . وقد قرر مجلس بلدى روان إعادة بنائه من الحديد الأجوف وقد تم ذلك . والآن سوف يعيش هذا السهم أكثر من الكنيسة نفسها . فهو خفيف واقتصادى وغير قابل للاحتراق ويمكن فكه وبيعه بالوزن . ولكن إذا نظرت إليه من أسفل فإن برج الجرس يبدو هزيلا سقيما . إنه برج العنكبوت ويشبه دقة مزدانة بحبالها . إنه سهم ضامر هزيل مما يسيء لمنظر مدينة روان التى تحملت من قبل الإساءة فى الكوبرى الحديدى ورصيف المنازل الجميلة .

حين دخلنا إلى المدينة صادفنا آثارا جديدة عديدة كفيلة بتخليد مجد بافاريا فى كل صوره . ونلاحظ بصفة خاصة مسلة تشبه مسلتنا تماما ولكنها كلها من النحاس الأحمر مثل تمثال مكسيمليان . وهى مهداة الى الآلاف الثلاثة من البافاريين الذين فقدوا حياتهم فى حملة روسيا . ونحن لا نعترض على ذلك .

وكان ثمة عرض مسرحى لفودفيل مترجم وعرض لميلودراما نثرية ، ميديا ، تقوم بتمثيلها مدام شرودر - ديفريان وهى على حد قولهم ممثلة التراجيديا الأولى فى ألمانيا . وقد ذكرتنا تلك الممثلة بالآنسة ديشنوا فى أيامها الأخيرة . وكانت المسرحية هزلية ومليئة بالمعارك المدبرة والحرائق

والقتل وانتهت بعرض ضوئى بلهب البنجال . هل هذا هو كل ما وصل إليه الفن التمثيلى فى ألمانيا ؟ ولكن على الأقل ممثلونا فى المسارح الشعبية لا يختارون الموضوعات الكلاسيكية . وإذا عرضت ميلودراما باسم ميديه medee فى مسرح بورت ـ سان ـ مارتان Porte Saint mortin لما صادفها التوفيق .

الحب فى فيينا

ص ٣٥

نأمل أن نقدم قريبا بقية مقال السيد جيرار دى نرفال الذى ننشر منه اليوم الجزء الأول . فقد أصيب الكاتب فجأة بمرض حاد رأى أصدقاؤه الذين استسلموا بسرعة للانزعاج أنه غير قابل للشفاء ولكنه سوف يستطيع فى خلال بضعة أسابيع أن يستأنف هذا السرد الذى تبدو فيها عادات فيينا وتقاليدها تعيش فى استسلامها ومرحها البرىء . ونحن ننتهز فرصة هذا المقال لطمأنة الأشخاص الذين يهتمون بفكر هذا الكاتب المرح الرقيق . فقد زال الخطر وما هى إلا أيام قلائل حتى يعود السيد جيرار دى نرفال إلى أصدقائه واهتماماته .

... منذ اللحظة التى تنازل فيها السيد وزير الخارجية بناء على توصيتك القوية بأن يفتح أمامى باب العمل الديبلوماسى بتعيينى فى سفارة السويد أستطيع القول بأن يوما جديدا قد طلع بالنسبة لى ! وقد كبر

مكرى بفضل نصائح تجاربك وأراد أن ينفرد بشكل واسع فى هذا المجال الذى حققت أنت فيه فيما مضى انتصارات جميلة . ورغم أننى ينبغى لى ، بناء على نصائحك ، أن اكتفى فى الوقت الحاضر بكتابة البرقيات بشكل يقرأ والملاحظات والمذكرات والمؤتمرات الخ ... مما يقدم لى صورة منه ، وأن أقدم التصديقات والتأشيرات فى غياب المستشار وألخص التقريرات وافتح المظاريف وأكون أختام الشمع فى استدارة كافية فإنى أشعر أننى لن أتوقف كثيرا لدى هذه البدائيات للفن الديبلوماسى التى لا ينبغى بلاشك أن تهمل إلا أنها تغطى بستار خفايا السياسة العميقة التى احترق شوقا لتعلمها فوراً .

ولكن ، بما أنك سمحت لى بأن أقدم لك ملاحظاتى الشخصية بكل ما ينبغى من حذر فإنى انتهز فرصة بريد غير عادى لكى أبعث إليك بهذه الرسالة التى لن تقرأ فى البريد مثلها مثل تلك التى سوف أرسلها لك بالطريق العادى فى خلال سفرى .

ألا تدهش وأنت تعرف أننى سافرت إلى بلاد السويد الباردة بأن ترى خطابى مؤرخا من فيينا عاصمة النمسا ؟ فأنا نفسى مازلت مندهشا لذلك ولا أستطيع أن أنسب ما حدث لى إلا إلى التعقيدات الحديدة التى ظهرت فجأة فى المسألة الشرقية .

منذ سبعة أيام بالضبط ذهبت للاستئذان فى السفر من رؤسائى لكى أسافر فى مساء اليوم نفسه إلى مقر عملى . وكنت قد اخترت طريق البر بسبب تقدم الموسم ونويت أن أتوجه رأسا إلى فرانكفورت ثم إلى

هامبورج وأن أستريح فى كلتا المدينتين إذ لن يتبقى أمامى ، كما تعرف ، إلا عبورا صغيرا للبحر من هامبورج إلى استوكهولم . وقد درست مائة مرة الخريطة فى انتظار استقبال الوزير لى . إلا أن هذا الأخير كان قد قرر أمراً آخر . وفخامته كان فى ذلك اليوم مشغولا بشكل واضح . ولقد استقبلنى بين زائرين بعد صعوبات كثيرة وقال لى :

«أه ! أهذا أنت ياسيد بريجاس ؟ إن عملك مازال فى صحة طيبة أليس كذلك ؟ - بلى يا سيدى الوزير إلا أنه يشكو المرض قليلا ... أى أنه يعتقد أنه مريض - إنه ذكاء جميل يا سيدى ! هذا هو نمط الرجال الذين مازلنا فى حاجة إليهم ، الذين قال عنهم بونابارت : إنه جنس لابد من خلقه ! وقد قام بخلقه . ولكنه هاهو ينطفىء كغيره » وهممت بأن أرد قائلا إننى آمل أن أخلفك فى كل شىء حين دخل مدير مكتبه وقال للوزير : «لا يوجد بريد ! وهذا الذى حضر من أسبانيا مريض ؛ والآخرون قد سافروا أو لم يصلوا بعد . والطرق رديئة للغاية !

وقال الوزير : حسن ! لدينا الآن السيد دى بريجاس فاعطه خطاباتك . وينبغى أن يصلح الملحق لشىء - وقال لى السكرتير : هل تستطيع السفر الآن ؟ - كنت أنوى السفر هذا المساء - أى طريق سوف تتبع ؟ سأسافر عن طريق تريف وفرنكفورت - حسن ! سوف تحمل هذه اللفافة إلى فيينا - وقال الوزير فى طيبة : سوف يكلفك هذا بعض اللفات ولكنك سوف تدرس ألمانيا فى الطريق وهذا أمر مفيد ... لعلك حجزت لنفسك عربة سفر ؟

ـ نعم يا سيدى الوزير ـ إنك تحتاج لستة أيام ـ فقال السكرتير ربما ستة أيام ونصف بسبب الفيضانات ـ حسن إن اليوم هو يوم الخميس وسوف يصل السيد دى بريجانس يوم الخميس القادم » وكان ذلك هو آخر ماقاله الوزير وسافرت فى هذا المساء نفسه .

ولتحكم على فرحتى إذ أرانى حاملا لرسالة من رسائل الدولة ! ويالها من نصيحة طيبة تلك التى أعطيتنى إياها بشراء عربة نقل وجدتها عمتى غالية جداً ! ولقد قلت لى إن الملحق الذى لا يملك عربة نقل هو ... أظن أنك استعملت هذه المقارنة : إنه حلزون بلا قوقعة ؛ وأرى أن التشبيه صحيح فيما عدا السرعة التى لم تكن قط من صفات الحيوان الذى أشرت إليه .

إنى أحب المزاح ولقد كان لى الكثير من جنونيات الشباب . إلا أننى أفكر فى مهنتى تفكيراً جاداً واهتم بمستقبلى وأتبع فى ذلك نصائحك الطيبة . ولكن لسوء الحظ ان جميع الشبان لا يفكرون بنفس هذه الطريقة . من تظن قد التقيت به على مائدة فندق انجلترا ؟ ...

لقد سمعت أحدهم ينادينى من طرف المائدة المقابل فالتفت وظننت أنى أخطأت ... ولكن على الإطلاق . إنه ابن عمى فريتز الذى سافر من باريس قبل سفرى بثمانية أيام وسافر لزيارتك فى أرضك فى مقاطعة بريجور .

وأنت تدرك يا عمى أن الفكرة ليست من عنده ولكن من إيحاء

أبيه الذى يظن دائما أننى أتقرب إليك على حساب ابن عمى . ول
رحمه الله فأنت تعلم أننى لم أذكره بسوء قط . وإذا كان قد رفض
عمل معقول أو انخرط فى أعمال تافهة كثيرة ، وإذا كان قد بدد كل أم
والدته وثلث إقطاعيتنا وإذا كان قد تجول فى العالم مع أذواقه الفنية واد
الحذق فى القول وغرامياته الجنونية ونزواته الكثيرة التى تصطدم بجميع ا
الموروثة ، فأنت تعلم يا عمى أن كل ذلك لا يشغلنى كثيرا . ومع ذ
فإنى اعترف أنه ليس من الأمور اللطيفة بالنسبة لى أن التقى بطائش ،
هذا فى المجتمعات الراقية التى يدعوننى إليها مركزى .

ولم يصل الأمر بعد إلى هذا الحال فمازلنا على مائدة فندق ميونخ
ولا أدرى لماذا لم أطلب أن يقدم لى الطعام فى جناحى مما كان يعفينى
هذا اللقاء . وفى كل مرة لا يتصرف فيها المرء كرجل ممتاز يلقى ما يلوم
نفسه . هذا هو أحد مبادئك التى لن أنساها وهذا هو الحديث الذى
على بعد بيننا ؛ وتتصور طبعا أننى لم أكن أرد إلا بكلمات من مقد
واحد . ولم يكن حول المائدة إلا مسافرون من الانجليز والألمان ولك
كانوا يفهموننا جيداً ، كان يمزح معى ، بخفة دمه التى تعرفها عنه حو
مركزى الديبلوماسى الجديد ويسألنى ما إذا كنت أحضر السلم أم الحرب
وغير ذلك من ألوان الجنون . وأشرت إليه أن ليس من الحذر أن يتك
بهذه الطريقة . وفعلاً علمت بعد ذلك أن كان ثمة جاسوس بروس
وجاسوس انجليزى إلى هذه المائدة . وأنا نفسى كانوا يعتبروننى جاسو
فرنسيا رغم لقبى كملحق . وبجهل الألمان ، أولا يريدون الاعتراف با

حكومتنا لا تلجأ إلى مثل هذه الوسائل ، وأننا لا نمارس أبداً إلا سياسة صادقة ودستورية .

وانتهى بى الأمر أن نهضت وأخذته على انفراد وأفهمته كل مافى تصرفه من مظهر فاضح لى . وقلت له : «إننا لم نعد من الشبان المخبولين ، وإن ثقة الحكومة قد خلقت لى لقبا وواجبات جدد . وإن عربة التنقل التى أقلتنى إلى فيينا ربما كانت تحمل أقدار بلد كبير ... فقال لى ابن عمى على الفور : هل لك عربة نقل ؟ ـ أنا لا أسافر إلا بهذه الطريقة ـ هذا أمر مريح للغاية إذا لم تكن تريد السفر سيراً على الأقدام . أما أنا فأسافر على الاقدام إذا كان البلد جميلاً ـ إنها لمتعة ـ مثلا هذا البلد حزين للغاية ، فالريف باهت ورملى وغابات الصنوبر مهمتها تغيير المنظر ، والأنهار بلا ماء والمدن بلا حجارة والحانات بلا نبيذ والنساء ... » وسارعت بقطع حديثه وإلا لفضحنى أكثر . وقلت له : «لابد أن أستأنف السفر ، وأنا لم أتوقف فى ميونخ إلا لتناول الغداء ـ تقصد تناول العشاء لأنهم يتناولون الغداء هنا الساعة الواحدة ، والساعة الآن الثامنة ـ وداعاً إذن . ألا تبقى لرؤية السيدة شريدو ديفربان العجوز فى رواية ميديه ؟ ـ لدى واجبات أكثر إلحاحاً ـ إنى قادر على القيام بعمل جونى ... ـ أعتقد ذلك ـ هذا هو مركزى . وكنت قد سافرت من باريس لزيارة عمنا واخترت طريق بورجونيا لتجنب طرق وسط البلاد ذات الوتيرة الواحدة . وقمت بلفة لرؤية جبال جورا ثم لرؤية كونستانس ، مدينة المجامع الدينية (إن زخارف الأوبرا غير صحيحة

إطلاقا ، وهى على حق) وأجمل ما فى كونستانس السفينة البخارية التى تبعدك عنها والتى تجعلك تشاهد فى ست ساعات خمس أمم مختلفة . ولم أكن أرغب إلا فى أن أضع قدمى فى بافاريا ولكن فى ليندرو ذكروا لى الأعاجيب عن ميونخ .وجبت المدينة فى يوم واحد واكتفيت منها بذلك إن لديك مكانا شاغرا فى عربتك وأنت ذاهب إلى فيينا ولذا فسوف أرافقك . فأنا متشوق جداً لرؤية هذه العاصمة » .

وظننت أننى أوقفه إذ أسأله ما إذا كان يحمل خطابات اعتماد فأرانى نشرة من أحد أفراد آل روتشيلد توصى به لدى مراسليه . ولا أدرى ما هى قيمة هذه الورقة التى بدت لى مجرد خطاب مجاملة . ولكن سوف تحكم على الأمر فى فيينا . وقد علمت من مصدر موثوق به أنهم فى فيينا لا يسمحون للأجنبى الذى لا تكون حافظة نقوده مليئة تماما بالبقاء أربعا وعشرين ساعة .

ورغم كل شىء فقد تسليت بحديثه أثناء الطريق الذى لم يكن مريحا لاسيما فى سالزبرج وهى أحد الأماكن ذات الأرض البكر . وفى فيينا نزل فى خان الضواحى مدعيا أنه يريد أن يظل مجهولا . وقد فرحت لذلك ووددت لو التقيت به بأقل قدر ممكن . ولابد أنه سيكتب إليك ليعتذر عن أنه أخذ طريق فيينا بدلا من طريق بريجور . صحيح أن الأرض كروية وليس ثمة ما يمنعه من الذهاب لزيارتك وتقديم احترامه لك خلال العام القادم .

هنرى دى برىجاس

خطاب من فرتيز

إلى صديقه تيموتيه أونيل فى باريس :

لقد أخذت منى وعدا يا عزيزى تيموتيه بأن أرسل لك انطباعاتى .... وكنت أود أن أكتب لك خطابا طويلا عن فيينا ولكنى تأخرت كثيرا فى ذلك حتى أنى لم أعد أعرف ما أخبرك به ولا كيف أثير اهتمامك . وقد تكون تلك المهمة سهلة بالنسبة لى بعد وصولى بخمسة عشر يوماً لأن كل شىء حينئذ كان يثير دهشتى ، وكل شىء كان جديداً بالنسبة لى ، الملابس والعادات والتقاليد واللغة ومظهر هذه المدينة الكبيرة الواقعة فى طرف أوربا المتحضرة تقريبا ، الغنية الغرور مثل باريس والتى لا تستعير منها لا جميع مستحدثاتها ولا جميع متعها . كانت هذه المتناقضات تأسرنى بشدة وكنت كفيلا بالتعبير عنها بحرارة وشاعرية . أما اليوم فإن إقامة ثلاثة أشهر قد جعلتنى أعتاد كل هذه الأمور الجديدة . وهأنذا فى حيرة الباريسى الذى يطلب منه وصف باريس . لقد أصبحت

كأنى من أبناء فيينا تماماً وأعيش عاداتها دون أن أفكر فيها وأبذل جهداً لأكتشف أوجه الخلاف بينها وبين عاداتنا .

صحيح أنني وقد تغلغلت أكثر فى المجتمع فلابد لى من الهبوط كثيرا إذا أردت البحث عن الخصوصية المحلية التى لاتوجد فى كل مكان إلا فى الطبقات الدنيا . ولابد لى من أن أفعل ما فعله هوفمان الطيب الذى خرج فى ليلة القديس سيلفستر بالمعطف والبنطلون القصير من سهرة المستشار الخاص حيث شرب الشاى الجميل . وفى الطريق تذكر المخلوق المسكين الذى يدعى البيرة الصغيرة . وحينئذ ورغم احتقار جمهور من ذوى المكانة الاجتماعية والخاصة لم يخش الهبوط بملابس الاحتفال على الدرجات المتآكلة لهذا الخان الشهير حيث التقى على نفس المائدة مع الرجل الذى فقد ظله والرجل الذى فقد انعكاسه .

لا تدهش إذن إذ حدثتك مرة عن القصر وأخرى عن الخان . إن صفة الأجنبى تعطينى الحق فى التردد على هذا وذاك والاحتكاك بفلاح بوهيميا أو ستريا الذى يرتدى جلود الحيوان أو الأمير أو العظيم ممن يرتدون الفراك الأسود مثلى . أما هؤلاء الأخيرون فأنت تعرفهم جيداً فهم أناس من مجتمعنا فى باريس وهم يدعون أنهم مواطنون لنا وعلى قدم المساواة معنا ما استطاعوا ، مثل ملوك الشرق الذين اختالوا زهوا فيما مضى بلقب بورجوازى رومانى . لنبدأ إذن بالشارع والخان ثم فلنتوجه بعد ذلك إلى القصر متى أردنا حين يتجمل ويضاء ويملأ بالثياب الباهرة والفنانين الممتازين ، وحين يكف لفرط فخامته وثرائه أن يشبه فنادقنا وبيوتنا

إنها مدينة تستحق أن تراها بجميع طوابقها لأنها مسكونة بطريقة غير عادية رغم أن مظهرها لأول وهلة لا يبدو إلا مبتذلاً .

ولكن تلك انطباعة جد متحررة وجد فرنسية لم يعرفها أبداً شعب فيينا السعيد بكل تأكيد . أما أنا فقد تذكرت بضع صفحات من قصة اسمها على ما أظن« فردريك ستندال »[٦٣] شعر فيها البطل بحزن مميت يوم وصل إلى العاصمة .

... «ليس ثمة مكان هنا إلا للأغنياء والتجار وخدمهم . فالعربات تتقابل بضجة فى الظل الذى يهبط سريعا وسط هذه الشوارع الضيقة بين هذه المنازل العالية . ولا تلبث الحوانيت أن تتألق بالضوء والثروات وتضاء الأبهاء . وثمة سويسريون ذوو أجسام ضخمة وملابس مزدانة بالكثير من الأشرطة ينتظرون تحت كل باب تقريبا المواكب التى تعود شيئا فشيئا . إن كل هذا الترف الوقح كان يخيف فردريك ستندال وكان يقول فى نفسه أن لابد من الجرأة للتغلغل فى هذا العالم الفريد فى نوعه المقفل والشديد الحراسة . وأظن أنه ، أثناء تفكيره فى هذه الأمور ، قلبته عربة سيدة جميلة نبيلة أصبحت فيما بعد مرشدته ومصدر سعادته » .

وإذا لم تخنى ذاكرتى كانت تلك بداية تلك القصة التى سقطت الآن فى ظلام النسيان . وآسف لأنى لم احتفظ بانطباعة أخرى لأن هذه الانطباعة صحيحة وحقيقية . كما أنه ليس ثمة ماهو أكثر كآبة منها .

---

(٦٣) فردريك ستندال أو السنة القاتلة (١٨٢٧ ، خمسة أجزاء) بقلم أوجست كبراترى .

٧ ـ بقية المذكرات

ص ٤٩ .

إن الأمر لا يتعلق هنا إطلاقا برقص الحواجز لدينا ، تلك الرقصات الصاخبة البسيطة التى ينطلق فيها الباريسى المرح حيث يمثل جندى الحرس دور الحياء ويقف من بعيد لبعيد كعمود فى شكل تمثال صارم . أما هنا فجنود الحرس لا وجود لهم (أو من يحل محلهم فى فيينا) ، والفالس هو الرقصة الشعبية الوحيدة ، إلا أن الفالس بالطريقة التى يفهمونه بها ينبغى أن يكون رقصة الملذات الوثنية أو السبت القوطى . وكان جوته يتصور هذا المثال أمام عينيه حين رسم ليله « فالبورجيس » وجعل فوست يتقلب بين ذراعى تلك الساحرة المجنونة التى كان فمها يسقط الجرذان الحمراء وسط ثمل اللذة .

وعلى كل فإن هذه الرقصات المجنونة لا تحتوى على أية نوايا أو حركات تحتمل اللبس من تلك التى قد يحمر لها خجلا سكان الضواحى المنحطين فى بلادنا . إنها رقصات بسيطة وجادة مثل الطبيعة والحب . إنه

فالس عاطفى وليس شهوانيا ، جديرًا بشعب حاد المزاج وبسيط لم يقرأ فولتير ولا يغنى بيرانجيه . وإن ما يدهش هو قوة هؤلاء الناس والسحر والهدوء والنضارة الدائمة لهؤلاء النساء اللاتى لا يتكلمن واللاتى لا يخشين أبداً أن يظهرن بالنهار ملامح أضناها التعب والذبول . وينبغى أن نلاحظ كذلك أنهن لا يبدين اهتماما بالراقصين . إنهن يرقصن الفالس مع الرجل وسوف أشرح لك فيما بعد كيف أنهن يبدون كما لو كن يتمادين فى هذه السهولة وهذا البرود وهذا الاستسلام .

ص ٥٠

وبعد ذلك يأتى بعض المرتجلين فيقدمون أشعاراً يقرأونها بلهجة تمثيلية متصنعة .

وذات يوم صدم أذنى اسم نابليون الذى بدا لى أنه يرن من أعلى هذه القباب وسط هذا الاجتماع نصف السلافى ونصف الألمانى . إنها أنشودة سدلتيز الرائعة ، الجملة الليلية التى يتغنون بها هنا . وقد قوبلت هذه المقطوعة الشعرية الكبيرة بالتصفيق والحماس لأن ألمانيا لم تعد تذكر إلا أمجاد الفاتح . ولكن هذا لم يمنع الفالس من أن يستأنف فى نشاطه بعد هذه الأنشودة الحزينة مباشرة التى أثارت ذكرى الكثير من الظلال المقدسة من أرض ألمانيا أو من أرض فرنسا ...

... وقد ذكرنى بهذا الجزء من «**الاعترافات**» الذى يصف فيه روسو المتعة الكبيرة التى كان يشعر بها وهو جالس فى مقعد وثير أمام نافذة

مفتوحة على أفق شاسع ساعة غروب الشمس ، وهو يقرأ كتابا يعجبه ويغمس بعض البسكويت فى كأس من نبيذ شمبانيا . وفى تلك الأثناء تدق أجراس الكنائس من بعيد وترسل له الحديقة أنفاساً معطرة . هل نعتقد أن الانطباعات الكثيرة متجمعة بعضها بعضا أو تتعب الحواس ؟ ولكن أليس الأصح أنه ينتج عن اختيارها نوع من التناسق ثمين بالنسبة للعقول ذات النشاط الواسع ؟...

... كتبت إليك ... سوف تعتقد أننى مجنون من السرور ولكن كلا فإنى هادىء جداً يا صديقى والأمر كما سأقول لك ... فإنى عشيق سيدة كبيرة ، إنهن هؤلاء السيدات الكبار كما ترى ! كما كان يقول صديقنا بوكاج . رباه ! ربما كنت مخطئا إذ كتبت لك كل ما تقدم . يجب أن أعطيك تأثير الإنسان التعس ، الأحمق ، الموظف الصغير المتنقل الذى لا يمثل بلده إلا فى الحانات والذى يقوده مذاق بيرة أو نبيذ المجر إلى غراميات سهلة للغاية . ومع ذلك فسوف تخطىء لو حكمت حكما سيئا على ألوان الجمال التى ستمر أمامك . إنهن سوف يحتللن مكانا جميلا فى كتالوجى وإذا كان لابد أن أدون يوما : فى ألمانيا ، ٢٣٠ ! إننى مازلت بعيدا عن إصدار حكمى . كانت للمغامرة الأولى نهاية منطقية مرضية ، أما الثانية فقد طارت من يدى والثالثة .. أه ! آسف لأنى لم أكتب لك عنها . ص ٥٥

لست أدرى ما إذا كانت كل تلك التفصيلات تهمك ، ولكنها ثمينة بالنسبة لى فى الوقت الحاضر لاسيما أن عدد الصور التى أملكها يقل

من يوم ليوم . ولا تدعنا نتوقف لدى هذا التفصيل ولنذهب لتناول القهوة وسط المدينة بالقرب من ميدان جرابن المتلألىء الذى لا يدل اسمه الكئيب (القبر) على كل هذه الروائع .

ص ٥٦

إنه سعيد ذلك الشعب الذى مازال يسلى نفسه بهذه التفاهات ! وإنى لأتساءل ماإذا كان من الممكن أن تقوم ثورة فى فيينا . إن طرق الجرانيت المنحوتة نحتا رائعا تبدو كما لو كانت ملحومة بالقار وملتصقة إحداها بالآخرى بشكل يبدو معه من المستحيل نزعها لإقامة متاريس . إن كل طريق قد كلف الحكومة ثروة . فهل يتوصلون بهذه التضحيات إلى تجنب نشوب ثورة ؟

ص ٥٩

لم أدهش إطلاقا لهذا الاعتراف فقد كنت أعرف أن جميع الرسائل تمر «بمكتب أسود» لا فى النمسا فقط ولكن فى معظم بلاد ألمانيا . فأدرت الحديث ناحية المزاح حتى أننى اكتسبت ثقة البارون دى سى *** الذى سوف يقدم لى هو نفسه موضوعات جديرة بالملاحظة ... ألسنا نحن معشر الكتاب أعضاء فى نوع من الشرطة الأخلاقية؟ ...

١٤ يناير : بالأمس استدعانى البارون دى سى *** ! إلى منزله وقال لى : «سل نفسك بقراءة هذا الخطاب» وكانت دهشتى كبيرة إذ رأيت أنه موجه إلى عمى بريجور وأنه نسخة من خطاب ابن عمى هنرى الديبلوماسى الذى غادر فيينا منذ بضعة أيام . وهذا هو الخطاب ...

... هذا هو خطاب الغلام ... فما رأيك ؟ هكذا يقوم الأهل بخدمة الأبناء . وأوصانى دى سى * * * بالسرية التامة فيما يختص بتوصيلاته الودية . ولكن ألا ترى أن شرطة فيينا الأبوية تصلح لشيء ما ... على الأقل حين يكون للمرء أصدقاء ! وسوف أحيطك علماً فيما بعد بأفكارى .

ص ٦١

أحدهم ، الذى يدعى بعض الأفكار الاشتراكية ، عنى بأن يعلن للأمير دى ولا تنس أنه كذلك صديق للأميرة ـ إنه يريد أن يبدو مجرد مدعو فى الحفلة الأولى التى سوف تقام فى القصر ولن يلعب بأية آلة .

وقال له الأمير : إن الأمر سهل ، سوف أقول إنك مريض »

ـ كلا ، إنى متمسك بعدم الظهور بمظهر المرض ـ حسن ! يا صديقى ، سوف أتحدث إلى أصدقائى » . والنتيجة أن الفنان لم يتلق دعوة وسافر ثائرا إلى المجر حيث عوضته الترحيبات الرائعة عن التقاليد السخيفة لصالونات فيينا .

... ولكى لا نغادر حلقات المتع الشعبية فى فيينا ، لأنها أول شيء يلفت نظر الأجنبى لدى قدومه ، ينبغى أن أحدثك كذلك عن الحفلات الراقصة سبرل Spetl وبرن Birn التى تتجه فى واقع الأمر إلى الطبقة الأكثر يسرا . وال سبرل Spetl هو مبنى واسع رائع الزخرف كان ستراوس يقود فيه الجوقة كما كان يقود لانر Lanner جوقه برن Birn .

وهنا النساء أكثر أناقة رغم أنهن لا يتعدين إطلاقا طبقة العاملات . والجمهور هو نفس جمهور موزار تقريبا ولكن الفالس فى نفس قوة وجنون فالس الحانات وسحب الدخان التى يهزها الرقص ليست أقل كثافة . وفى السبرل يتناول الناس العشاء وسط الرقص والموسيقى والجموع تعدو بين الموائد دون أن تقلق من يتناولون عشاءهم . وأول مظهر من مظاهر السبرل ذكرنى برقصات موزيكوس musicos فى هولندة . وأحب أن أعتقد أن مستوى الراقصات ـ يمت إلى مستوى أكثر احتراماً من ذلك الذى قدمت جداته النماذج إلى الرسام روبنز Rubens .

ولابد أن هؤلاء الجدات لم تعذبهن حكومة النمسا الأبوية . ويؤكد الأجانب الأدعياء أن هذا النظام أبعد من أن يصلح الأخلاق . ولا يكاد أحدهم شتاء فى فيينا حتى يعد لك على الأقل مائتين وثلاثين مغامرة غرامية تكون فيلق ألمانيا فى قائمة دون جوان .

ولكن تلك مبالغات سببتها سهولة نساء فيينا فى الدخول فى الحديث مع الفرسان الذين يجلسون بجوارهن فى المسارح أو المراقص . فإذا قالوا لك إن السيدات الكبار ينتمين نوعاً ما إلى القرن الثامن عشر فى هذا البلد حيث القرن التاسع عشر لم يبدأ بعد فلا تصدق كل ما يردده أمثال كازانوفا من المحدثين ، ولكن لا تنس كذلك أن عدد النساء الجميلات من الكثرة فى النمسا بحيث إن معظمهن يتناسب اعتزازهن بأنفسهن بمقدار ما يحظى جمالهن من تقدير .

إن جمال النساء مازال يستجلب دهشة الأجنبي الذي يمر بلنتز Lintz أولى مدن النمسا من ناحية بافاريا . وقد وصلت إليها يوم أحد ورأيت نساء الريف يذهبن إلى الكنائس . وكن يرتدين جميعا تقريبا الملابس الوطنية : وهي أنصاف أثواب ذات ألوان زاهية وميدعات مطرزة وعقود وغطاء رأس من الصوف المذهب الكفيل بالاستحواذ على إعجاب السيد ديبونشيل Duponchel . كانت هذه النساء بصفة عامة رائعات الجمال . وإن كتب الأسفار لم تقصر فى تحذير المسافرين من ذلك إن بياناتها ، فى هذا الصدد على الأقل صحيحة تماماً . وقضيت اليوم أجوب الميادين والطرقات دون أن أمل من هذا الإعجاب . ومع ذلك فى لينتز فإن نمط الملامح واحد تقريبا :

إنهن نساء طويلات القامة ويتسمن بوجه منتظم هادىء وعينين زرقاوين . وهن شقراوات بيضاوات البشرة ذوات لون رقيق مشترك بين الفلاحات وساكنات المدن . ومع الوقت يمل المرء هذا الشكل الموحد الذى يفسر جمالهن كما يفسر نقاء الدم وروعة المناخ السلالات الطيبة بين الحيوانات .

أما فى فيينا فعلى العكس فالوجوه متغيرة جداً رغم أنه مازال فى الإمكان تصنيفها فى عدد قليل من الانماط المتشابهة . وعلى العموم سواء أكن شقراوات أم سمراوات فبشرتهن جميعا بيضاء رقيقة وقوامهن مكتمل وأذرعتهن رائعة . ويمكننا القول بأن الطبقة المتوسطة هى أقل الطبقات حظا . إلا أن جمال الارستقراطية التى نراها مجتمعة فى السهرات الكبرى

وفى الحفلات الموسيقية ، وجمال الطبقة الدنيا الذى لا ينقص فى اجتماعات السبرل والفولكس جارتن تتنافس فى فرص متساوية بين الجمال والنضارة بل حتى الاناقة والجاذبية .

إنها بلاد سعيدة لاسيما إذا فكرنا فى المخلوقات التعسة التى تملأ مدننا وريفنا . إنه دليل الحياة الطيبة التى تحياها الطبقة الدنيا والعمل السهل الذى يكفل لها تلك الحياة . ودون أن أدعى إطراء حكومة النمسا فإنى أؤكد أنها أفضل حكومة بالنسبة لسعادة الشعب وسعادة الطبقات العليا على السواء . أما البورجوازية فنحن نعلم أنها هى التى تكسب فى الثورات ....

ص ٦٢

إن أكبر حدائقها العامة توجد على مسافة قريبة فى حى ليوبولدستار . وحين دخلت إليها كانت ممراتها الطويلة خالية وأرضياتها مصفرة . ومع ذلك كانت ثمة زهرات مازالت بادية وبعض شجيرات الورد التى حطمتها الريح قد تركت ورودها تتردى فى الوحل . ومن بعيد لبعيد نكتشف آفاقا ساحرة . فالجبال التى تعلوها القصور تدل من بعد على شاطىء الدلنوب . وثمة حديقة أخرى يسمونها حديقة الشعب تقع داخل الأسوار بالقرب من القصر الامبراطورى .

ص ٦٣

حين وصلت إلى فيينا كان ثمة مسرحية ميلودراما للممثلة مدام

بيرشفيفر mme Birchpfeiffer تسمى **الستيريون** » تعرض بنجاح كبير . وفى تلك الأثناء كان يعرض فى ليوبولدستار مسرحية ثانية لنفس السيدة تسمى «**روبير النمر**» . ومدام بير شفيفر تعادل بوشاردى فى المسرح الألمانى . وهى تسمى مسرحياتها بصراحة دراما شعبية . ولكن نكون قد بالغنا فى تكريمها لو قارناها بمواطنتنا الشابة اللهم إلا بالنجاح الذى تحققه . وقد شاهدت كذلك فى مسرح فيينا عرض مسرحية «**جيللوم تل**» لشيلر مما يدل على أن الرقابة الامبراطورية ليست بالشدة التى يصورونها بها ، ذلك أن أحداً لن يعترض على حقها فى منع عرض مسرحية «**جيللوم تل**»

ولكن الرقابة سمحت لنا كذلك برؤية عرض مسرحية «**روى بلا**» Ruy Bles فى ليوبولدستار باسم «**سيد وخادم**» . صحيح أن الخاتمة تغيرت قليلا . ولا يفعل روى بلا سوى تهديد سيده بهذا السيف الشهير الذى انتزعه منه فى جرأة كبيرة . وتفسير ذلك أن الخادم عثر على أهله كما حدث لفيجارو ولكنه كان أسعد من هذا الأخير حظا فقد وجدهم أغنياء ومن كبار السادة . وأظن كذلك أنه فى الخاتمة قد تزوج الملكة وأصبح يشغل وظيفة زوج الملكة الرسمية وهى دستورية للغاية .

... إن مسارح ليوبولوستار وفيينا تخدمها جميعا فرقة المدير كارل . وقلب مجموعة التمثيليات التى تعرضها تلك الفرقة تتكون من «مهازل محلية» وهى نوع من المسرحيات الغريبة ذات المشاهد الكبيرة التى لا يملها أهل فيينا . ولكى نأخذ فكرة عن ذلك فى فرنسا ينبغى أن نجمع بين

التمثيليات الصامتة لدى بيرو Debureau فى أغرب أنواع الفودفيل التى تعرض فى مسرح المتنوعات . أما مسرح البهلوانات فيعرض ما يشبه العرض السريع . ولا يتحمل العقل المنطق المنتظم للبورجوازى الباريسى الحرية الجنونية والمرح الساخر لهذه التركيبات . وأشهرها ، والتى تعتبر نموذجا لهذا النوع تسمى : «**ثلاثون عاما من حياة متشرد**» . ومعظم المسرحيات الهزلية المحلية هذه يقوم بتركيبها ممثل يدعى نسترو ويلعب فيها أهم الأدوار بكثير من القوة وخفة الدم .

أما مسرح جوزيفستاد الذى يشبه من الداخل قاعة الجمنيزيوم لدينا فقد شغلته لمدة شهرين جلسات عرض مسرحى لطبيب يدعى دوبلر . وهذا الفنان لا يرتفع إلى مستوى أعلى من بوسكو الذى يستحوذ حاليا على إعجاب جمهور القسطنطينية . ومنذ رحيله قام جوزيفستاد بتجديد موضوع «**ثورة فى السراى**» العتيق الذى يحقق نجاحاً ساحقا هذه الأيام بسبب الممثلات الجميلات ومغامرات الاتراك التعساء الذين تحولوا إلى أوربيين . ولم يبدأ شعب فيينا يضحك من الأتراك إلا منذ سنوات قلائل وهذا يفسر غلوه فى المرح .

وفى جوزيفستاد شهدت عرضا لا نعرف عنه أدنى فكرة فى فرنسا . إنها مسرحية «الأكاديمية» للكاتب الشهير سفير ، وهو من ألمع الصحفيين والشعراء فى ألمانيا . وقد اشترك فى هذه الجلسة الأدبية مجموعة من الفنانين . وبدأت الجلسة بمشهد شعرى لسفير يسمى : «تصريف فعل يحب» وكانت تمثل فيه ثلاث من أجمل ممثلات المسرح الأمبراطورى

فتقوم إحداهن بدور المدرسة والاثنتان الأخريان بدور التلميذات . وكانت هذه الفكرة اللماحة معروضة عرضا رائعا . وبعد ذلك «المجلة الليلية لنابليون» قام بغنائها ممثل من مسرح كورنثيا بمصاحبة بيانو من ليست . وخلف بريو ليست . ثم أتت الآنسة كارولين ميللر لتقوم وحدها بتمثيل كوميديا من ثلاثة فصول قصيرة جدا لحسن الحظ من تأليف سفير كذلك . وهى نوع من السخرية الكاريكاتورية يقوم الكاتب فيها بنقد مسرحياتنا الحديثة . وقد اقتسمت الآنسة كارولين ميللر التصفيق الموجه للمسرحية . ومعروف أن هذه الممثلة يسمونها «مارس» ألمانيا . وقد لاحظ صحفى من فيينا أخيرا بهذا الخصوص أنه قد يكون من الأنسب أن نقول إن الآنسة مارس هى كارولين ميللر فرنسا . وقد أعلنا أننا لا نعترض على ذلك .

واختتمت الجلسة الأكاديمية بعد قراءة الكثير من الأشعار بقراءة ساخرة قام بها السفير بنفسه . وقد شعرنا فى أول الأمر ببعض القلق على هذه المسرحية الأدبية الطويلة التى تعرض بعد الممثلين والمغنيين وبعد ليست وبريو . ثم بعد ذلك يقرأون لجمهور فرنسى مقالا غير منشور لفولتير بحيث يطلب بسرعة جياده وحذاءه الخفيف مثل مسيو دى بوفون Buffon . ولكن ! إن جمهور فييناالممتاز هذا قد ظل ساكنا لدى قراءة هذا المقال الذى يدور حول موضوع فلسفى غريب . وصفق السفير وطلب إعادة القراءة مرتين . تلك هى الأكاديمية فى مدن ألمانيا : فالأديب يقدم حفلات شعرية وموسيقية شأنه شأن أى ممثل ممارس . وقد جلبت «الأكاديمية» لسفير ثلاثة آلاف فلورين .

وفى خطابى القادم سوف أحاول ادخالك إلى فيينا نفسها وإعطاءك فكرة عن متع مجتمعها الكبير . وقد ظننت أننى يجب أن أفصل هذا عن ذاك ذلك لأن فى فيينا كذلك يوجد مجتمع كبير وينبغى ألا تشك فى ذلك .

١٠ ـ بقية المذكرات

ص ٧٣

قال أبوللو لقسيسه : « سوف أعرفك الحقيقة حول عرافة ديلفى وكلاروس . فى الماضى كان يخرج من بطن الأرض والغابات عدد لا نهاية له من الإخراجات والعرافات اللاتى يوحين بالغضب الإلهى . ولكن الأرض بسبب التغيرات المستمرة التى تحدث مع الوقت أخذت تدخل فى بطنها النافورات والإخراجات والعرافات » .

هذا هو ما حكاه بورفير كما يقول أوزيب Eusebe

وهكذا فقد انطفأت الآلهة نفسها أو غادرت الأرض التى لم يعد حب الناس يستدعيهم إليها ! وقطعت حدائقهم ونضبت ينابيعهم ، ودنست معابدهم . فكيف يتسنى لهم الظهور بعد ذلك ؟ إيه يا ڤينوس ـ أورانى ! يا ملكة هذه الجزيرة وهذا الجبل حيث كانت ملامحك الجميلة تهدد العالم . يا ڤينوس المسلحة ! التى حكمت فى الكابيتول حيث حييت

(فى المتحف) تمثالك الذى مازال قائما . لماذا لا توجد لدى الشجاعة للإيمان بك ودعوتك أيتها الإلهة ! وكما فعل آباؤنا مدة طويلة بورع وبساطة ؟ ألست مصدر كل حب وكل طموح نبيل ، ألست ثانية الأمهات المقدسات اللاتى يحكمن وسط العالم ويحمين ويحرسن الأنماط الخالدة التى خلقت لتقاوم الموت الذى يغيرها أو العدم الذى يجذبها إليه ؟ ... ولكنكن مازلتن هنا بكواكبكن المتألقة والرجل مضطر إلى الاعتراف بكن فى السماء والعلم إلى أن يسميكن بأسمائكن . أيتها الآلهات الثلاث الكبيرات هل تصفحن للأرض عقوقها ! إذ نسيت مذابح معابدكن ؟[٦٤]

ص ٧٤

ومع ذلك فمن ذا الذى يتعرف فى التمثال الموغل فى القدم الذى قمنا بوصفه على فينوس اللعوب ملهمة الشعراء وأم الحب وزوجة فولكان الأعرج الطائشة ؟

كانوا يسمونها الحذرة والمنتصرة والمسيطرة على البحار ، والتى تغير العواطف الإجرامية والابنة البكر للغازلات الثلاث ، وهو لون من التسامى الكئيب . وعلى جانبى التمثال المطلى والمذهب يقوم إلها الحب إروس Etos وأنتروس Anteros ويقدمان لأمهما الخشخاش والرمان .

---

(٦٤) إستشهاد أوزيب مفقول حرفيا من « تاريخ الطرفات » لفونتيل ، المقال الثانى الفصل الأول .

والرمز الذى يميزها عن غيرها من الآلهة هو الهلال الذى تعلوه نجمة ذات أشعة ثمانية . وهذا الرمز المطرز على القطيفة القرمزية مازال يسيطر على الشرق ولكن لدى الذين يتباهون به فإن فينوس تحتفظ دائما بالخمار على رأسها وبالسلاسل حول قدميها .

هذا هو ما كانت عليه الإلهة الوقور التى كانوا يعبدونها فى سبرطة وكورينشيا وجزء من جزيرة سيتير Cipthere ذات الصخور الصلدة . لقد كانت حقا ابنة البحار التى يخضبها دم أروانوس المقدس والتى انفصلت باردة من جوانب الطبيعة والخضم المختلط .

أما فينوس الأخرى ، ذلك أن الكثير من الشعراء والفلاسفة الإغريق ، لاسيما أفلاطون ، قد اعترفوا بوجود إلهتين مختلفتين باسم فينوس ـ كانت ابنه جوبيتر وديونيه . وكانوا يسمونها فينوس الشعبية وكان لها فى الجانب الآخر من جزيرة سيتير معابد ومؤمنون مختلفون عن معابد وعباد فينوس ـ أورانى . وقد اهتم الشعراء بهذه الإلهة التى لم تكن كالأخرى فى حماية القوانين الدينية الصارمة وقدموا لها كل ما لديهم من فن الحب الجسدى الذى نقل إلينا صورة خاطئة جدا عن الديانة الجادة لدى الوثنيين . وماذا يقولون فى المستقبل عن طقوس المسيحية إذا اضطروا إلى الحكم عليها من خلال تفسيرات فولتير الساخرة أوبارنى ؟ إن لوسيان وأوفيد وآبوليوس ينتمون إلى عصور ليست أقل شكا وقد أثروا وحدهم على عقولنا السطحية التى لا تهتم كثيرا بدراسة الشعر القديم المتعلق بنشأة الكون والمشتق من مصادر كلدانية أو سريانية .

١٥ ـ سان نيكولو

ص ٨٢

... ربما نعثر على بعض آثار لفينوس الثالثة ابنة الغزالات الثلاث ، وملكة جزيرة Hades الغامضة . ذلك أنه لابد أن نلاحظ للخروج من المتاهة التى ألقى بنا فيها الشعراء اللاتينيون المتأخرون وعلماء الميثولوجيا من المحدثين أن كلا من كبار الآلهة كان له ثلاثة أجساد وكانوا يعبدونه فى صوره الثلاث : الصورة السماوية والأرضية والجهنمية . وهذه الثلاثية لا غرابة فيها بالنسبة لحكم العقول المسيحية التى تقبل وجود ثلاث شخصيات فى الله .

لم يأت أحد على الأقل فى اللحظة التى أبحرنا فيها يطلب منا أوراقنا . إن الجزر الإنجليزية لا تغالى فى استخدام قوانين الشرطة . وإذا كانت تشريعاتهم تنتهى دائما بضربة سوط من أسفل ومن أعلى على المشنقة فليس للأجانب على الأقل أن يخشوا شيئا من هذه الأنواع من الردع .

كنت متشوقا لتذوق أنبذة اليونان بدلا من نبيذ مالطة الغليظ القاتم الذى يقدمونه لنا منذ يومين على ظهر السفينة البخارية . ولذا فلم آنف من الدخول إلى الحان المتواضع الذى يستخدم كملتقى مشترك فى الساعات الأخرى بالنسبة لحرس الشواطىء الانجليز والبحارة اليونانيين . وكانت الواجهة المطلية للحان ، كما فى مالطة ، تحمل أسماء البيرة والخمور الانجليزية بحروف من ذهب . ولما رآنى صاحب الحان ارتدى اللباس الذى يسمى ماكنتوش mantoch اشتريته من ليفورن Livoutne أسرع بشراء كأس من الويسكى لى . وحاولت تذكر الاسم الذى يطلقه اليونانيون على النبيذ ونطقت به بطريقة جيدة فلم يستطع أحد أن يفهمنى .

ماذا استفدت من الحصول على درجة البكالوريا أمام السادة فيلمان وكوزان وجيزو مجتمعين وأننى قد سلبت فرنسا عشرين دقيقة من حياة هؤلاء الأساتذة لإظهار علمى ؟ لقد خلقت الكلية منى اخصائيا كبيرا فى الإغريقيات ولكن فى حان سريجو Cerigo حيث ذهبت أطلب النبيذ عاد صاحب الحان بكأس الويسكى الذى رفضته وقدم لى قدحاً من البورتر . وحينئذ استطعت تجميع ثلاث كلمات إيطالية ، ولما كان أحد لم يعلمنى تلك اللغة من قبل فقد نجحت بسهولة فى استحضار زجاجة مغلفة بالقش من السائل المعتق بجزيرة سيتير .

لقد كان نبيذا أحمر طيبا يحمل قليلا طعم القربة التى عاش فيها وبعض طعم القطران إلا أنه ملىء بالحرارة ويذكر بنبيذ أسبوتو الإيطالى . إيه يا دم العنقود الكريم ! كما كانت تسميك جورج ساند ، ماكدت

تدخل إلى جوفى حتى لم أعد نفس الشخص . ألست حقا دم أحد الآلهة ؟ وربما كما كان يقول اسقف كليون Cloyne دم العقول المتمردة التى كانت تناضل فى العصور القديمة على الأرض والتى هزمت ودمرت فى صورها الأولى فعادت فى النبيذ تثيرنا بعواطفها وغضبها وطموحها الغريب ! .. ولكن كلا ! إن ما يخرج من عروق تلك الجزيرة المقدسة ، من أرض بورفير المباركة حيث كانت تحكم فينوس السماوية لا يمكن أن يوحى إلا بالأفكار الطيبة الهادئة . ولذا فلم أفكر بعد ذلك فى شىء .

ص ٩٩

لم يعد لى أن أكثر من الكلام معك عن اليونان . ولكن كلمة واحدة فقط . فقد جررتك معى إلى قمة هذا الجبل المبنى من الخبز والسكر والذى تتوجه إليه المنازل ، الذى كنت أقارنه بالمدينة المعلقة فى الهواء ، مدينة لابوتا Laputa . ولابد من إنزالك من هذ القمة وإلا لظل فكرك ماثلا أبداً نحو شرفة كنيسة القديس جورج الكبير التى تشرف على مدينة سير syra القديمة . ولست أعرف ماهو أكثر حزنا من رحلة لاتتم . ولقد تألمت أكثر من أى شخص آخر لوفاة جاكمون[٦٥] المسكين . الذى ترك قدمى معلقة فى الهواء لست أدرى على أية قمة من قمم الهمالايا ، وهذا

---

(٦٥) رحالة فرنسى (١٨٠١ - ١٨٣٢) توفى فى بومباى بعد أن استكشف جبال الهمالايا ، وهو معروف لدى الرومانسيين وقد ذكره سانت - بيف كتلميذ لستندال حررته رحلته إلى الهند .

يضايقنى فى كل مرة أفكر فيها فى الهند إن يوريك الطيب نفسه لم يخش أن يسلمنا طوعاً إلى التطلع الدائم الأليم لمعرفة ما دار بين القسيس المبجل والسيدة البيمونتية فى هذه الغرفة الشهيرة ذات الفراشين التى نعرفها . ويدرج هذا ضمن عدد حالات البؤس الصغيرة والكبيرة للحياة البشرية . ويبدو أننا نواجه هؤلاء السحرة التعساء الذين يأخذونك فى دوامة سحرية لا يعرفون كيف يخرجونك منها فيتركونك فيها وقد تحولت ـ إلى ماذا ؟ إلى علامة استفهام .

إن ما كان يوقفنى ، وينبغى أن أقول لك ، كان الرغبة فى أن أحكى ـ والخوف من عدم القدرة على الكلام بطريقة ملائمة ـ أن أحكى المغامرة التى حدثت لى وأنا أنزل من الجبل فى أحد هذه الطواحين ذات الأجنحة الثمانية .

ص ١٠١

ياله من منظر حزين منظر النساء فى بلاد الشرق حيث ألغى المفهوم الخاطىء للأخلاق العاهرة المرحة غير المكترثة للشعراء والفلاسفة . هنا خلفت عاطفة كوريدون عاطفة ألسيبياد . إنه الجنس كله الذى يفسد من أجل تجنب ضرر أقل وأخذت البقعة تتسع دون أن تمحى والبؤس يحقق مكسبا خفيا يفسده ولا يفنيه لم يعد الأمر حتى صورة الحب الباهتة بل إنه شبحه المشئوم الأليم ، سوف ترى إلى أى حد تمتد الأحكام الاجتماعية المتجمدة الغاشمة والعاجزة فى وقت واحد . واليونانيون يحبون المسرح

اليوم كما كانوا يحبونه فى الماضى فأنت تجد قاعات مسرح فى أصغر المدن إلا أن جميع أدوار النساء يقوم بها الرجال .

ص ١٤٧

وبعد الغد كان عيد الفصح . وفى القاهرة ثمة ثلاثة أعياد فصح مختلفة . وعيد اليهود يتفق مع يوم الزعف وعيد اليونانيين والأقباط يأتى بعد أسبوع من عيدنا . والأمر يختلف مع السنين . ولكن بالنسبة للقاهرة ثمة ثلاثة أعياد مختلفة فتحتفل كل جماعة بعيدها بحرية فى حبها . وعيد الفصح لدى الأقباط هو أكثرها بريقا بسبب عدد هؤلاء المسيحيين الذين يفتخرون بأنهم سلالة أقدم سكان مصر . ويتم الاحتفال العام بالعيد فى ميدان الأزبكية فى الطرف الذى يلامس الحى القبطى . وهو تقريبا صورة من أعيادنا السوقية حتى فى الملابس وألعاب التوازن والشعوذة .

ص ١٤٨

البيت يفتح ويسمح بالدخول لامرأتين صحبهما الشاب بالقرب منى وكشفت المرأتان عن وجهيهما . كانتا أمه وأخته . وكان بيتهما يطل على المتنزه . وبعد التحيات الودية الأولى أخذ كل منا ينظر للآخر وينطق بكلمات تلقائية وهو يبتسم من هذا الجهل المتبادل . ولم تتكلم الصبية الصغيرة طبعا بدافع التحفظ . ووجهت إليها بعض كلمات بالإيطالية فردت فى رقة ولكن اختلاف اللهجة جعل الحديث يتسم بعدم الوضوح .

وحاولت أن أعبر عما فى التشابه بين السيدتين من لطف . فقد كانت

إحداهما فى الواقع صورة مصغرة للأخرى . وكانت الملامح التى مازالت غامضة للابنه يكمل رسمها ويزداد وضوحا لدى الأم ويمكن أن تتصور بين هذين العمرين موسما جميلا يحلو للنفس رؤيته يزهر . إيه ايها الزواج ! لماذا لا تكون هذه المرة سوى الأخ الأكبر للحب ؟

ومهما فعلنا فثمة تقليد دينى يمسك بالأوربى فى الشرق ويسيطر عليه على الأقل فى الظروف الخطيرة . فالزواج من صبية صغيرة جدا لا يمكن أن يكون اختيارها حراً دون أن يكون الرباط الذى يربطكما إجباريا بالنسبة لك مسئولية أخلاقية كبيرة . ولقد أعطانى هذا اللقاء لحظة فكرة زواج أكثر جدية مما يسمونه فى القاهرة بالزواج على الطريقة القبطية . ولم أستطع فهم الموقف بطريقة أخرى . والتفت ناحية الأب وطلبت من المترجم أن يقول له أن ثمة أعمالا ...

ص ١٤٩

بهذا الثمن سوف تحصل على نساء كثيرات ... فى السوق ـ ولكن كيف ، وأنت الذى ينبغى أن تدفع ! ـ (أنا الذى أدفع المهر ؟) أه ! إن الأمر إذن يختلف ! ينبغى أن أدفع المهر (على الأقل عشرين قرشا) بدلاً من أن أتلقى أنا المهر ؟ ـ بطبيعة الحال . أتجهل أن تلك هى العادة هنا ؟.

الوكيل ـ نعم ولكن لابد من دفع المبلغ (والأهل يحتفظون به إلى اليوم الذى قد يحدث فيه فراق) إنه تعويض صغير للأسرة .

وفهمت منذ ذلك الحين لهفة الأهالى فى هذا البلد على تزويج

فتياتهم الصغيرات . وفى رأيى أنه ليس ثمة ماهو أكثر عدلا من أن تدفع لتحصل على زوجة شابة وجميلة تعب أهلها فى تربيتها من أجلك . ولكن كل ما أسفت عليه هو أن حافظتى كمسافر لم تكن تسمح لى ببلوغ ذلك .

ويبدو أن البائنة ، أو على الأصح ، المهر يتغير كثيرا حسب جمال وشباب الزوجة الموعودة وكذلك حسب اختلاف مكانة الأهل . فالتطلعات تهبط حينئذ إلى نصف المبلغ المطلوب . وتلك تجارة يلعب فيها كل من الوكيل والخاطب دورهما كممثلين للطرفين . أضف إلى ذلك تكاليف العرس وسوف ترى أن الزواج على الطريقة القبطية قد أصبح هو كذلك إجراء مكلفا للغاية .

وفى رأى عبد الله أنه بنفس التكاليف يمكن الحصول على سراى كاملة من سوق الجوارى .

ص ١٦٤

إن مصر لا تملك حتى الآن سوى جريدتين ، إحداهما « المونيتور » وتطبع فى بولاق والأخرى « النهار » وتظهر فى الإسكندرية . وفى حقبة كفاحها ضد الباب العالى استجلب الباشا محررًا فرنسيا بتكاليف كبيرة أخذ يكافح بضعة أشهر ضد صحف القسطنطينية وأزمير . وكانت الصحيفة آلة من آلات الحرب كغيرها . لقد ألقت مصر السلاح حول هذه النقطة ولكن هذا لم يمنعها من أن تتلقى كثيرا فيض المنشورات العامة من البسفور .

١ ـ الماضى والمستقبل

ص ٢٠٠

حين سقطت الاسكندرية الكبيرة هذه تحت ضربات العرب أنفسهم كانت مصر كذلك هى أهم البلاد التى تحتفظ بالعلوم وتساعد على تقدمها بعد أن نهل منها العالم المسيحى . ولقد أطفأ حكم المماليك هذه الأنوار الأخيرة وينبغى أن نلاحظ أن الظلام الذى تردى فيه الشرق منذ ثلاثة قرون ليس نتيجة للمبادىء المحمدية ولكن للتأثير التركى . إن العبقرية العربية التى غطت العالم بالعجائب قد اختنقت تحت هؤلاء الحكام الأغبياء ففقدت ملائكة الإسلام أجنحتها وجنيات ألف ليلة وليلة شهدت تحطم طلاسمها . وانتشر نوع من البروتستانتية على جميع شعوب المشرق . وأصبح القرآن بفعل التفسير التركى ما كانت عليه التوراة للطهريين Puntaus الإنجليز أى وسيلة للتسوية بين كل شىء . واختفت الفنون والآداب والعلوم ابتداء من هذا الوقت لم تترك شاعرية التقاليد والمعتقدات الأولية هنا وهناك إلا آثاراً وكانت مصر كذلك هى التى حفظت أكثرها عمقا .

واليوم فإن هذا الشعب الذى تحمل القهر مدة طويلة لا يعيش إلا على الآراء الأجنبية . وهو فى حاجة إلى أن تعاد إليه الأنوار المتفرقة التى كان مهداً لها مدة طويلة . ولكن بأى عرفان وأية مهارة دائبة تراه ينطبع ويتقوى اليوم بكل ماهو آت من أوربا إن تحفنا العلمية والأدبية قد ترجمت إلى العربية وضاعفت المطابع من عددها . والآلاف من الشبان الذين ينشأون من أجل الحرب ينفقون أوقات فراغهم السلمية مع هذه التحف . هل يجوز أن نيأس من هذا الجنس القوى الذى فتح به ، فى الآونة الأخيرة ، محمد على امبراطورية الخلفاء وجددها دون تدخل من أوربا وكان فى إمكانه فى بضعة أيام قلب عرش عثمان ؟ يمكننا أن نتنبأ منذ الآن بأنه إذا لم يكن هذا النصر العسكرى الذى لم يترك لمصر الإجهاد. بعد الجهد الضائع ، إذا لم يكن هذا النصر قد تحقق فإن الحضارة والصناعة سوف تشغل القوى والذكاء والمحبة للعمل لتحقيق أمل آخر . وفى القسطنطينية نرى أن النظم الحديثة عقيمة . وفى القاهرة سوف تؤدى إلى نتائج كبيرة حين تؤدى سنوات عديدة من السلام إلى تنمية الرفاهية المادية .

٧ ـ حريم الوالى

ص ٢٢٦

ورأيت أن التركى وسط كل هذا لا يستطيع أن يتبع إلا شبح اللذة . لم يعد فى الشرق لا مغرمون كبار ولا باحثون كبار عن اللذة . إن الحب المثالى للمجنون أو عنتر قد نسيه المسلمون المحدثون كما أن حمية دون

ن غير الشابة ليست معروفة لديهم . إن لهم قصورًا جميلة دون أن
الفن وحدائق جميلة دون أن يحبوا الطبيعة ، ونساء جميلات دون
يفهموا الحب . وأنا لا أقول ذلك من أجل محمد على ، مقدونى
مل والذى أظهر روح الإسكندر فى أكثر من مناسبة . ولكنى آسف
لا هو ولا ابنه قد استطاعا أن يعيدا إلى الشرق تفوق الجنس العربى
الماضى الملىء بالذكاء والفروسية . ذلك أن الفكر الذكى يسيطر
ما من جهة والفكر الأوربى من جهة أخرى تلك نتيجة ضئيلة لجهود
ة .

٢ ــ الأفريز

٢٢٤

فقلت له : لقد أخطأوا بتنظيف وتجديد هذه الكتابة . فأجاب
: ولكنك إذن لا تفهم !

فقلت : لقد أقسمت على ألا أفهم الكتابات الهيروغليفية ... وقد
ت الكثير جداً من الشروح . فقد بدأت بسانشونياتون Sauchoniaton
تمت بأوديب مصر للأب كيرشير Kircher وأنهيت بنحوشامبليون بعد
ة ملاحظات واربيرتون Watburton والبارون بو leboron pow .
مالم يعجبنى فى هذه الآراء هى نشرة للأب آفر Affre الذى لم يكن
قد أصبح اسقفا لباريس والذى ادعى بعد أن ناقش معنى كتابات
بد أن علماء أوربا كانوا قد اتفقوا على تفسير وهمى للهيروغليفية حتى

يمكنهم إنشاء كراس فى الجامعات للغة الهيروغليفية ومرتب هذه الوظيفة عادة ٦٠٠٠ فرنك .

وأضاف الضابط البروسى مصححاً :

ـ أو ١٫٥٠٠ تليرى ، هذا هو المبلغ المقابل بعملتنا تقريبا . ولكن لندع المزاح حول هذا الموضوع . فأنت لديك النمو ونحن لدينا الحروف الأبجدية وسوف أقرأ لك هذه الكتابة بمثل السهولة التى يقرأ بها التلميذ اليونانية حين يعرف حروفها ولو أنه يتردد أكثر أمام معانى الكلمات » .

وأخذ الضابط فى القراءة وهو يدون المقاطع فى مفكرته ، ويقول لى : «إن هذا يعنى (...) لرسالته» .

وندمت للتو على شكى فى الهيروغليفية وأنا أفكر فى التعب والخطر الذى تحداه هؤلاء العلماء الذين يكتشفون فى هذه اللحظة بالذات أطلال قصر التيه .

... وقلت له : هيا ، إن هذا يجرى مضرب الأمثال ويقبله الجميع ! وتذكرت حينئذ أن نابليون نفسه حين زار داخل الأهرام برفقة زوجة أحد الكولونيلات قد تعرض للخطر الذى كان يتوقعه المرشد . فقد أتى البدو فجأة ، كما يقولون ، وشتتوا حرسه وسدوا مدخل الهرم بحجارة كبيرة بطول متر وعرض متر . وأتت كتيبة من المطاردين فجأة فأنقذته من هذا الخطر لحسن الحظ .

ص ٢٤٥

قد تتردد الثعابين فى سكنى مثل هذه المساكن المنعزلة . أما الخفافيش فهى موجودة وتتعرف عليها بصيحاتها وطيرانها حول النار .

... من الصعب أن تفهم أن هذه المساحة الصغيرة المخصصة إما للمقابر أو لبناء كنيسة أومعبد قد أصبحت المنعزل الرئيسى المعد فى الكتلة الحجرية الكبرى المحيطة بها .

وقد اكتشفت غرفتان أو ثلاث مشابهة بعد ذلك ، وقد أسودت جدرانها الجرانيتية بفعل دخان المشاعل . ولست تجد فى كل هذا أثرًا لقبر ، فيما عدا كهفا من المرمر طوله ثمانى أقدام . يمكن أن يكون قد استخدم فى حفظ جثمان أحد الفراعنة . ومع ذلك فإن أقدم تقاليد الحفر لا تدل ، فيما يختص بالأهرام ، إلا على اكتشاف عظام الثيران .

وإن ما يدهش المسافر وسط هذه المساكن الجنائزية هو أنك لا تتنفس إلا هواء ساخنا مشبعا برائحة القار . وفيما عدا ذلك فلست ترى إلا أروقة وجدرانا ولا توجد كتابات هيروغليفية ولا تماثيل ولكن أعمدة مدخنة وقباب وأطلال .

وعدنا إلى المدخل ونحن مستاءون جدا من هذه الرحلة الشاقة ، وكنا نسائل أنفسنا عما يمكن أن يمثله هذا المبنى الشاهق الضخم . وقال لى الضابط البروسى : «مما لاشك فيه أنها ليست مقابر . فما هى الضرورة لبناء هذه المبانى الضخمة لحفظ تابوت ملك . ومما لاشك فيه أن مثل هذه

الكتلة من الحجارة المجلوبة من صعيد مصر لا يمكن أن تجمع وتشغل فى حياة شخص واحد . وماذا تعنى بالنسبة للملك تلك الرغبة فى أن يعزل فى قبر ارتفاعه ٧٠٠ قدم حين نرى جميع أسر الملوك المصريين قد دفنت فى تواضع فى توابيت ومعابد تحت الأرض » .

لابد من الرجوع إلى رأى قدماء اليونان الذين كانوا أقرب منا للقساوسة والأنظمة المصرية فلم يروا فى الأهرام إلا آثاراً دينية مخصصة لإيقاف الأعضاء الجدد على أسرار الديانات .

ص ٢٥٢

لنعد إلى السهل ولنزر أبا الهول فى الجيزة .

ولقد قام الكثيرون بوصف أبى الهول فليس ثمة حاجة منى لأن أتحدث عن عدم تغير ملامحه المثيرة للإعجاب ووجهه الذى يبلغ طوله ثمانى عشرة قدما. ومما لاشك فيه أن هذه الصخرة الجرانيتية قد نحتت فى عصر كان الفن فيه متقدماً جداً . إن أنفه المسكور يعطيه من بعيد ملامح حبشية ، ولكن بقية الوجه يمت لشخص من أجمل الأجناس الأسيوية . واكتفينا بعد ذلك بالإعجاب بالهرمين الآخرين اللذين احتفظا بجزء من الطبقة التى كانت تغطيهما ، وقد فتح الهرم الثانى ولكن لم يجدوا فيه إلا قاعتين أو ثلاث تشبه تلك التى زرناها فى الهرم الأول . والثالث وهو أصغرها ويسميه العرب الهرم الابنة ، على ذكر العاهرة رودوب التى يظن أنها هى التى أمرت ببنائه فهو لم يمس ولم يستكشفه أحد . وحول الهضبة

الرملية للأهرام الثلاثة توجد أطلال معابد وتوابيت . وثمة بعض التوابيت المحطمة راقدة هنا وهناك كطائفة من الوجوه الصغيرة من عجينة خضراء من النادر أن نجد بينها تابوتا كاملاً . وأراد العرب أن يبيعونا بعضا منها ولكنا احتملنا ألا يكونوا قد جمعوها من المكان نفسه . ولابد أن ثمة مصانع فى القاهرة لصنع ذلك كما يحدث بالنسبة لأوانى الزهور الأترورية التى يبيعونها فى نابولى .

...وحين زار جيش مصر[٦٦] مقابر سقارة دهش لعدد القطط التى يحتوى عليها بعضهم . وأتت لبعض الجند فكرة إشعال النار فى هذه الأماكن تحت الأرضية لمعرفة عمقها . واشتعلت مومياء القطط التى اختلطت بالقار لمدة ثمانية أيام ثم انطفأت النار من تلقاء نفسها . وحين ظنوا أن الدخان قد تبدد نزلوا إلى هذه الأماكن تحت الأرضية . وفيما عدا المساحة الشاسعة التى اكتشفتها النار وفيما وراء المواد التى تحولت إلى فحم والتى يجب إخراجها وجدوا صفوفا جديدة من القطط كان يبدو أنها تتحدى التخريب أن يصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه .

ص ٢٥٣

إذا كنت أتحدث هنا عن هذه الأحداث التى أصبحت قديمة ذلك أنى تلقيت فى القسطنطينية نبأ وفاته التعس . وفى وسط مقابر جالات

(٦٦) أى الجيش الفرنسى الذى فتح مصر .

وأمام لوحة القسطنطينية وسكوتارى الرائعتين اللتين يحدان أمام عينى شاطيء أوربا وشاطى أسيا ، أفكر فى حزن فى هذه النهاية المبكرة وفى هذا الرجل الذى كشف لى آخر حديث معه عن كثير من العلم المتواضع واللطف الثمين بالنسبة للمسافر على هذه الأرض العربية التى عليك فيها أن تختار بين اثنين لا ثالث لهما :

القبور أو الأطلال .

مذكرة خاصة بالخاتمة [٦٧]

إن جميع تفصيلات هذه الرحلة صحيحة . ومع ذلك ففيما يختص ببعض النقاط كان لابد من تجميع الأحداث تجنبا للإطالة .

وقد علم الكاتب منذ بضعة أشهر أن الجارية الجاوية قد هربت من المنزل الذى وضعها فيه . وبطبيعة الحال لا يخلو الأمر من بعض التعصب الدينى .

أما عن مصيرها الحالى الذى اهتم به مسيوب ... قنصلنا ، فيبدو أنها تنعم بالاستقرار والسعادة حسب الملحوظة الغامضة المذكورة فى أسفل الرسالة التى أرسلها كامى روجييه Camill Rogier ، الرسام الذى يقوم برحلة فى سوريا ، إلى الكاتب حيث قال : إن المرأة الصفراء فى دمشق وهى متزوجة من أحد الأتراك ولها طفلان

---

(٦٧) هذه المذكرة بقلم الناشر .

(نهاية رحلة الى الشرق)

٤ ـ قصور الباشا

ص ٣٣٤

إنهم الانجليز الذين انتزعوا سنة ١٨٤٠ من الحكومة المصرية مساندة هذه الشعوب القوية . ومنذ ذلك الحين اتجه نظامهم دائما إلى تقسيم الأجناس التى قد يجمعها شعور عام بالوطنية تحت قواد بعينهم . وبهذه الروح سلموا الأمير بشير لتركيا ، وهو آخر الأمراء اللبنانيين ووريث هذه القوة متعددة الأطراف ، الغربية فى مصدرها التى كانت تجمع منذ ثلاثة قرون جميع المشاعر والأديان فى حزمة واحدة .

١ ـ الصباح والمساء

ص ٣٨٠

ينبغى أن أذكر لك أولا ما حدث لى منذ عودتى من رحلة فى الجبل ، وقد أرسلت لك مؤخراً قصتها .

فقد عدت لأستقر لبضعة أيام فى فندق باتسقا فى انتظار فرصة للذهاب الى صيدا ، أى سيدون القديمة ، بحرًا . وكان الطقس قد أصبح رديئا بحيث لم يجرؤ قارب واحد على الخروج ، ومع ذلك فقد كانت الشمس ساطعة على الأرض ولا تشوب الأفق الأزرق سحابة واحدة . لم يعد أحد يشكو إلا من الريح التى كانت تثير هنا وهناك أعمدة من التراب . ولكن على البحر ، كان كل شىء يتحرك ويتأرجح ، والسفن السكرى تتقابل دفافها ومداخنها . وليس ثمة ما هو أكثر بعثا للدهشة من هذه الفوضى وسط الهدوء وهذه العاصفة ، على الناشف ، وهذا البحر الغادر الذى يفتح هوته السحيقة السوداء تحت أشعة الشمس الزاهية . ولابد أنه مما يحدث أسى مزدوجا أن نرى غريقا فى مثل هذا الجو الجميل .

والتقيت على مائدة الفندق بالمبشر الانجليزى الذى كنت قد تعرفت به قبل ذلك . ولم يكن أقل ضيقا بالعاصفة منى فقد عرقلت كذلك مشروع سفره على نفس الرحلة . وحين توقع أن نكون بعد قليل رفيقى سفر أعطى لعلاقتنا مزيداً من الألفة فخرجنا معاً بعد الغداء لرؤية البحر الهائج وما يعرضه من منظر جميل .

وحين هبطنا إلى الميناء التقينا بالأب بلانشيه الذى توقف وأراد التحدث بعض الوقت معنا . وليس أقل ما يدهش فى بلد المتناقضات هذا أن ترى أحد اليسوعيين وأحد المبشرين الإنجيليين يتحدثان فى ود . الواقع أنه مهما كان من شأن كفاحهما الخاص الملتوى فإن هذين الغريمين الورعين يلتقيان بصفة مستمرة على مائدة القناصل ، ويحسن كل منهما استقبال

الآخر حيث إنهما لا يستطيعان أن يفعلا غير ذلك . وفيما عدا التأثير الخفى الذى قد يحصلان عليه من كفاحهما مع سكان الجبل فليس ثمة ما يجازفان به فى مجال التبشير حين يلتقيان على أرض واحدة .

يدونون فيه أعمالهم فيثبتون للجدد أن الانجليز هم تقريبا دروز . وهذا يفسر المثل الدرزى القائل : « الانجليز والدروز سوا سوا » . وبهذه الطريقة يكون المبشرون أنفسهم هم الذين يغيرون ديانتهم .

وقد عدل المبشرون الكاثوليك منذ مدة طويلة عن تبشير الدروز ولم يعودوا يتجهون إلا الى اليونانيين الانفصاليين حيث ثمة تقارب بين آراء هاتين الطائفتين أكثر من غيرها . أما المبشرون الإنجليز فإن مهمتهم على العكس تنحصر فى جميع المذاهب البروتستانتية على اختلافها ، وقد عثروا أخيرا على نقاط تقارب غريبة بين دينهم وديانة الدروز . والمسألة تتوقف أولا وأخيرا على تسجيل أكبر عدد ممكن من الأسماء فى الدفتر الذى

٧ ـ الرحيل

ص٤٤١

إن التفاصيل القادمة يمكن أن تستخدم كهامش لا كتفسير لقصة الحاكم ، تلك القصة الغامضة بسبب الحكايات الكثيرة التى ترتبط بهذا المصلح كما ترتبط الأناجيل المختلفة بالمسيح وقد نشر مسيودى ساس جزأين

عن هذه الحكايات المختلفة . أما قصتنا فلم تستند إلا إلى أهم هذه الحكايات مع الامتناع عن كل اختراع رومانسى فى هذا الصدد . إنها ما هى إلا ملخص ومختارات مما يحكى .

ص ٤٤٣

... وقال الشيخ : هذه هى الحقيقة . فبعد المشهد الدامى الذى حدث بالقرب من المقابر هرب العبدان اللذان كانا يحملان أوامر ست الملك وعادا إلى المدينة . ومر شيخ تتبعه فرقة مسلحة وطلب من أحد أتباعه أن يفحص جروح الخليفة ويوسف بن دواس وصب عليها سائلا ثمينا . وبعد ذلك حملوا الجثتين إلى مقابر الفاطميين ، وهى ساحة جنائزية شاسعة بناها المعز لدين الله بانى القاهرة . ووضع الصديقان ، وأحدهما خليفة والآخر صياد أسماك ، فى قبرين متشابهين فقد كان كلاهما أميراً وكان كلاهما حفيدا للمعز لدين الله . وكان هذا الأخير مازال حياً .

وقلت للشيخ :

معذرة ، لقد كان من الصعب على أن أتبين فى قصتك ما هو خيالى وما هو حقيقى ، وتلك هى الصعوبة بالنسبة لنا فى جميع قصصكم العربية ...

فقال الشيخ :

ـ ليس فيما قصصت عليك ما يبعد عن الاحتمالات البشرية فلم أقل إن الحاكم كان صاحب معجزات ولم أحلل إلا مشاعر نفسه التى نقل إلينا

نبيه حمزة أسرارها . إن الحاكم بالنسبة لنا إله ، ولكم الحق ، معشر المسيحيين ، ألا تروا فيه إلا مجنونا .

ــ وجده ، هل كان هو الآخر إلهاً ؟

ــ كلا ، ولكنه كان كما تعرفونَ قابلا[٦٨] كبيراً . وقد وضعه إيمانه الفريد على اتصال بروح البر (وهو الاسم السماوى للحاكم) . وقال له البر يوماً : «إن وقت نزولى إلى الأرض ليقترب وحينئذ سوف أظهر فى صورة بشر ، سأكون حفيدك وشبيهك ، ولن تعرفنى » . وكان للمعز لدين الله حفيدان ولد أولهما وريثا للعرش وربى الثانى كفلاح بسيط فى بلاد قطمة Ketema (بالقرب من ولاية قسنطينة) . وحين لقب المعز لدين الله من العرش أشاع بفضل نصائح طبيبه ابن سينا avicenne أنه مات . وكان المعز يجهل أى حفيديه هو الإله فأراد وضعهما موضع التجربة فى ظروف مختلفة . فاعتزل فى تكية من تكايا الدراويش ، وشاهد دون أن يعرفه أحد جميع مراسم عقيدة الحاكم . ولما لم يستطع فهم أسباب ذلك (يالعمى البشر !) أخذ يدبر سراً لكى يحل الآخر محله على العرش . ويقال إنه هو الذى أعد كمين المقطمْ . ولم يكن الشقيقان إلا فاقدى الوعى تحت تأثير ضربات الجماهير ولم يستعيدا وعيهما إلا فى مقبرة أسرتهما حيث ظهر الجد كشبح وسألهما حسابا عن حياتهما السابقة . وفى هذه المقبرة المجاورة للتوابيت والأهرام بدا الحاكم كفرعون يتولى أجداده الملوك محاكمته .

---

(٦٨) أى كان عالماً بيواطن التوراة .

فتكلم وشرح أعماله ونظرياته . وخر جده وشقيقه سجداً تحت قدميه واعترفا به إلهاً . ولكن الحاكم لم يشأ العودة إلى القاهرة بل توجه مع المعز لدين الله إلى صحراء آمون وأقر نظريته التى تولى شقيقه نشرها بعد ذلك باسم حمزة . ومنذ ذلك الحين ظهر الحاكم فى بقاع مختلفة من الأرض وأخيراً انسحب إلى لبنان حيث آمن به الشعب » .

وأدارت تلك الأسطورة رأسى كالدوامة . وكانت الزيارات التى أقوم بها للشيخ الدرزى تكفى بالكاد للتفسيرات التى أطلبها منه . وفى تلك الأثناء كانت العاصفة التى حجزتنى فى بيروت قد هدأت وكان لابد لى من الرحيل إلى عكا لأحاول ممارسة تأثيرى على الباشا لصالح الشيخ الدرزى . ولذا فقد حييته مودعاً ...

١ ــ السفينة

ص ٤٤٨

إن هذه اللوحة المليئة بالمبالغة بلا شك كانت تؤثر فى لما فيها من بعض لمحات حقيقية . أما أن عدد الأتراك قد نقص كثيرا فهذا أمر لا شك فيه . إن أجناس البشر تتغير وتضيع تحت بعض التأثيرات مثل أجناس الحيوان .

ومنذ مدة طويلة كانت القوة الرئيسية للامبراطورية التركية تعتمد على قوة الميليشيا الأجنبية فى الأصل عن الجنس العثمانى مثل المماليك والانكشارية . واليوم يحتفظ الباب العالى بمساعدة بعض فيالق من الألبانيين بعشرين مليونا من اليونانيين والكاثوليك والأرمن تحت سلطة

الهلال . هل يستطيع الباب العالى ذلك حتى اليوم بدون المساندة المعنوية للدبلوماسية الأوربية والمساعدات الانجليزية المسلحة ؟ وحين نفكر فى أن سورية هذه التى دكت المدافع الانجليزية جميع موانيها سنة ١٨٤٠ لصالح الأتراك هى نفس الأرض التى جمعتها جميع أوربا الاقطاعية مدة ستة قرون كانت دولها فيها تعتبرها مقدسة فإنها تقتنع بأن الشعور الدينى قد هبط كثيراً فى أوربا . إن الانجليز لم يفكروا حتى فى أن يحتفظوا للمسيحيين بالتراث الذى انتزعه ريتشارد قلب الأسد . لقد أردت نقل هذه الأفكار للقس المبجل ولكن حين عدت الى جواره استقبلنى ...

٥ ـ الخاتمة

ص ٤٨٧

إن رياح الجنوب التى تظل تهب مدة خمسين يوما تقريبا تتخللها مع ذلك فترات هدوء ،وذات مساء ، وبعد يوم أجمل من المعتاد دعانى القنصل إلى مرافقته فى اليوم التالى لزيارة أهرام الجيزة . وخرجنا لدى طلوع الفجر فى عربته وتوقفنا للإفطار فى جزيرة الروضة ـ تلك الجزيرة الخضراء وكأنها إحدى جزر البلطيق . وقد أعدت تلك الجزيرة على الطريقة الانجليزية بفضل عناية ابراهيم باشا . وقد ازدان جزء منها بأشجار الصفصاف والسرو والأكاسيا ، والآخر بالبرك والأنهار الصناعية الغاصة

بالبجع والكبارى الصينية على ممرات من النجيل .

وقدم لنا طعام الافطار فى كشك يقع فى شمال الجزيرة مبنى من قطع صغيرة من الصخور ، وقد كان هذا الكشك لمدة طويلة حريماً صيفيا لابراهيم . ولما كان هذا الأخير يقيم بصفة دائمة تقريبا فى الإسكندرية فلم يعد يشغله منذ عدة سنوات .

وقال لى القنصل : «إن القصر الذى نحن فيه الآن قد وضعه إبراهيم تحت تصرفى ، وأنا أسكنه حين تثقل علـى سكنى القاهرة » . وذهبنا بعد ذلك لزيارة جميع أجزاء الجزيرة ، ذلك المكان المنعزل اللذيذ حيث بنى الخلفاء الفاطميون قصرهم من قبل . ولدى طرف ذراع النيل الذى يمر بمصر القديمة أرانى القنصل المكان الذى يفترض أن موسى قد التقط فيه من مهده العائم بواسطة ابنة فرعون . وتقع هذه النقطة بالقرب من المقياس . المخصص ، كما هو معروف ، لتقدير ارتفاع الفيضان . وثمة عمود من الرخام مسدس الجوانب كان مخصصا فى الماضى لسيرابيس ، ويقوم هذا العمود وسط بئر . وقد ظل هكذا طيلة ثلاثين قرنا يدل على ارتفاع النهر المقدس . وأهل منتصف النهار دون أن يتكلم رفيق طريقى عن التحرك إلى ما هو أبعد من ذلك . ولذا فقد ذكرته بالهدف من نزهتنا ...

٤ ـ سان ديمترى

فى أحد الكباريهات وجهت أخيرا الى عشيقة أحد اليونانيين إهانة تسببت فى حدوث اصطدام مروع بين بعض اليونانيين من المودة وبعض

الأيونيين . ويتسم هؤلاء الأخيرون عادة بالوقاحة والميل للشجار لأنهم من رعايا انجلترا . وقد تسبب هذا فى معركة حقيقية لم تخل من المشاهدين . وقد اصطف أكثر من مائة وخمسين شخصا من الدولتين ، اصطفوا فى ساحة المقابر الكبرى . وأطلقت طلقات كثيرة من المسدسات كما وجهت ضربات خناجر وأخطرت السلطات التركية ، وصاح الباشا قائلا : «بكالوم (لا يهم !) ليقض هؤلاء الكلاب على أنفسهم إذا شاءوا فسوف يصبح عددهم أقل » . صحيح أن الشرطة التركية قليلة الفاعلية فى بيرا بسبب العدد الكبير من الأجانب ممن يوضعون تحت حماية القناصل .

٧ ـ وجوه أربعة

ص ٥٢٥

إن تفاصيل هذه النزهة خلال أحياء القسطنطينية لن تكون ذات فائدة إذا كان عيبها هو الدقة . والمغامرة التى قصصتها فى الحلقة السابقة لم تكن مخترعة ، فهى تتعلق فى واقع الأمر بأخت أحد السلاطين السابقين وربما كانت من عهد السلطان سليم . ففى ذلك العصر كانت الانكشارية تقوم بأعمال الشرطة المسائية وكان افرادها يدخلون حتى إلى القصور الامبراطورية إذا ما ساورتهم بعض الشكوك . إن حب النساء للبهلوانات والمشعوذين كان كذلك سببًا فى مشهد مماثل فى عصر السلطان محمود . وكادت تذهب ضحية ذلك فرقة من معلمى الفروسية التعساء . ولم ينقذهم إلا بهلوان من كوروشزميه Kourouchezme تصادف وجوده حينئذ بالقرب من القصر .

٣ ـ الرواة

ص ٥٦٤

فى تركيا يسود شعور خالص بالمساواة لدى الجميع . ومما يؤيده أن الجميع على ثقافة متواضعة كافية لفهم كل شئ والشعور بكل شئ حيث إن التعليم إجبارى والناس من جميع الطبقات يرسلون أولادهم للتعليم مدة طويلة فى المساجد ، حيث يتعلمون بالمجان.

ولذا فإنه ليس ثمة من يدهش لرؤية رجل من أحط الطبقات يصل إلى أعلى المراكز التى لا يحتاج لبلوغها إلا إلى اكتساب بعض المعلومات الخاصة .

قصة ملكة الصباح وسليمان أمير الجن

٣ ـ المعبد

ص ٦٠١

وخلال الوجبة الأولى لهذه الجلسة ، دار الحديث عن مختلف المشاعر التى أثارتها القصة. وبدا على أحد الحاضرين ، وقد عرف من لون ذراعيه الملطخ بالأزرق أنه صباغ ، إنه لا ينضم إلى شعور التأييد العام الذى استقبل به المشهد السابق . واقترب الصباغ من الراوى وقال له : «أيها الأخ ، لقد أعلنت أن هذه القصة تهم جميع طبقات العمال . ومع ذلك فإنى أراك حتى الآن تتغنى بأمجاد عمال المغادن والنجارين ونحاتى

الحجارة ... فإذا لم يكن هذا الذى تقول يهمنى فلن أعود إلى هذا المقهى ثانية وكذلك سيفعل كثيرون غيرى » . وقطب صاحب المقهى حاجبيه ونظر الى راويه بشعور اللوم .. ورد الراوى قائلا : «أيها الأخ ، سوف يكون ثمة شئ خاص بالصباغين ... سوف تكون لدينا الفرصة للحديث عن حيرم الطيب ، ابن صور ، الذى نشر الأقمشة القرمزية الجميلة فى العالم أجمع ، والذى كان حاميًا لأدونيرام » . وعاد الصباغ فجلس واستأنف الراوى حكايته . ...

٧ ـ مسارح القسطنطينية

عدت الى خان يلدز وأنا مشغول الرأس بالتفاصيل الغريبة للقصة لاسيما تلك اللوحة التى صورت لنا عن سقوط سليمان بعد وفاته . وتخيلت العجائب الداخلية لجبل قاف الذى يتحدث عنه الشعراء الشرقيون كثيرا . وقاف ، حسب المعلومات التى حصلت عليها من رفاقى ، هو الصخرة المركزية التى تشكل التسليح الداخلى للكرة الأرضية . أما مختلف سلاسل الجبال التى تظهر على السطح فما هى إلا امتداد لفروعه . إنها جبال أطلس والقوقاز وهيمالايا التى تمثل أقوى دعاماته . ويضع الشعراء القدامى غصنًا آخر فيما وراء البحار الغربية نحو نقطة يطلقون عليها اسم إلى دنيا ، أى الدنيا الجديدة ، ولابدأنها أطلنطا التى تحدث عنها أفلاطون ، فى حالة ما إذا استبعدنا أنه كانت لديهم فكرة عن قارة أمريكا .

ومن المحتمل أن المشهد الذى اختلط فيه كبرياء سليمان ، حسب مايقول القرآن ، قد دار فى رواق ارجنك Argenk الذى بنى وسط الجبل

بواسطة الجن ، والذى ترى فيه التماثيل الأربعين للأباطره الذين يحملون اسم سليمان والذين حكموا الأرض فى العصور قبل الآدمية وكذلك الوجوه المرسومة لجميع المخلوقات العاقلة التى سكنت الأرض قبل خلق أبناء الطين . وكان لمعظم هذه الوجوه أشكال عربية تقترب من أشكال الحيوانات ، مما يدخل بلا شك فى مجال الأساطير البدائية للهنود والمصريين والبيلاجيين .

ولقد ذكرنى عدد هؤلاء الملوك الأربعين قبل الآدميين الذين حكم كل منهم ، حسب ماتقول الأسطوره ، ألف عام ، ذكرنى ذلك بفرض ألقاه العالم ليترون Letronne وقد رأيته بدوره يطبقه . ويرجع هذا العالم العصور القديمة . إلى أربعين ألف عام تقريبا قبل خلق آدم المفترض . وقد استقى الدليل على ذلك من انحسار مياه البحر المنتظم عن أرض مصر ، واعتقد كذلك عن بعض الحجارة التى تدل طبقاتها على العدد السابق لفيضانات النيل . وقد تؤدى أبحاث كوفييه Cuvier كذلك إلى افتراضات مماثلة لو أن هذا العالم لم يصر على ربط اكتشافاته بقصص التوراة .

ومهما يكن من أمر فمن المستحيل فهم قصص الشرق أو أشعاره دون أن نقنع أنفسنا بأن ثمة سلسلة طويلة من الشعوب الغربية ، كان آخر ملوكها جيان بن جيان ، قد عاشت قبل ادم . ويمثل آدم بالنسبة للشرقيين مجرد جنس جديد قد عجن وشكل من أرض خاصة بواسطة أدوناى إله التوراة الذى ربما يكون قد تصرف فى هذة الظروف مثل تيتان بروميتيوس الذى انعش بالنارالإلهية الجنس الأولي الممتهن الذى كان العالم ، حتى

ذلك الحين ، ينتمى إليه . ولكن مهلاً للرموز : فإنى لم أرد أن ألقى بعض الضوء على الجزء الخيالى للقصة التى سمعنا ها فيما سبق . ولكنه الشعاع التائه وسط الظلمات الذى ، حسب تعبير ميلتون ، لايستخدم إلاّ فى جعل الظلمات صالحة للرؤيا .

٤ ـ العيد

ص ٦٨٤

تستطيع هذه القصة أن تعطينا فكرة عن قوة الميول لدى النساء اللاتى تنساب حياتهن منفصلة عن مجتمع الرجال دون أن يكون ثمة عازل إيجابى .وربما كانت امرأة سكوتارى هذه امرأة تقية كانت تأمل أن تستطيع حمل الفنان على اعتناق الإسلام لكى يستطيع الزواج منها . وعلى العموم فإن سلوك النساء التركيات وقور ومتحفظ .أما الحظوظ السعيدة التى يفخر بها الأوربيون فهى تتعلق بطائفة من النساء غير المحاطات بالتقدير واللاتى يستفدن من السهولة التى تمنحها لهن ملابسهن الغربية ، لزيارة بعض الأوربيين ممن تقودهن إليهم بائعات الملابس القديمة أو الجاريات الفاسدات . وبصفة شبه دائمة فإن سحر بعض الملابس التى يرفض الزوج العجوز أو البخيل شراءها لهن هو الدافع لهن على الإخلال بواجباتهن ولايحيق الخطر فى هذه الحالة إلابهن وحدهن لأن أحداً لايستطيع مهاجمة بيت أحد الأوربيين ، أما هو فيستطيع الهرب إلى أحد البيوت التركية .

١٣ ـ العيد

لاحظنا ، لدى العودة من توفانا إلى بيرا عن طريق الشوارع الصاعدة التى تمر بين مبانى السفارات ، أن الحى الافرنجى كان أكثر تألقاً بالأضواء وأكثر ضجيجا من العادة . ذلك أن احتفالات العيد التى تتلو شهر رمضان كانت تقترب . ويتعلق الأمر بأيام ثلاثة من البهجة تتلو هذا الصوم المختلط بالكرنفال الذى حاولت وصف مراحله المختلفة .

إن العيد هو تقريبا عيد رأس السنة بالنسبة للأتراك .

٣ ـ حفلات السراى

يكفى أن نقول إن كلا من الرجل والمرأة ينام بكامل ملابسه وأن عينى المسلم لايمكن أن تهبط ، بمقتضى أحكام الدين ، إلى أسفل حزام المرأة . والأمر متبادل . حتى السلطان محمود نفسه ، وهو أكثر السلاطين تقدمية ، حين دخل يوما ، إلى حمام زوجاته حكمن عليه بحرمانه من حضرتهن مدة طويلة . ولما علمت المدينة بالأمر عن طريق الخدم الذين يفشون الأسرار ثارت غضبا ونشب بينه وبين الأئمة مشاهد عنيفة . واعتبر الحادث بالنسبة لأنصار السلطان لونا من التشنيع ربما كان مرجعه أنه بنى فى قصر المرايا قاعة حمام مدرجة . وأنا من ناحيتى أحب أن أصدق هذه التشنيعة .

ملحق (١)

عادات المصريين المحدثين

١ ـ مركز النساء الاجتماعي

ص ٧٠١

إن الحقبة الأدبية التى نعيشها تشبه كثيرا تلك التى بدأت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . كان الناس كما هم اليوم شديدى الاستطلاع يغرقون أنفسهم فى الأبحاث الغريبة وفى غموض الكلمة . وإذا كانت الغرابة قد فقدت القرن الثامن هشر ، كما يقولون ، فماذا نفعل بغرابتنا ؟ ألسنا نجد أنفسنا خليطا من نوع مهلهل للآراء السياسية والاجتماعية والدينية لم نشهد له مثيلا منذ عهد الانحلال الرومانى ، إن ما ينقصنا هو عبقرية متعددة الأشكال قادرة على إعطاء مركز لكل هذه النزوات الضالة . وإذا لم يوجد عبقرى مثل لوسيان أو فولتير فلن يهتم الجمهور إلا اهتماماً طفيفا بهذا العمل الضخم من أعمال التحلل الذى ينشط فيه الكثير من الكتاب العباقرة .

لقد نشر القرن الثامن عشر « **الدفاع عن المحمدية** » كما حاول إحياء الأبيقورية والنظريات الأفلاطونية الجديدة . ولا ينبغى أن ندهش لذلك بعد الأعمال التى أخذت تظهر فى هذا الاتجاه إذا رأينا كاتبا بين ظهرانينا يرفع لواء النبى . وليس ذلك بأكثر غرابة من أن نرى مسجداً يبنى فى باريس ، ذلك الحدث الذى أعلن عن قرب إتمامه . وعلى كل فإن هذا البناء أمر حق مادام المسلمون يبيحون فى بلادهم بناء كنائسنا . ويزور أمراؤهم روما كما كان يفعل ملوك الشرق فى الماضى . وثمة نتائج كبيرة يمكن أن تنتج من احتكاك هاتين الحضارتين اللتين ناصب كل منها الأخرى العداء مدة طويلة واللتين سوف تعثران على نقاط الالتقاء إذا تخلصنا من الأحكام المسبقة التى مازالت تفرق بينهما . وعلينا نحن أن نقوم بالخطا الأولى وأن نصحح الكثير من الأخطاء وفى آرائنا عن العادات والنظم الاجتماعية فى الشرق . إن وضعنا فى الجزائر يجعل ذلك بالنسبة لنا واجبا . وينبغى أن نتساءل عما إذا كنا سوف نجنى شيئا من الدعاية الدينية ، وعما إذا كان ينبغى لنا أن نكتفى بالتأثير على الشرق عن طريق أنوار الحضارة والفلسفة . إن هاتين الوسيلتين فى أيدينا متساويتا المفعول . ومن الخير أن نعرف كذلك ما إذا لم يكن علينا أن ننهل من هذه الدراسة بعض المعلومات المفيدة لنا أنفسنا .

وحين استولى الجيش الفرنسى على مصر ، لم تكن ينقص صفوفه الوعاظ والمصلحون الذين قرروا إضاءة شعلة العقل ، كما كانوا يقولون حينئذ ، فوق هذه المجتمعات البربرية . وبعد بضعة أشهر ذكر نابليون

نفسه فى تصريحاته اسم محمد كما اعتنق خليفته كليبر دين المهزومين . وقد حذا حذوه من ذلك الحين الكثير من الفرنسيين . وإذا نظرنا إلى الشخصيات التى اعتنقت الإسلام لصعب علينا ذكر المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية وهذا وحده يكفى لإثبات أن الإسلام يمنح الانسان ميزات معينة لا وجود لها بالنسبة للمرأة . إن تعدد الزوجات مثلا قد أغرى من بعيد بعض العقول السطحية . إلا أن هذا السبب لم يؤثر إطلاقا بكل تأكيد على من يستطيع دراسة العادات الحقيقية للشرق عن كثب . وقد جمع السيد دى سوكو ليكى فى كتاب يكتنفه الكثير من الغموض إلا أنه يحتوى على الكثير من الملاحظات والعلم ، جمع جميع آيات القرآن والكتب الشرقية الأخرى التى تتعلق بوضع المرأة . ولم يجد هذا الكاتب صعوبة فى إثبات أن محمداً لم يقر فى الشرق لا تعدد الزوجات ولا الطلاق ولا العبودية ، بل إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون موضع مناقشة . كما أنه عنى فقط بإبراز جميع جهود المشرع من أجل إشاعة الاعتدال إلى أقصى حد ممكن فى النظم القديمة التى كان جزء منها يخضع دائما لمسائل الجنس والمناخ .

إن فكرة سقطة المرأة والتقليد الذى يظهرها كسبب أولى لخطايا الجنس البشرى وتعاسته ترجع بصفة خاصة إلى التوراة وبذلك فقد أثرت لا محالة فى جميع الأديان المشتقة منها . إن هذه الفكرة ليست أكثر وضوحاً فى دين محمد منه فى الدين المسيحى . وثمة أسطورة عربية قديمة تؤكد التقليد الموسوى ومع ذلك فإننا نتردد كثيرا فى الاعتقاد بأنها أخذت فى يوم ما على محمل الجد .

نعرف أن الشرقيين يقرون أن آدم هو أول البشر بالمعنى المادى للكلمة ، ولكنهم يعتقدون أن الأرض قد سكنتها أولا أرواح بدائية خلقها الله قبل ذلك من مادة سامية رقيقة ومضيئة .

... إن هزيود الذى طالما صور التناسخ بين المخلوقات الوحشية والكفاح بين الإلهات الأمهات فى دائرة أورانوس لم يقدم أسطورة أكثر كآبة من ذلك . ولنعد إلى المفاهيم الأكثر وضوحا فى التوراة ، والتى أصبحت أكثر لينا وأكثر إنسانية فى القرآن .

ص ٧٠٣

إن جميع المسافرين قد التقوا مرات عديدة فى شوارع القسطنطينية بنساء السراى . والحق يقال إنهن لا يتجولن سيرا على الأقدام كمعظم النساء ولكن بالعربة أو على الخيول كما تفعل نساء الطبقة الراقية . وهن يتمتعن بحرية كاملة فى رؤية كل شىء والتحدث إلى الباعة . ولقد كانت الحرية فى القرن الماضى أكبر من ذلك حيث كانت السلطانات تستطعن دخول حوانيت اليونانيين والفرنسيين « ذلك أن حوانيت الأتراك ليست إلا أماكن للعرض » . وثمة أخت للسلطان يقال إنها جددت عجائب برج نسل Nesle فأمرت بأن تأتى إليه البضائع بعد اختيارها . أما الشبان التعساء الذين عهد إليهم بهذه المهمات فكانوا يختفون عادة دون أن يجرؤ أحد على الحديث عنهم . وقد زودت جميع القصور المبنية على البسفور بقاعات منخفضة يدخل البحر تحتها ، وثمة سقف يغطى المساحات المخصصة لحمام بحر النساء . ويفترضون أن الدين كان يقع عليهم اختيار

هذه السيدة كانوا يمرون من هذا الطريق . وقد حكم على السلطانة بالسجن المؤبد لا أكثر ، وما زال شبان بيرا يتحدثون بهلع عن اختفاء هؤلاء الشبان الغتبان الغامض .

ص ٧٠٥

إننا ، بتأثرنا بهذه الملاحظات الصحيحة وبتخلصنا من الأحكام المسبقة التى مازالت تؤثر فينا سوف نسقط تدريجيا الأحكام المسبقة التى شككتنا حتى الآن فى إمكانية تحقيق تحالف بيننا وبين الشعوب الإسلامية ، أو تحقيق خضوعهم لنا .

ص ٧١٨

إن معظم بنات الحبشة والزنجيات الشابات قد أسلمهن جلابوهن من النخاسين أو تجار الرقيق فى مصر العليا والنوبة إلى الفاحشة . إنهن ، حتى فى سن الثامنة أو التاسعة ، يقعن ضحايا لشراسة هؤلاء الرجال . ويشعر هؤلاء الأطفال التعساء من بنات وصبية ، لاسيما من يقدمون منهم من الحبشة ، بارتياح من المعاملة التى يفرضها عليهم الجلابون حتى أن كثيرين منهم يلقون بأنفسهم أثناء الطريق فى النيل حيث يموتون مفضلين الموت على الوضع النفسى الذى ترديوا فيه .

٤ ـ راقصات مصر

وتحب النساء ، شأنهن فى ذلك شأن الرجال ، أن يتجمعن حولهن فى الطرقات إلا أن علية القوم وأبناء الطبقات الراقية يبتعدون عنهن .

... ويمكن أن نستدل من التشابه بين رقص الفاندانجو ورقص الغوازى أن ذلك الرقص قد أدخل إلى أسبانيا مع الغزاة العرب . ولكن من المعروف أن نساء قادش قد اشتهرن بهذه الألوان من التمرينات منذ أوائل العصور الرومانية .

ص ٧٢٩

وفى معظم هذه الجولات ينفخ مرات عديدة فى أنبوبة طويلة تسمى الزمارة يشبه صوتها ذلك الصوت الذى نحصل عليه من النفخ فى قرن .

٦ ـ بيوت القاهرة

إن المساكن المعنية لا تؤجر مفروشة أبداً . ومن النادر أن يقبل شخص لازوجة ولا جارية له كمستأجر لمثل هذه البيوت ، بل إنه لا يقبل حتى فى منزل مستقل . إن مثل هذا الشخص ، إن لم يكن له أقرباء مقربين يعيش معهم يضطر للسكن فى مبنى يسمى الوكالة ويستخدم كمأوى للتجار وأتباعهم .

٧ ـ الاحتفالات الجنائزية

ص ٧٤٠

حين يشعر أحد العلماء أو الأتقياء من المسلمين باقتراب منيته فإنه أحيانا يتوضأ الوضوء المعتاد قبل الصلاة حتى يكون وهو يغادر الحياة فى حالة طهر جسدى . ويكرر عادة شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . وحين يخرج المسلم لغزوة أو لسفر طويل ، لاسيما إذا كان عليه أن

يخترق الصحراء ، فإنه يحمل معه عادة كفنه . وفى هذه الحالة ليس من النادر أن يضطر المسافر إلى حفر قبره بنفسه . ذلك أنه كثيرا ما يحدث أن ينهكه التعب والحرمان أو أن يسقط تحت وطأة المرض . فإذا لم يستطع رفاق سفره أن ينتظروا حتى يشفى أو يموت فإنه يتوضأ بالماء إن أمكن ، وفى حالة عدم وجود الماء يتوضأ بالرمل والتراب . وبعد ذلك يحفر مكانا فى شكل حفرة ينام فيها وقد تدثر بكفنه . وبعد هذه المراسم يغطى نفسه ما عدا الوجه بالرمل المستخرج من الحفرة . وفى هذه الحالة ينتظر الموت الذى يضع حدا لمتاعبه تاركا للرياح مهمة إكمال تغطية لحده .

وإذا قضى أحد كبار العلماء فى القاهرة نحبه فإن مؤذنى الأزهر وغيره من المساجد الكثيرة يعلنون من فوق المآذن عن هذا الحدث بتلاوة التراتيل التى يسمونها «أبرار» مما يقرأ فى شهر رمضان حسب تعاليم القرآن .

ويستمر هذا الندب على الأقل ساعة من الزمن . وإذا حدثت الوفاة فى الصباح يحمل الجسد إلى القبر فى اليوم نفسه ، ولكن إذا حدثت فى المساء أو فى الليل فلا يتم الدفن إلا فى اليوم التالى . وحينئذ تقضى الندابات المأجورات الليل بطوله مع النساء الأخريات ليكملن ندبهن .

ص ٧٤١

يستخدم الفقراء أوراق الغبيراء الجافة المفروكة بدلاً من الصابون ، وكثيرا ما يرش الكفن بماء زمزم التى توجد فى معبد مكة .

... ويمشون اثنين اثنين أو ثلاثة بخطا بطيئة وهم يترنمون بشهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بلهجة كئيبة .

ص ٧٤٤

هذه ترجمة لبداية تلك المقطوعة الشعرية :

« أمدح كمال الذى خلق كل شئ له شكل والذى قهر عبيده بالموت »

« سوف يرقدون جميعا فى القبر ؛

امدح كمال إله الشرق ؛

أمدح كمال الذى يضئ بالنورين الشمس والقمر ؛

كماله : كم هو كريم !

كماله : كم هو رحيم !

كماله : كم هو كبير !

وإذا عصاه عبد فإنه يحميه !

إن صراخ النسوة وأناشيد الصبية الحارة واللهجات الكئيبة التى يترنم بها اليمانية ، كل ذلك يحدث نغماً نشازاً غريباً .

وكان النبى قد منع ندب النسوة والتغنى بفضائل المتوفى فى أثناء الجنازة . وقد أعلن محمد أن الفضائل التى تنسب إلى الميت بهذه الطريقة تصبح سببا لتوجيه اللوم إليه لو لم يكن يتحلى بها فى حياته المقبلة . ومن المثير أن نرى كيف يخرق المسلمون المحدثون تعاليم النبى باستثناء الوهابيين وحدهم . وقد رأينا فى بعض الأحيان باكيات من الطبقة الدنيا يتبعن أحد النعوش بوجه مكشوف بعد أن يلطخنه بالطين كما يلطخن به رءوسهن

وصدورهن . وكانت هذه العادة قائمة لدى قدماء المصريين . وفى حالة ما إذا كانت الجنازة لرجل غنى أو حتى من الطبقة المتوسطة فقد يسبقها أحيانا بعض الجمال المحملة بالقمح والماء اللذين يوزعان على الفقراء أمام القبر. وهذه المواكب تتكون من أشخاص مختلفين ومتعددين . ويفتتح اليمانية المسيرة وهم يترنمون ، كما قلنا فيما سبق ، بشهادة لا إله إلا الله . ويتبعهم أصدقاء المتوفى وبعض العلماء والأتقياء الذين يدعون للاشتراك فى الجنازة . ثم تأتى مجموعة من « الفقراء » وهم يرتلون سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) يتبعهم غيرهم من رجال الدين الذين يرتلون مختلف الدعوات حسب الطريقة التى ينتمون إليها والتى أسسها شيوخ مشهورون . ويتبع هؤلاء رايات هذه الطريقة أو تلك من طرق الدراويش العليا وهى نصف مفرودة ؛ ثم يأتى تلاميذ المدارس ثم النعش والنائحات كما يحدث فى المواكب الأخرى . وفى بعض الأحيان ، إذا كان حاملو النعش من ذوى المكانة فإن جيادهم تتبعهم .

... يشاهد الكثير من الناس مواكب جنازات الشيوخ الأتقياء أو بعض كبار العلماء . ولا تغطى نعوش هؤلاء الشخصيات بالشيلان . ذلك أن الشيخ فى مناسبة الجنازة هذه يكرم بطريقة خاصة . فالنساء يتبعن نعشه ولكن بدلا من أن يبكين ويندبن كما يفعلن بالنسبة للميت العادى فإنهن يرسلن صيحات جادة وأناشيد مرحة تسمى الزغاريد . فإذا توقفن عن هذه النغمات المرحة ولو دقيقة واحدة فإن حاملى النعش يعلنون أنهم لا يستطيعون التقدم وأن قوة غير عادية تمسك بهم فى المكان الذى يقفون فيه .

ص ٧٤٣

أما دفن النساء وصغار الصبية ، رغم أنه أكثر بساطة إلا أنه يشبه تقريبا دفن الرجال اللهم إلا إذا كانت الأسرة غنية أو ذات مكانة مرموقة . وكان من أفخم المواكب الجنائزية التى رأيناها موكب فتاة من أسرة كبيرة . لقد افتتح الموكب رجلان يحمل كل منهما علماً أخضر مطويا كبير الحجم . ويتبع ذلك ثمانية من «اليمانية» ثم مجموعة من الفقراء وهم يرتلون سورة من القرآن . يأتى بعد ذلك رجل يحمل غصنا من أغصان النبق وهو شعار صغار السن ويسير بين رجلين يحملان عصا طويلة يعلوها عدد كبير من الأطواق المزدانة بشرائط من الورق بمختلف الألوان . وخلف هؤلاء الثلاثة يسير جنبا إلى جنب جنديان من الأتراك . ويحمل أحد الجنديين صحنا صغيرا من الفضة المذهبة عليه تمم (أى قنينة) من ماء الورد . اما الآخر فهو مزود بصحن مشابه يحمل مبخرة من الفضة المذهبة تحترق فيها بعض العطور . هذه الأوانى التى تعطر الجو مخصصة لتعطير غرفة القبر . ومن حين لآخر تراهم يرشون المشاهدين بماء الورد . ويتبع الجنديين أربعة من الرجال يحمل كل منهم على صينية عدداً كبيرا من الشموع الصغيرة المشتعلة المثبتة على قطع من عجينة الحناء . أما النعش المغطى بشال بادى الثراء فله شاهد مزدان بغطاء رأسى رائع محلى ، بخلاف الصفا ، «بقصب الماس» وهى زينة من الذهب والماس لتحديد مكان الجبهة . وعلى قمة الشاهد يوجد قرص من الماس بادى الثراء . وهذه المجوهرات من ممتلكات المتوفاة أو كما يحدث أحيانا فإنهم يستعيرونها من

أجل الموكب . أما النساء وعددهن ثمان فكن يرتدين الثوب الحريرى الأسود الذى ترتديه النساء المصريات . ولكن بدلا من أن يسرن على الأقدام كما هى العادة فقد ركبن حميراً ذات براذع عالية .

... وإذا كان المتوفى يسكن أحد الأحياء الواقعة شمال المدينة فإنهم يفضلون حمل جثمانه الى مسجد حسنين (كذا) إلا إذا كان فقيرا ولم يكن من جيران هذا المسجد المبجل . وفى هذه الحالة فإن أصدقاءه يحملونه الى أقرب مسجد اقتصادا للوقت وللنفقات التى لا جدوى منها . وإذا كان من العلماء ، أى ذا مهنة علمية ، مهما كانت متواضعة ، فإنهم ينقلونه عادة إلى مسجد الأزهر الكبير . أما سكان الجزء الجنوبى من العاصمة فيحملون عادة موتاهم إلى مسجد السيدة زينب أو إلى مسجد ولى من الأولياء المعروفين . وسبب هذا التفضيل الذى يعطونه لهذه المساجد على المساجد الأخرى هو الاعتقاد بأن الدعوات التى ترسل بالقرب من مقابر الأولياء تقبل بصفة خاصة .

... ثم قال : «يا إلهى ! هذا عبدك ، وقد ترك راحة الدنيا واتساعها وكل ما كان يحبه ومن كانوا يحبونه من أجل ظلمات القبر وما يشعر به . وقد شهد بأن لا إله إلا أنت وحدك ولا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك ، لك العلم بكل ما يهمك . يا إلهى ! لقد رحل ليقيم معك أنت الذى ليس ثمة ما هو اطيب من المقام إلى جوارك إن رحمتك لا غنى له عنها وأنت لست فى حاجة إلى عقابه . لقد جئنا إليك متوسلين أن تسمح لنا أن نتوسط لصالحه . يا إلهى ! إذا كان عمله طيبا فزد كمية حسناته ،

وإذا كان عمله سيئا فتغاض عن سيئاته . لتسعه رحمتك ولتعفه من امتحان القبر وعذابه . اجعل لحده واسعاً واجعل الأرض بعيدة عن جنبيه (يعتقد المسلمون أن الأرض تعذب أجسام الأشرار التى تنكمش فى القبر على جنبيها رغم أن القبر عادة عميق) . اجعل رحمتك فى إعفائه من عذابك حتى الوقت الذى تبعثه فيه بسلام إلى الجنة . ياأرحم الراحمين ! .

وبعد أن يصيح الإمام للمرة الرابعة : « الله أكبر » يضيف « ربنا ! لا ترفض مثوبتنا على ما قدمنا له من خدمات ولا تجعلنا نمر بالامتحان بعده واغفر لنا واغفر له ولجميع المسلمين يارب العالمين ! » . وهكذا يختتم الإمام صلاته ويحيى الملائكة . إلى اليمين وإلى اليسار ويقول :

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! » كما يحدث فى نهاية الصلوات العادية . ثم يوجه كلامه إلى الحاضرين ..

ص ٧٤٤

ويمكن للقبر أن يتسع على الأقل لأربعة توابيت ونادراً ما يحدث أن تدفن النساء مع الرجال فى قبر واحد ، ولكن حين يحدث ذلك يقام حائط يفصل بين الجنسين .

... ومع ذلك فإن النبى قد نهى عن حفر اسم الله أو أية آية من القرآن على القبور التى أوحى بأن تكون منخفضة ومبنية فقط من الطوب النىء » .

ص ٧٤٥

وتدفع أجور الأشخاص الذين يستأجرون لحضور الجنازة لدى القبر! ، أما اليمانيون فيتقاضون قرشا واحداً عن كل رأس . وقد قيل أن الناس الأثرياء يأتون بالقمح والماء على ظهور الجمال فيوزعونها على الفقراء بعد الدفن . ولذا فإن هؤلاء التعساء يهرعون إلى المدفن فى جماعات حين يذبحون عجلاً ، حيث يوزع لحمه كذلك على الفقراء . ويسمى ذلك الكفارة . وهم يعتقدون أن هذه الضحية تكفر عن الذنوب الصغيرة لا الذنوب الضخمة . وبعد الجنازة يعزى كل من والدى المتوفى بهذه العبارة! عوضكم الله خيراً فى فقده أو يهنئونه لأن حياته طالت .

ص ٧٤٦

وقد ذكر سال ، فى حديثه الأول ، القسم الرابع ، بالطريقة التالية ، عدد آراء المسلمين حول حالة الروح فى الفترة ما بين الموت والحساب فقال : «إنهم يقسمون أرواح المؤمنين إلى ثلاث طبقات : الأولى هى طبقة الانبياء الذين تقبل أرواحهم فورًا فى الجنة ، والثانية هى طبقة الشهداء الذين تستريح أرواحهم حسب سنة محمد فى حويصلة الطيور التى تأكل فاكهة الجنة وتشرب من مائها ، والثالثه هى طبقة المؤمنين الآخرين وقد اختلفت فى شأنها الآراء بالنسبة لحالة الأرواح قبل البعث .

١ ــ ذلك أن البعض يقولون إنها تبقى بجوار القبور محتفظة بحريتها فى الذهاب حيث تشاء وهذا ما يؤكدونه وهم يذكرون الطريقة التى كان

محمد يحييهم بها فى قبورهم وتأكيده بأن هذه التحية يسمعها الأموات كما يسمعها الأحياء . وربما من هنا كانت العادة المنتشرة لدى المسلمين بزيارة قبور ذويهم .

٢ ـ وآخرون يفترضون أن هذه الأرواح تبقى فى السماء الدنيا مع آدم ، وهم يبنون رأيهم على قول النبى الذى أعلن انه وهو عائد من رحلته الليلية المزعومة فى السماء العليا رأى فى السماء الدنيا الأرواح الموعودة على يمين آدم والأرواح المحكوم عليها بالنار على يساره .

٣ ـ ويتصور آخرون أن أرواح المؤمنين تبقى فى بئر زمزم وأرواح غير المؤمنين تبقى فى بئر فى ولاية حضر موت تسمى بارابوت إلا أن هذا الراى اعتبر كفراً .

٤ ـ ويقول آخرون إن الأرواح تظل سبعة أيام بالقرب من القبور لايعرف على وجه اليقين أين تذهب بعد ذلك .

٥ ـ ويقول آخرون كذلك إنها تجمع كلها فى البوق الذى سوف يوقظ صوته الموتى . وأخيرا .

٦ ـ فإن آخرين يعتقدون بأن أرواح الخيرين تظل فى صورة طيور بيضاء تحت عرش الله . أما عن أرواح الأشرار ، خلافاً للاراء التى وردت فيما سبق ، فإن أكثر الناس اعتدالاً يؤيدون ، وقد منحتها الملائكة للسماء ، فان السماء ترفضها لأنها ذات رائحة كريهة نجسة ، ثم تمنح للأرض فترفضها للسبب نفسه ميلتى بها إلى الأرض السابعة حيث توضع فى زنزانة

تسمى « سلجين » تقع تحت صخرة خضراء ، أو حسب السنة المحمدية ، تحت فك الشيطان ، لكى تتعذب حتى تلحق بأجسادها . إلا أن الرأى الذى يتحدث عن بئر بارابوت هو المرجح اليوم .

... وثمة احتفال آخر يسمى المسبحة يتم بهذه المناسبة لتسهيل دخول المتوفى فى حالة الغبطة . وهى تستمر بين ثلاث وأربع ساعات . وبعد العشاء يتجمع عدد من الفقراء (عادة خمسون شخصا) فى منزل المتوفى . فإذا لم يكن ثمة فناء ولا قاعة كبيرة لاستقبالهم يفرش الحصير أمام البيت فيجلسون عليه .

ويحمل أحد هؤلاء الفقراء مسبحة مكونة من ألف حبة كل منها فى حجم بيضة الحمامة تقريبا . ويبدأون الاحتفال بترتيل سورة الملك (السورة ٦٧ من القرآن) ، ثم يرددون ثلاث مرات : «الله أحد ! » ثم يرتلون سورة الفلق (السورة قبل الأخيرة من القرآن) (كذا) والسورة الأولى الفاتحة . ثم يرددون ثلاث مرات : « ربنا ! أكرم عبدك سيدنا محمدا وآله وصحبة وسلم ! » ويضيفون : «إن كل الذين يدعونك هم السابقون والذين يهملون دعوتك هم المهملون » ثم يرددون ثلاث مرات : « لا إله إلا الله ! » . ويمسك أحدهم بالمسبحة ويعد كل تكرار من هذه الكلمات بإرسال حبة . من حباتها من بين أصابعه . وبعد تكرار بضعة آلاف من المرات يحدث غالبا أن يستريحوا ويتبادلوا القهوة . وبعد إتمام الألف الأخيرة ، وبعد الاستراحة وتناول المرطبات فإنهم يرددون مائة مرة ! «أوجه مديحى لله الكامل ! » ، ثم يرددون عددا مماثلا من المرات :

«استغفر الله العظيم ! » ثم يكررون خمسين مرة : «أحيي كمال الله الخالد ، كمال الله الخالد ! » ثم يكررون هذه الآيات من القرآن (كذا) : «أذكر صفات ربك رب القدرة بتنزيهه عما ينسب إليه (المسيحيون وغيرهم) من أن له ولد أو شريك فى الألوهية ، والسلام على الرسل والحمد لله رب العالمين ! »[٦٩] . ثم يرتل اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الفقراء ، كل على انفراد ، آية من القرآن . وبعد ذلك يطلب أحدهم من رفاقه الطلب التالى : «هل نقلتم إلى روح المتوفى ثواب ما قرأتم ؟ » فيرد الآخرون قائلين : «لقد نقلناه ، الصلاة والسلام على الأنبياء إلخ » . وبهذا يختتم احتفال المسبحة الذى يكرر لدى الأغنياء فى الليلتين الثانية والثالثة . ويقام هذا الاحتفال كذلك فى الأسر التى تتلقى نبأ وفاة قريب مقرب .

ولا يغير الرجال شيئا فى ملابسهم علامة على الحداد . وكذلك الحال بالنسبة للنساء حين يتعلق الأمر برجل مسن أما فى غير تلك الحالة فإنهن يرتدين الحداد . وفى هذه الحالة فإنهن يصبغن قمصانهن وطرحهن ومناديلهن بالنيلة التى تعطى تلك الملابس لونا أزرق يقترب أحيانا من اللون الأسود . وبعضهن يصبغن كذلك أيديهن وأذرعهن إلى ارتفاع الكوع ويطلين جدران غرفهن باللون نفسه . وحين يموت صاحب البيت أو مالك الأثاث ، وفى حالات أخرى من حالات الحزن كذلك ، فإنهن يفرشن

---

(٦٩) غنى عن الذكر أن هذا ليس قرآناً بل ترجمه لما جاء فى قول برقال

البسط والحصر والحشايا وأغطية الأرائك مقلوبة على الوجه الآخر . وأثناء الحداد لا تضفر النساء شعورهن ويمتنعن عن لبس بعض مجوهراتهن ، وإذا كن يدخن فإنهن لا يستعملن إلا الغاب .

وفى نهاية أول يوم خميس يتلو الجنازة ، بل حتى فى صباح ذلك اليوم فى كثير من الأحيان ، تبدأ نساء أسرة المتوفى فى الندب فى منزل المتوفى وينضم إليهن بعض صديقاتهن . وفى عصر أو مساء اليوم نفسه يأتى الرجال الذين كانوا أصدقاء للاسرة كذلك للزيارة . ويقوم ثلاثة أو أربعة من الفقراء فى ترتيل الأدعية . وفى صباح يوم الجمعة يذهب النساء إلى القبر حيث يحتفلن بنفس الطريقة التى تمت أثناء الدفن . ولدى مغادرتهن للقبر يضعن غصنا من النخيل على القبر ويوزعن الفطير والخبز على الفقراء . وتتجدد هذه المواسم فى الأيام المشابهة لمدة أربعين يوماً بعد الجنازة .

(انظر سفر التكوين ٥٠ ، ٣)

وبين فلاحى مصر العليا ثمة عادة غريبة : فإن أهل وصديقات المتوفى يتجمعن أمام منزله لمدة الأيام الثلاثة الأولى للجنازة لكى يرسلن صيحات مروعة ويقمن برقصات غريبة وهن يلطخن بالطين وجوههن وصدورهن وجزءا من ملابسهن ، ويلففن حول وسطهن بدلا من الحزام حبلا من الحشائش الجافة يسمونها الحلفا . (كانت تلك العادة قائمة لدى قدماء المصريين ، انظر هيرودوت الكتاب الثانى الفصل ٨٥) . وتلوح

كل منهن فى يدها بعصا من جريد النخل فى تشنج عصبى أو تمسك بحربة أو سيف عار ، وترقص فى ذات الوقت بخطوة بطيئة وبطريقة غير منتظمة وهى ترفع وتخفض جسمها . وتستمر هذه الرقصة ساعة أو حتى ساعتين وقد تتكرر مرتين أو ثلاث مرات يوميا . وبعد اليوم التالى يزور النساء قبر المتوفى ويضعن عليه الحبال التى اتخذتها أحزمة . ويحدث عادة أن يذبحوا حملاً أو جديا كضحية للتكفير عن سيئات المتوفى ، وينتهى الحفل بوليمة .

٨ ـ شعب مصر

باستثناء العاصمة وبعض المدن الأخرى فإن مصر لا تملك إلا القليل من البيوت الجميلة . إن مساكن الطبقة السفلى للشعب لاسيما الفلاح ذات بناء تعس . فبيوتهم مبنية عادة من الطوب الذى يستخدم الطين فيه بدلا من الأسمنت ، وهى ليست فى غالب الأمر إلا أكواخا : ومعظمها مكون من غرفتين ، ومن النادر أن تكون ذات طابقين . وفى مصر السفلى نرى عادة فى إحدى هاتين الغرفتين . وفى مواجهة الداخل ، ولكن فى أبعد مكان من المدخل يوجد الفرن الذى يحتل عرض الحائط الداخلى بأكمله . وهذه الأفران تشبه المقاعد الكبيرة ولها قبة من الداخل ، وارتفاعها فى ارتفاع اليد وغطاؤها مسطح . ولما كان من النادر لسكان هذه البيوت أن يكون لديهن بطاطين للشتاء فإنهم ينامون فوق الفرن بعد إشعاله . وفى بعض البيوت لا يوجد إلا الزوج والزوجة اللذان يستمتعان بهذا الامتياز . أما الأطفال فينامون على الأرض . وللغرف

فتحات صغيرة فى أعلى الحائط لإدخال النور والهواء . وتزود أحيانا هذه الفتحات بأسياخ من الخشب . أما الأسقف فهى مبنية من سعف النخيل وأوراق الأشجار أو سيقان الذرة الخ ثم تغطى بغطاء من الطمى والقش الرقيق . ويتكون الأثاث من حصير وأحياناحصيرين بدلاً من السرير ، وبعض القدور الفخارية ورحى لطحن القمح . ونرى فى كثير من القرى أبراج حمام مربعة كبيرة مقامة فوق الأسطح تميل أعمدتها كما يحدث فى المبانى المصرية القديمة قليلا نحو الداخل وأحيانا تأخذ هذه الأبراج شكل أقماع السكر . وهى مبنية من الطوب النى والطين والقدور البيضاوية ذات الفتحة الكبيرة من الخارج وثقب صغير من ناحية الأخرى . ويشغل كل زوج من الحمام قدراً منفصلاً . ومعظم القرى المصرية مبنية على ربوة مكونة من أطلال مما يجعلها أعلى من ارتفاع الفيضانات ببضع أقدام . وهى محاطة فى بعض الأحيان بالنخيل . وتتكون الأطلال التى يكونون بها هذه الارتفاعات من مواد أكواخ قديمة . ونلاحظ أنها تبدو فى ارتفاع الطمى ومجرى النهر .

الحياة العائلية لدى المصريين

إن الحياة المنزلية لدى الطبقات الدنيا بسيطة جداً فى العادة بالقياس إلى الحياة لدى الطبقات الأكثر ارتقاء مما يجعلها قليلة الأهمية .

وفيما عدا جزءا صغيرا من السكان يعيش فى المدن فإن معظم الطبقات الدنيا تتكون من أناس يسمون « الفلاحين » (أى المزارعين) .

أما سكان المدن الكبرى ، أو حتى ما هى أقل منها اتساعاً ، وكذلك عدد قليل من سكان القرى ، فهم من صغار الباعة أو الحرفيين أو من الخدم ويتقاضى هؤلاء مرتبات ضئيلة جداً وهى فى غالب الأمر غير كافية لمأكلهم وأسرهم .

وغذاؤهم الرئيسى هو خبز الذرة واللبن والجبن الطرى والبيض والسمك الصغير المملح المسمى « فسيخ » . وهم يأكلون كذلك الخيار والبطيخ والقرع الموجود بكثرة والبصل والكرات[٧٠] والفول والحمص والعدس والبلح الطازج أو المجفف والخضروات المملحة . وهم يأكلون الخضروات فى معظم الأحوال نيئة . ويتحف الفلاحون أنفسهم ببعض سنابل الذرة شبه الناضجة التى يشوونها على النار أو فى الأفران . ولا يسمح ثمن الأرز للفلاحين بأكله وكذلك الحال بالنسبة للحم .

والمتعة الكبرى بالنسبة لهؤلاء الناس البسطاء وهى التبغ رخيص الثمن الذى يزرعونه ويجففونه بأنفسهم . وهذا التبغ مخضر اللون ورائحته لطيفة نوعاً .

---

(٧٠) الذى يطلق عليه المصريون اسم الكرات ابو شوشه .

ورغم أن جميع المواد الغذائية المذكورة فيما سبق رخيصة فإن الفقراء لا يستطيعون الحصول إلا على الخبز الخشن الذى يغمسونه بخليط يسمونه الدقة وهو مكون من الملح والفلفل والزعتر أو النعناع والكمون . ولدى كل قضمة يغمسون الخبز فى هذا الخليط . ورغم هذا الحديث عن مدى فقر طعام الفلاحين المصريين فإنك تدهش لمظهر الصحة البادى عليهم وهيكلهم الصلب وكمية العمل التى يستطيعون تحملها .

أما نســاء الطبقات الدنيا فمن النادر أن يكن فاقدات النشاط ، بل ان الكثيرات منهن يتحملن أعمالا أشق من أعمال الرجال . وهن يهتممن عاده بإعداد طعام الزوج وإحضار الماء الذى يحملنه فى قدور كبيرة على رءوسهن وغزل القطن والكتان أو الصوف ، وعمل فطائر كبيرة مستديرة مكونة من روث الماشية والقش الرقيق يعجنها معاً ويستخدمنها كوقود .

بهذا الوقود المسمى «الجلة» توقد الأفران وتعد الأطعمة . وفى الطبقات الدنيا نلاحظ أن خضوع النساء لأزواجهن أكبر منه لدى الطبقات المرتفعة . وليس من المسموح دائما لهؤلاء النساء المسكينات بتناول العشاء مع الرجال . وحين يخرجن بصحبة الزوج فإنهن يمشين دائما فى الخلف . وإذا كان ثمة ما يحمل فإن المرأة هى التى تتحمل ذلك .

وفى المدن تملك بعض النساء الحوانيت التى يبعن فيها الخبز والخضروات الخ .. بحيث يشاركن مثل الزوج بل ربما أكثر منه فى أعمال الأسرة .

وحين يرغب أحد المصريين الفقراء فى الزواج فإن همه الأول هو إعداد المهر الذى يبلغ عادة عشرين ريالاً (أى من ١٢ إلى ١٣ فرنكا) . وإذا وجد الرجل إمكانية لتقديم المهر ... فإنه لا يتردد مطلقا فى الزواج . ذلك لأن ما يتبقى أمامه بعد ذلك قليل بالنسبة لإعالة امرأة وطفلين أو ثلاثة . ويصبح الأطفال ذوى فائدة فى قيادة وحراسة الماشية ابتداء من سن الخامسة أو السادسة . وبعد ذلك ، وحتى وقت زواجهم فإنهم يساعدون الأب فى أعمال الحقل . ويعتمد الفقراء عادة فى مصر اعتمادا كليا فى شيخوختهم على أعمال أبنائهم . ولكن كثيرا من الآباء محرومون من هذه المساعدة . ولذا فهم يضطرون إلى التسول أو الموت جوعاً . ومند وقت قليل نزل الباشا خلال رحلة من الاسكندرية إلى القاهرة فى قرية فى شمال النيل . وأمسك رجل فقير بكم ثوب الباشا وذهبت جميع الجهود لتخليصه منه هباء وأخذ هذا المسكين يشكو من أنه كان فى الماضى فى يسر ثم تحول إلى الفقر المدقع لأنه إذ بلغ سن الشيخوخة انتزع منه ابناؤه لتجنيدهم . وهب الباشا الذى يهتم عادة بالطلبات التى تقدم له شخصيا لنجدة هذا التعس ، ولكن بأن أمر أغنى رجل من أهل القرية بأن يعطيه بقرة .

ويحدث أحيانا أن تكون أسرة صغيرة عبئا لا يحتمل بالنسبة للأهل الفقراء . ولذا فليس من النادر أن نرى أطفالا يعرضون للبيع ، وتقدم الأم نفسها بهذا العرض أو بواسطة بعض النساء اللاتى يكلفهن الأب بهذه المهمة . ولكن لابد أن يكون بؤس هؤلاء الناس قد بلغ أقصى مداه . فإذا

حدث وتوفيت الزوجة تاركة طفلا أو أكثر بلا فطام ، وإذا كان الأب أو غيره من الأقارب فى فقر مدقع بحيث لا يستطيعون الحصول على مرضع فإنهم يعرضون الأطفال للبيع أو يعرضونهم على باب أحد المساجد حين يكون ثمة تجمع للناس لدى صلاة الجمعة .

ويحدث عادة أن يتأثر أحدهم شفقة بهذا المخلوق الذى يعرض بهذه الطريقة فيحمله ليربيه فى أسرته لا كعبد ولكن كطفل متبنى . وإذا لم يتم ذلك فإنهم يعهدون به إلى شخص ما حتى يتسنى العثور على أم أو أب له بالتبنى .

ومنذ بعض الوقت عرضت امرأة على سيدة طفلا منذ بضعة أيام وزعمت أنها عثرت عليه أمام باب أحد المساجد . وقالت لها السيدة إنها على استعداد لتربيته لوجه الله على أمل أن يبعد ذلك كل شر عن ابنها الوحيد الذى تحبه جزاء لهذا العمل الخير وفى ذات الوقت وضعت عشرة قروش (أى ما يساوى فرنكين ونصف) فى يد المرأة ولكنها رفضت هذه الهدية . وهذا يدل على أنه يحدث أحيانا أن تمارس هنا تجارة تهريب الأطفال وأن من يدفعون نقودا يستطيعون أن يحولوهم الى عبيد أو يعيدون بيعهم . وقال لى أحد تجار الرقيق ، كما أكد لى غيره ذلك ، أنهم أعطوه للبيع كثيرات من الفتيات بمحض موافقتهن . فقد أقنعوهن بذلك بأن صوروالهن الملابس الغالية وأدوات الترف التى سوف يحصلن عليها . وعلموهن أن يقلن إنهن أجنبيات وانهن جلبن إلى مصرفى سن الثالثة أو الرابعة ونسين لغتهن الأصلية ولم يعدن يعرفن إلا العربية .

ويحدث كثيرا للفلاحين أن يسلمن لحالة من الفقر الشديد بحيث يضطرون من أجل النقود إلى وضع أطفالهم فى حالة أشد من العبودية العادية ، فحين يطلب من قرية ما أن تسلم قدراً معينا من الدخل فإن الشيخ يتبع عادة الطريق الأسهل ألا وهو أخذ أغنى أبناء الناحية . وفى هذه الظروف فإن الأب ، كى لا يحرم من ابنه يمنح أحد القرويين الفقراء من خمسة وعشرين إلى خمسين فرنكا لكى يحصل على بديل وهو ينجح فى هذه المهمة فى معظم الأحوال رغم أن حب المصريين لأبنائهم فى مثل حب الأبناء لآبائهم يرتاعون عادة من فكرة تجنيد أبنائهم . وهذا الارتياع يبلغ حد اللجوء إلى وسائل عنيفة لتجنب هذه المصيبة . ففى أيام حرب سنة ١٨٣٤ مثلا لم يجدوا تقريبا شبابا صالحين لاينقصهم على الأقل سن أو سنين حطمت عمداً لجعلهم عاجزين عن عض الخرطوشة ، أو قطع لهم أصبع أو سملت لهم عين . بل أنه فى بعض الحالات فقعت العينان لكيلا يؤخذ الأبناء ويرسلوا إلى الجيش وقد عرف عن بعض عجائز النسوة وغيرهن بالتجول فى القرى لإجراء هذه العمليات للأولاد . وفى بعض الحالات يقوم الآباء أنفسهم بهذه العمليات .

ولا يمكن أن يذكر فلاحو مصر بالخير لا من حيث حالتهم الأسرية والاجتماعية ولا من حيث العادات والتقاليد . وثمة وجه شبه كبير من هذه النواحى بينهم وبين أجدادهم البدو دون أن تكون لهم فضائل سكان البادية . وحتى إذا كانت لهم بعض الفضائل فقد انحلت . أما عن المثالب التى يتسمون بها فهى كثيرا ما تمارس تأثيرا سيئا على حالتهم الأسرية . وقد

قيل فيما مضى أنهم من سلالة مختلف الأجناس العربية التى استقرت فى مصر فى عصور مختلفة . ومازال سكان القرى بأجمعهم يلاحظون ما بين القبائل من تمييز وبفعل الزمن انقسمت كل قبيلة أصيلة إلى عدة فروع . أصبحت أسماء هذه القبائل الصغيرة تحملها القرى أو المراكز التى يسكنونها . وأقدم القبائل استقراراً فى مصر قد احتفظت من البدو الأوائل بقدر أقل واختلط نقاء جنسهم بالزواج المتبادل مع الاقباط الذين اعتنقوا الاسلام أو مع سلالتهم مما جعل القبائل الأحدث استقراراً فى البلاد تحتقرهم وتسميهم «الفلاحين» وتحتكر التسمية بالعرب أو البدو . وحين يرغب هؤلاء الزواج من بنات الأوائل فلا يجدون صعوبة فى الزواج منهن . ولكنهم لا يسمحون أبداً بزواج بناتهم من هؤلاء الذين يسمونهم بالفلاحين . وإذا قتل أحدهم بواسطة شخص من قبيلة فإنهم ينتقمون له بقتل اثنين أو ثلاثة أو حتى أربعة من هذه القبيلة . ويعاقب القتل عادة بقتل أحد أفراد أسرة القاتل . وحين يتم القتل بواسطة شخص من قبيلة الضحية تحدث عادة عدة معارك صغيرة تتحول إلى حرب مفتوحة بين القبيلتين تمتد عادة لسنوات بسبب إهانة طفيفة يوجهها شخص من قبيلة إلى آخر من قبيلة أخرى .

وفى حالات كثيرة يتم الثأر بالدم بعد قرن أو يزيد من حدوث القتل إذا أثاره شخص أو آخر بعد أن بدا أن هذه المدة الطويلة قد جعلت الأمر فى طى النسيان . وفى مصر السفلى توجد قبيلتان : سعد وحرم ، وهما يتميزان ، بمعاركهما وأحقادهما (وتوجد الحالة نفسها بين قيس وعيد فى

سورية) . ومن هنا يأتى إطلاق هذه الأسماء على أشخاص أو أحزاب تعيش فى حالة عداء . ومن الغريب أنهم يتحملون ، حتى فى هذا الوقت ، مثل هذه الجرائم التى لو حدثت فى مكان آخر أو فى مدن مصر الكبرى لعوقبت بأحكام الاعدام التى يروح ضحيتها العديد من الأشخاص الضالين . والثأر بالدم مسموح به بمقتضى القرآن . ولكنه يوحى فى تنفيذ ذلك بالاعتدال والعدل[٧١]. والحروب الصغيرة التى يسببها الثأر فى زماننا تتعارض إذن مع تعاليم النبى الذى قال : «إذا سحب مسلمان السيف أحدهما ضد الآخر فإن القاتل يعاقب بالنار[٧٢]

وفى حكايات أخرى فإن الفلاحين يشبهون البدو . وحين تثبت خيانة فلاحة لزوجها فإنه هو نفسه أو شقيق المرأة الزانية يسقطانها فى النيل بحجر مربوط فى عنقها أو يلقون بجثتها فى النهر بعد تقطيعها إربا . والابنة أو الأخت غير المتزوجة حين ترتكب إثما تعاقب غالبا بنفس الطريقة ويقوم الأب أو الأخ بتنفيذ الإعدام . ويعتبر والدا مثل هؤلاء البنات أكثر تحملا للعار من الزوج بالنسبة لخيانة زوجته . وإذا لم يأخذ بثأره فإن الأسرة تتعرض لاحتقار القبيلة كلها .

---

(٧١) القرآن ٢ ـ ١٧٣ ، ١٧ ـ ٣٥ (حسب رأى جبرار) .

(٧٢) القرآن ٤ ـ ٩٥ (فى إدعاء جبرار) .

عيد محمد

فى بداية شهر بابيا الأول BJM [٧٣] (أى الشهر الثالث) ، يستعد الناس للاحتفال بمولد النبى . وهذا الاحتفال يسمى مولد النبى والمكان الرئيسى للاحتفال هو الجزء الجنوبى الغربى من الساحة الكبيرة ببركة الأزبكية التى تصبح كلها تقريبا أيام الفيضان بحيرة . ويحدث لعدة سنوات متتالية أن يأتى المولد فى هذا الموسم فيحتفل به على ضفاف البحيرة . ولكن إذا كان مكانها جافا فيتم الاحتفال فيه . فتقام السرادقات الكبيرة التى تسمى «صيوان» والتى يتجمع فى معظمها الدراويش فى جميع ليالى المولد . وفى وسط كل من هذه السرادقات يقام صارى يثبت جيدا بالحبال ويعلق عليه نحو اثنا عشر من المصابيح الصغيرة أو يزيد . وحول هذه الصوارى تتجمع فرقة من نحو خمسين أو ستين درويشا يصطفون فى دائرة ينشدون الذكر . وبالقرب من هذا المكان يقام ما

---

(٧٣) صحتها ربيع الأول .

يسمونه « بالقائم » ، وهو عبارة عن أربعة من الصوارى التى تقام فى صف واحد ، ويبعد كل واحد عن الآخر بضعة قضبان ، وتثبت جميعا بالحبال التى تمر من أحدهما إلى الآخر وتثبت فى الأرض من الطرفين .

وتعلق المصابيح على هذه الحبال بين الصوارى مكونة أحيانا أشكال الزهور أو الأسود ألخ .. وأحيانا أخرى تشكل كلمات مثل أسم الله واسم النبى محمد أو بعض العبارات الأخرى وأحيانا تكون مجرد زينات زخرفية . وتنتهى الاستعدادات فى ثانى يوم من أيام الشهر . وفى اليوم التالى تبدأ الاحتفالات والابتهاجات التى ينبغى أن تستمر بلا توقف حتى الليلة الثانية عشرة من الشهر ، ويعنى ذلك حسب الطريقة التى يحسب بها المسلمون حتى الليلة التى تسبق اليوم الثانى عشر ، وهى فى الواقع ليلة المولد . وخلال هذه الفترة المكونة من عشرة أيام وعشر ليال يتجمع جزء كبير من سكان البلاد فى الأزبكية .

وفى بعض أجزاء من الشوارع المجاورة للمكان تقام الأراجيح وغيرها من الألعاب وكذلك عدد كبير من جوانب العرض لبيع الحلوى .

وذهبنا الى شارع يسمى سوق البكرى ، ويقع فى جنوبى ميدان الأزبكية لنرى الذكر الذى قيل لنا ان به أحسن المنشدين . وكانت الشوارع التى ينبغى لنا أجتيازها للوصول إلى المكان غاصة بالجماهير ، ولم يكن مسموح لأحد بالتجزل دون مصابيح ، كما هى العادة حين يجن الليل . وكنا نرى بالكاد بعض النسوة ضمن الحاضرين .

وفى مكان الذكر نفسه علق شمعدان كبير جدا يحمل مائتين أو ثلاث مئات من المصابيح الزجاجية الصغيرة المتقابلة فيبدو أنه يتكون من مصباح واحد . وحول هذه الحزمة من النور كان ثمة عدد كبير من المصابيح الخشبية يحتوى كل منها على عدد كبير من المصابيح الصغيرة الشبيهة بمصابيح الشمعدان .

والذكير (أو منشد الذكر) يجلس مع رفاقه وعددهم عادة ثلاثون ، وقد عقدوا السيقان على حصر مفروشة لهذا الغرض بطول منازل جانبى الشارع ، ومصطفة فى شكل دائرة طولها أكبر قليلاً من عرضها . وفى وسط هذه الدائرة كان ثمة ثلاث شمعات تحملها شمعدانات منخفضة جداً . ومعظم رجال الذكر أو الذكيرة ، كانوا من الدراويش الأحمدية ، وهم أناس من الطبقة المتواضعة ويلبسون ملابس رثة وبعضهم فقط كان يلبس العمامة الخضراء . وفى أحد أطراف الدائرة المستطيلة كان ثمة أربعة منشدين (أى من يتغنون بالشعر) ، وأربعة من عازفى آلة تشبه الصفارة تسمى الناى . وتوصلنا إلى العثور على مكان لنا وسط هؤلاء من أجل حضور مجلس الذكر بأكمله (أى المشهد) وسوف نصفه بأكبر قدر ممكن من الدقة لنعطى فكرة عمن يحاطون فى القاهرة بأكبر قدر من الاعجاب . وقد بدأ هذا المجلس فى الساعة الثالثة تقريبا ، وبناء على تقديرنا ، أى الساعة الثالثة بعد غروب الشمس . وقرأ المنشدون أولا الفاتحة معاً حين صاح رئيسهم أولا قائلا : «الفاتحة» ! . واصل الجميع الانشاد قائلين : «يا إلهى ! أكرم سيدنا محمدا عبر

القرون ، أكرم سيدنا محمدا فى أعلى مكان يوم الحساب وأكرم جميع الأنبياء المرسلين بين سكان السماوات والأرض . وليرض الله الذى نمجد اسمه ونباركه عن سادتنا وموالينا أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويرفع ذكرهم . الله ملاذنا وحارسنا . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! يا إلهى ! يا مولانا ! يا غفار ! يا أكرم الأكرمين يا الله ! آمين ! » .

وبعد هذه الأناشيد يظل الذكيرة صامتين بضع دقائق ، ثم يبدأون بصوت منخفض .

وهذه الطريقة فى بدء الذكر منتشرة بين جميع طرق الدراويش فى مصر وتسمى استفتاح الذكر . وبعد ذلك يبدأ المنشدون وقد اصطفوا كما ذكرنا فيما سبق ، يبدأون الذكر قائلين : « لا إله إلا الله » بنغمة بطيئة وهم يحنون مرتين لدى كل تكرار للا إله إلا الله ، ثم يستمرون هكذا نحو ربع الساعة ويكررونها ربع ساعة آخر فى حركة أكثر قوة بينما المنشدون ينشدون على النغمة نفسها أو يغيرونها بأجزاء من قصيدة أو موشح أو أنشودة من نوع أناشيد سليمان وهم عادة يذكرون النبى كموضع حبهم ومديحهم .

ويدور الذكر حتى يدعو الصباح الناس إلى الصلاة . ولا يستريح الذاكرون إلا بين كل مجلس ومجلس بأن يشرب البعض القهوة ويدخن البعض الآخر .

وكان الوقت قد تعدى منتصف الليل حين غادرنا مكان الذكر فى

شارع سوق البكرى لكى نتوجه إلى ميدان الأزبكية وهنا كان ضوء القمر مضافا إلى ضوء المصابيح يحدث تأثيرا فريداً . ومع ذلك فقد كان الكثير من هذه المصابيح مطفأ على قائم السارى وفى السرادقات . وكان الكثيرون من الناس ينعسون وقد تمددوا على الأرض العراء وهم يأخذون هكذا قسطهم من الراحة الليلية . وانتهى ذكر الدراويش حول السارى ولن نصف هذا الذكر إلا حسب الملاحظات التى أبديناها الليلة السابقة . أما هذه الليلة فبعد أن حضرنا الكثير من الأذكار فى السرادقات نهضنا منسحبين .

وفى اليوم التالى (أى الليلة السابقة مباشرة لليلة المولد) عدنا إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة تقريبا . وكان الوقت مبكراً جداً لكى يكون الزحام شديدا وأن تكون وسائل التسلية متوفرة فلم نر إلا بعض المشعوذين والمهرجين و «الشعراء» الذين جاهدوا لجمع حلقة صغيرة من المشاهدين حولهم . ولكن ما لبث الجمهور أن ازداد تدريجيا لأن الأمر كان يتعلق بمشهد مرموق يجتذب كل عام فى مثل هذا اليوم جمهوراً دائم التشوق لرؤيته . هذا المشهد يسمى الدوسة وهذه هى أوصافه :

بعد أن يقضى ، كما يقولون ، شيخ الدراويش السعدية (السيد محمد المنزلة «كذا») وهو «كاتب» مسجد الحسنية[٧٤]، بعد أن يقضى

---

(٧٤) ربما يقصد الحسين .

جزءا من الليلة السابقة فى الخلوة وتكرار بعض الأدعية والنداءات الخفية وبعض آيات القرآن ، يظهر فى المسجد سابق الذكر يوم الجمعة ، وهو اليوم السابق لليلة المولد ، لأداء الشعائر المعتادة ، شعائر الدوسة . ولما تنتهى صلاة الصبح والأدعية يغادر المسجد لكى يتجه على ظهر جواده إلى منزل الشيخ البكرى سيخ جميع طرق الدراويش فى مصر . وهذا المنزل يقع فى جنوب ميدان الأزبكية فى مواجهة البيت الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربية . وأثناء قيامه بهذا المشوار يتبعه جمع من الدراويش السعدية من مختلف أنحاء البلاد والشيخ هو رجل مسن ذو لحية بيضاء وبنيان جميل وملامح طيبة تدل على الذكاء . وفى اليوم الذى نتحدث عنه يرتدى الشيخ معطفا أبيض وقاوونا (أى غطاء رأس مبطن ومغطى بالصوف) . أما عمامته المصنوعة من قماش موصلى فهى خضراء فى لون الزيتون القاتم الذى يصعب تمييزه من الأسود ، وعليها رباط من الموصلى (الموسلين) الأبيض يعبر جبهته بشكل مائل . والحصان الذى يركبه من حجم متوسط ووزن عادى . وسوف نرى الآن لأى سبب أبدينا هذه الملاحظة .

ودخل الشيخ إلى بركة الأزبكية يسبقه موكب كبير من الدراويش الذين يعملون تحت رئاسته . وعلى مسافة قليلة من بيت الشيخ البكرى توقف الموكب وأتى عدد كبير من الدراويش وغيرهم . ولم نستطع عدهم ولكنهم كانوا بلا شك أكثر من ستين شخصا انبطحوا على بطونهم على الطريق أمام خطوات الحصان الذى يركبه الشيخ . واصطفوا الواحد بجوار

الآخر بحيث يكونون على أكبر قدر ممكن من التقارب وقد فردوا سيقانهم وسندوا جباههم على أذرعهم المعقودة وهم يترنمون بلا توقف بكلمة : « الله » ! ثم أخذ اثنا عشر درويشا أو يزيدون يمرون على ظهور زملائهم الراقدين ، وبعضهم يقرع الطبول الصغيرة التى يمسكون بها بيدهم اليسرى وهم يصيحون : « الله » . وحينئذ اقترب الشيخ ، وتردد حصانه لبضع دقائق فى وضع قدمه على أول هؤلاء الرجال المتمددين فى طريقه . ولكن لما دفع من الخلف زال عنه التردد ، ودون خوف ظاهر بدأ السير بخطوة عالية مر عليهم جميعا يقوده رجلان يمسك به كل منهما من ناحية ويجرى أحدهما على أقدام الراقدين والآخر على رءوسهم . وللتو بدرت صيحة طويلة من المشاهدين :

« لا إله إلا الله ! » فإن أحداً من هؤلاء الرجال الذين داستهم أقدام الحصان ومن يتولون قيادته لم يصب بسوء . وكان كل منهم ينهض فى قفزة واحدة . بمجرد أن يمر الحصان فوقه وينضم إلى الموكب الذى يتبع الشيخ . لقد تحمل كل منهم خطوتين من خطوات الحصان إحداهما من إحدى القدمين الأماميتين والأخرى من إحدى القدمين الخلفيتين دون أن ننسى خطوات من يقودون الحصان . ويقال إن هؤلاء الناس وكذلك الشيخ نفسه يرددون بعض الأدعية وبعض الدعوات فى اليوم السابق حتى لا تحدث أى مجازفة فى هذا الاحتفال وينهض الجميع سالمين وقد بلغت الجرأة ببعضهم إلى حد الاشتراك فى هذا الاحتفال دون أن يكونوا أعدوا مسبقا لذلك . وقد حدث فى مرات عديدة أن قتلوا أو شوهوا تشويها

شديداً . ويعتبر نجاح هذا الاحتفال الدينى معجزة تحققها قوة خارقة تنسب على التوالى لكل شيخ من مشايخ السعدية[٧٥]

ومن عادات بعض مشايخ الطريقة السعدية فى هذه المناسبة أن يأكلوا الثعابين الحية أمام جمع مختار فى منزل الشيخ البكرى نفسه . إلا أن الشيخ الحالى قد اعترض أخيرا على هذه العادة فى العاصمة وأعلن أنها ممارسة مقززة ومعارضة للدين الذى يعد الزواحف من الحيوانات التى لا ينبغى أكلها . ومع ذلك فإن السعديين قد أكلوا كثيرا من الثعابين والعقارب أثناء رحلتنا الأولى فى هذه الجهة . ونضيف أنهم يقتلعون أسنان الثعبان التى تحتوى على السم فيصبح الحيوان عاجزا عن العض فتثقب شفتاه وينفذ منهما حبل من الحرير يربطهما معاً . ويستبدل الحبل الحريرى بحلقتين من الفضة إذا أخذ الثعبان لعرضه فى الموكب .

وحين يأكل أحد السعديين لحم الثعبان الحى فإنه يأخذه نوع من الارهاص ، أو لعله يدعى ذلك . فيرتكز بقوة بطرف أصبعه على ظهر هذا الحيوان الزاحف على بعد بوصتين من الرأس تقريبا ولا يأكل إلا المكان الذى ارتكز عليه أى ما يكفى لثلاث قضمات أو أربع . أما بقية الجسم فيلقى به .

---

(٧٥) يقال إن ثانى شيوخ السعدية (وهو الذى تلا مؤسس هذه الطريقة مباشرة) قدى جرى بحصانه على كومة من القطع الزجاجية دون أن تنكسر قطعة واحدة منها .

ومع ذلك فقد يتعرضون أحيانا لخطر الثعابين حتى ولو كانوا من السعديين . وقد قصوا علينا أنه منذ عدة سنوات ، عن لأحد الدراويـش من هذه الطريقة ، وكانوا يسمونه الفيل لضخامة جسمه وقوته العضلية ، وكان أشهر آكلى الثعابين فى زمنه.وفى كل زمن ، عن) له أن يستأنس ثعبانا من نوع سام للغاية جلب من الصحراء . فوضع هذا الزاحف فى سلة واحتفظ به أياما عديدة لكى يضعفه . ثم أراد أن يمسكه لينزع له أسنانه فمد يده إلى السلة فشعر بالثعبان يعضه فى أصبعه الابهام . فطلب النجدة ولكن لما لم يكن بالمنزل إلا امرأة خافت أن تهرع إليه فقد خر بعد بضع دقائق دون أن يهب أحد لمساعدته . وحين حضروا إليه كان ذراعه كله قد أصبح أسود وملتهبا ومات الرجل بعد بضع ساعات .

ص ٧٥٠

الملاحظة القادمة ، المستقاه من جريدة القسطنطينية ، تثبت أن ثمة تقدم فى صالح الفنون يتم بشكل ملحوظ بين عام وآخر :

« وكم من أحكام مسبقة قد تم القضاء عليها فيما يختص بالرسم وهو فن يمارسه الكثير من التلاميذ بنجاح كما يشهد بذلك معرض متنوع للمصورات والرسوم المائية والمناظر ألخ ... وقد لاحظنا منظرًا للكوبرى الجديد Lapant wey فى باريس أخذ من الافريز الذى يوجدبه تمثال هنرى الرابع بحيث يمكننا رؤية منظر الأرصفة ومتحف اللوفر حتى التويلرى . وقد قام بتنفيذ المنظر تحسين أفندى من جلاتا وهو تلميذ فى

الصف الرابع . وكذلك رأينا منظرًا للتويلرى أخذ من الحوض الكبير مع مسلة الأقصر فى الخلفيه ، وقد قام بتنفيذه عبد الله أفندى ، وكذلك منظر شلالات سان كلو للشخص نفسه .

ص ٧٥٣

أما فيما يختص برسم الزخارف والذوق وتناسق الأشكال العربية فأنت تعرف تفوق الأتراك فى هذا الصدد . إن ناعورة توبانا الجميلة التى نلاحظها فى رسوم روجييه[٧٦] قد تكون ذات فائدة لقرائك حول عبقرية الزخرفة فى القسطنطينية .

خطاب عمرو

لن تكون ثمة طريقة أفضل لختام هذه الملاحظات حول مصر المعاصرة من ذكر الخطاب الرائع الذى كتبه عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر أيام غزو المسلمين لهذا البلد وهذا التفصيل يتيح لنا أن نثبت نقطة تاريخية يبدو أنها حيرت الكثير من العلماء . فقد وقع مسيو أمبير الابن ، الذى نشر منذ وقت قريب بحثا هاماً حول مصر ، وقع فى الخطأ المشترك

---

(٧٦) ألبوم تركيا ، سلم قوب ـ هانيه .

الذى يفترض أن الخليفة عمر قد قام هو نفسه بحصار الاسكندرية . وسوف نرى فى الأحداث التالية أن قائده عمرو هو الذى كلف بهذه الحملة . وقد حافظنا هنا على الأسلوب القديم لمستشرق قديم هو بيير قاتييه الذى ينقل الأسلوب العربى بطريقة تدعو للإعجاب .

هذا هو الخطاب الذى كتبه أمير المؤمنين عمر إلى عمرو « إن اللغة الفرنسية لا تحسن نقل الحروف الساكنة العربية)

« من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : السلام عليك يا عمرو ورحمة الله وبركاته وعلى المسلمين أجمعين . وبعد فإنى أحمد الله على نعمه التى أولاك إياها ، لا إله إلا هو ، أسأله أن يبارك محمداً وآله . علمت يا عمرو ، من التقرير الذى قدم إلى أن الولاية التى تحكمها جميلة وقوية وحسنة الزرع والنسل ، وأن الفراعنة والعمالقة قد حكموها وانجزوا بها أعمالاً رائعة وأشياء ممتازة وأنهم عرضوا بها دلائل عظمتهم وعليائهم . وهم يتصورون أنهم خالدون ويأخذون دون حساب . ومع ذلك فقد أقرك الله فى بيوتهم ووضع تحت سلطانك أموالهم وعبيدهم وأطفالهم وجعلك وارثا لأراضيهم فالشكر له والحمد له وإليه يعود الفضل والمجد . وحين تقرأ خطابى هذا اكتب لى عن صفات مصر الخاصة سواء عن أرضها أو بحرها ، واجعلنى أعرفها كما لو كنت قد رأيتها بنفسى » .

وحين تلقى عمرو هذا الخطاب ورأى محتوياته رد على عمرو بادئا خطابه بالعبارة التالية : « من عبد الله عمرو بن .. وحين قرأ أمير المؤمنين

عمر خطاب عمرو ، كما يقول الكاتب ، قال : «لقد أحسن فى وصف أرض مصر وما يئول إليها ، لقد أحسن وصفها لدرجة أنه لا ينكرها إلا من لا يستطيعون معرفة الأشياء . الحمد الله معشر المسلمين على النعم التى أولاكم إياها فملككم مصر وغيرها من البلاد . إنه هو الذى يجب أن نطلب منه العون » .

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٥٦١٢

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٨٩٣ - ١

هذا الكتاب يعرض وجهة نظر غربية لفترة من فترات تاريخنا المعاصر .. فمن خلال مشاهد من الحياة الشرقية ، يتناول الكتاب الوضع الاجتماعى للنساء فى هذه الفترة ، والحياة الخاصة فى القاهرة من خلال حفلاتها ، ومراسم الجنازات وذكريات عن بعض أحياء القاهرة ، والعادات والتقاليد السائدة فى هذه الفترة التاريخية .

٢٩٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب